



جمهورية مصر العربية

الأزهر الشريف

قطاع المعاهد الأزهرية

إدارة الكتب الأزهرية

المَطَاهِرُ الْحَبِيبَةُ الْأَزْهَرِيَّةُ

لِلصِّفِّ الْأَوَّلِ الشَّانَوِي

« نظام حديث »

تأليف

عبد الحميد رجب

عبد السميع السنباطي

زكى على سويلم

عبد الحكيم نعناع

طبع على نفقة قطاع المعاهد الأزهرية

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

طبعة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد :
فقد كان للهداية التي من الله بها علينا - في إعداد كتب المطالعة
والنصوص للمرحلة الإعدادية الأزهرية - أكبر حافز لنا على تأليف
كتب أخرى في المطالعة لأبنائنا طلاب المرحلة الثانوية سائرين على نفس
الدرب الذي سلكناه ، مترسمين خطا هذا النهج القويم الذي أوضح
لنا معالمة إمام المسلمين الدكتور عبد الحلیم محمود .

وقد راعينا في اختيار الموضوعات التفاوت في السن ، والمستوى
العلمي ، والقدرة على الفهم والاستيعاب بين طلاب المرحلتين ، كما
أننا لم نسرف في مناقشة كل الموضوعات ، وضبط كل الكلمات
بالشكل وشرحها لغويًا كما فعلنا سابقًا ، وإنما اقتصرنا على الضروري
المستغلل منها .

لم نسرف في كل هذا مخافة أن يكون ذلك مدعاة لاعتماد الطلاب
على أعينهم دون عقولهم ، أو يكون صارفًا لهم عن الاعتماد على النفس ،
وعن الرغبة في التنقيب في المعاجم ، والاستزادة من المعرفة التي نهيب بأبنائنا
وبناتنا أن يحرصوا عليها في شبابهم قبل أن يشغلوا عنها بأعباء الحياة وشئونها ،
والله نسأل أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم .

المؤلفون

٢١ من ربيع الآخر ١٣٧٩ هـ

١٠ من إبريل ١٩٧٧ م .

ذو الوجهين

جاء في الصحيحين وغيرهما أن النبي - ﷺ - قال : « تجذون من شرّ النَّاسِ ذا الوجهين ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهِه ، وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهِه » .

من الآفات الخُلُقِيَّة الوبيلة ، الموجودة بين الناس منذ القدم : الرياء ، والمداهنة ، والنفاق ، والخداع ، والملق والغش ، والتميمة ، والوشاية ، والتجسس والسعاية .

ولقد لعبت هذه الرذائل الممقوتة دوراً خطيراً في تاريخ البشرية الطويل ، فكثيراً ما حولت مجرى حياتها في طرق ملتوية ، ودفعت بها في اتجاهات معوّجة ، وكم من دول دبّت إليها عوامل الفناء ، ونخرت في كيائها عناصر الانحلال من طريق هذه الرذائل ، وكم من طوائف وجماعات استحکم بينها العداء ، وتمكن منها التفرّق والتمزّق بسببها ، وكم من أسر وأصدقاء أطاحت هذه الآفات بمودّتهم ، وقضت على وحدتهم ، وعبثت بمصالحهم ، وصيرتهم أعداء متحاربين ، بعد أن كانوا إخوة متحابّين ، ومن يفتش في ثنايا التاريخ ، ويستعرض مشاكله ، وحوادثه يجد فيها من الأمثلة على ذلك الشيء الكثير .

ومهما يكن من أمر تلك الرذائل ، ومن تاريخها ، ومن تأثيرها الخاص والعام في المجتمع ، فإن الذي يعيننا أن نسجله من شأنها في هذا المقام ، هو أنها جميعها - سواء أكانت متقاربة أم متباعدة ، ومتماثلة أم متغايرة - تجمع كلها في ذى الوجهين ، وتتلاقى في أطواء نفسه الشريرة ، لأنه لا يمكن له أن يمثل دوره ، ولا أن يقوم بمهمته ، إلا إذا كان على جانب كبير من كل تلك الأوصاف المرذولة ؛ فهو في الواقع من شر ما ابتليت به الإنسانية في

جماعاتها وآحادها ، ومن أخطر ما منيت به عن طريق جنسها ، لأنه جماع النقائص وأصل المفاسد ، ولأنه لا يهدأ له بال ، ولا يستقر له حال ، إلا إذا رأى النفوس حاقدة ، والقلوب واجدة ، والصلات مقطوعة ، والأواصر منحلة ، والحزازات متمكنة ، والعداوة والبغضاء قائمة بين الأفراد والجماعات على قدم وساق .

ومما يشهد بشناعة حال ذى الوجهين ، وقُبْح عمله : ما جاء في بعض روايات الحديث الذى معنا من وصفه بأنه شرُّ الناس فقد أخرج مسلم عن طريق أبى هريرة : « إنَّ شرَّ الناس ذو الوجهين » .

على أن اجتماع كل تلك الأرصاف في ذى الوجهين ، لا يمنع أن أبرز وصف بينها هو النفاق ، وهو قد لا يقف فيه عند حد النفاق الشخصى الذى يقوم على الكذب والاختلاق ، والتصنع والرياء ، والخداع ، ولين القول ، والذى يحاول صاحبه أن يلقي الناس بوجوه مختلفة ، وأن يعامل كل واحد منهم بما يرضيه عنه ، ويدنيه منه ، ويحببه إلى قلبه ؛ بل ربما يجمع بينه وبين النفاق العام الذى يكون في الدين ، وفي الدولة ، وبخيانة الأمة والملة ، وبالخروج على النظم المشروعة ، والفضائل الثابتة ، والاستهانة بالمبادئ القومية ، والمثل العالية ، وهذا ضرر أعظم الضرر ، لأنه يهدد كيان الأمة ، ويؤثر في مجموعها ، ويشيع فيها كثيرًا من ألوان الشر والفساد .

وصف الحديث ذا الوجهين بأنه من شر الناس للمبالغة في ذمه ، والتنبية على قُبْح عمله ، ولتصوير حالته بصورة ينفر منها المسلم ، ويأبأها المؤمن ، ويتحاماها أصحاب العقول السليمة ، والأخلاق الفاضلة .

ويقال : شر وأشر ، بزيادة الألف لغة ، كما يقال : خير وأخير بمعنى ، ولكن الذى بالألف أقل استعمالاً ، والناس : يحتمل أن يكون المراد به الطائفتين المتضادتين الخاصتين اللتين يقوم ذو الوجهين بتمثيل دوره بينهما ، فإن كل طائفة منها بجانب للأخرى ظاهراً ، فلا يتمكن من الاطلاع على أسرارهما ومعرفة أخبارهما ، واستبانة أحوالهما إلا بما يبذله سرّاً من غش الطرفين ، وخداع الفريقين ، وتزيينه لكل طائفة عملها ، وتقبيحه عند الأخرى ، وذم كل واحدة منهما في حال وجوده مع الثانية ، وإفهامها أنه لها وحدها ، وأنه حلف معها على عدوها ، فهو شر الطائفتين جميعاً من هذه الناحية .

ويحتمل أن يكون المراد به عموم الناس ، ويؤيده ما جاء في رواية الإسماعيلي من طريق أبي شهاب عن الأعمش بلفظ « من شر خلق الله ذو الوجهين » وهذا الاحتمال أولى ، لأنه أبلغ في الذم .

وقال جماعة : إنه يصح حمل « الناس » على أن المراد به من يُرائى بعمله ، ويتظاهر بالورع والتقوى فيرى الناس خشوعاً واستكانة ، ويبدى لهم عفة ونزاهة ، ويوهمهم في أنه يخاف الله ويخشاه ، حتى يكرموه ويوقروه ، وهو في الباطن والحقيقة بخلاف كل ذلك ، ولكن هذا المعنى كان يصح ، لو أنه اقتصر في الحديث على صدره ، فإنه داخل في مطلق ذي الوجهين ، ولكن بقية الحديث ترد هذا الفهم ، وهى قوله : « يأتى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » .

وأطلق الحديث لفظ ذي الوجهين على صاحب هذه الخصال ، لما يقع في أعماله وتصرفاته من تلوّن ، وتذبذب ، ولما يكون عليه مظهره أمام أحد الفريقين بما لا يكون عليه أمام الفريق الآخر ، فكأن له وجهين مختلفين ، يقابل هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه .

وهو يعتبر من شر الناس في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا ، فلما يخالط عمله من خيانة وتضليل ، وتلبيس وتزوير ، ووقية وسعاية ، واختلاق ودس ، وما إلى ذلك من رذائل كثيرة ، ولما يترتب عليه من إغار للصذور ، وخلق للأحقاد ، وإفساد بين الأفراد والجماعات ، وتعكير للأجواء الصافية ، وصرف للجهود الصادقة عن متابعة العمل المثمر إلى الاشتغال بمقاومة الكيد والتدبير والائتمار . رَوَى البخارى في الأدب المفرد عن أبي هريرة : « لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أميناً » .

وأما في الآخرة ، فلما يلقاه يوم القيامة من عذاب شديد وعقاب أليم ، ويدل له ما أخرجه أبو داود من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه - قال : « من كان له وجهان في الدنيا ، كان له يوم القيامة لسان من نار » .

هذا كله في نقلة الأخبار الذين يقصدون من نقلها الإفساد بين الناس ، وإيقاع الخلل في صفوفهم ، وإيجاد العداوة بينهم . أما إذا كان في النقل مصلحة شرعية ، وكان الناقل يقصد النصيحة ، ويتحرى الصدق ، ويجتنب الأذى ، ويأتى لكل طائفة بما فيه صلاحها ، ويعتذر لكل واحدة عند الأخرى ، وينقل إليها ما أمكنه من الجميل ، ويستر عنها القبيح ، فهذا مطلوب شرعاً كمن عرف من شخص أنه يريد أن يؤذى شخصاً ظلماً ، فأخبره بذلك ، وحذره منه ، وكمن أخبر الإمام بسيرة عامل من عماله ، فإنه لا حظر في ذلك ، لأنَّ النقل على وجه النصيحة له أصل شرعى ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم - لم ينكر على ابن مسعود نقله ما نقل إليه في حديث القسمة .

وقد يكون من موجبات الأسف انتشار هذا الصنف من الناس الآن ،
ووجوده في معظم البيئات والأوساط ، ونجاحه في كثير من محاولاته
وتدبيراته ، بسبب الضعف العام الذي طرأ على الأخلاق فغيرها ، وعلى
النفوس فأذلها .

وقد يكون خير علاج لشُرور ذى الوجهين ، وأحكم طريق لمقاومتها ،
هو ما أشار إليه الغزالي في قوله : ينبغي لمن حُمِلت إليه نَمِيمةٌ ألاَّ يصدق من
نَمَّ له ، وألاَّ يظن بمن نَمَّ عنه ما نقل عنه ، وألاَّ يبحث عن تحقيق ما ذكر
له ، وأنَّ ينهى الناقل ويَقْبَحَ له فعله ، وأنَّ يَغْضَه إذا لم يكف ويقلع ،
وألاَّ يرضى لنفسه ما نهى الثمام عنه .

فإن هذه النصيحة لو نفذت عمليا ، فإننا سنسلم من كثير من الشرور ،
ونبتعد عن كثير من المفسد ، ونستطيع أن نعيش في صفاء ، وسلام ،
ووفاق ، ووثام .

زهد الصحابة في صدر الإسلام

को लोपि

عَمِلْتُ يَا عَمِيرُ . فقال : ويخبر عنها المريح ، فهنا يطلب شرعاً

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

عيشًا إِلَّا الشَّعِيرَ وَالزَّيْتَ ، فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثَةُ الْأَيَّامَ دَفَعَ إِلَيْهِ الدَّنَانِيرَ وَقَالَ :
« قَدْ بَعَثَ بِهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ » . فَدَعَا بِفَرَسٍ خَلَقَ لَامِرَاتَهُ ، فَجَعَلَ يَصُرُّ
مِنْهَا الْخَمْسَةَ الدَّنَانِيرَ ، وَالسَّتَةَ ، وَالسَّبْعَةَ ، وَيَبْعَثُ بِهَا إِلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْفُقَرَاءِ
إِلَى أَنْ أَنْفَدَهَا .

فَقَدَّمَ حَبِيبَ عَلِيٍّ عُمَرَ وَقَالَ : « جِئْتُكَ ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ عِنْدِ أَزْهَدِ
النَّاسِ ، وَمَا عِنْدَهُ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ » .

وَلَمَّا رَجَعَ عُمَيْرٌ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ، أَمَرَ لَهُ عُمَرَ بِوَشْقَيْنِ مِنْ طَعَامٍ ، وَثَوْبَيْنِ ،
فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمَّا الثَّوْبَانِ فَأَقْبِلْهُمَا ، وَأَمَّا الْوَشْقَانِ فَلَا حَاجَةَ لِي
بِهِمَا ، فَعِنْدَ أَهْلِي صَاعٌ مِنْ بُرٍّ ، وَهُوَ كَافِيهِمْ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ » .

وَرَوَى أَنَّ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - صَرَّ أَرْبَعَمِائَةَ دِينَارٍ وَقَالَ لِلْغُلَامِ :
« اذْهَبْ بِهَا إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ثُمَّ تَرَبَّصْ عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ سَاعَةً حَتَّى
تَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ » . فَذَهَبَ بِهَا الْغُلَامُ إِلَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ : « يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : اجْعَلْ هَذِهِ فِي بَعْضِ حَوَائِجِكَ » . فَقَالَ : « وَصَلَهُ اللَّهُ
وَرَحْمَهُ ! » ثُمَّ دَعَا بِجَارِيَةٍ وَقَالَ لَهَا : « اذْهَبِي بِهِذِهِ السَّبْعَةَ إِلَى فُلَانٍ ، وَبِهِذِهِ
الْخَمْسَةَ إِلَى فُلَانٍ ، حَتَّى أَنْفَدَهَا » . فَرَجَعَ الْغُلَامُ إِلَى عُمَرَ وَأَخْبَرَهُ ، فَوَجَدَهُ
قَدْ أَعَدَّ مِثْلَهَا لِعُمَازِ بْنِ جَبَلٍ ، فَقَالَ : « انْطَلِقْ بِهَا إِلَى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، وَانْظُرْ
مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِ » .

فَمَضَى إِلَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ، فَفَعَلَ مُعَاذُ كَمَا
فَعَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ ، فَرَجَعَ الْغُلَامُ ، وَأَخْبَرَ عُمَرَ فَقَالَ : « إِنَّهُمْ إِخْوَةٌ ، بَعْضُهُمْ
مِنْ بَعْضٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ » .

مختارات من كلام النساك ومواعظهم

عن الحسن^(١) قال : لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسألَ عن ثلاث :
شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيم أنفقه .

وقال يونس بن عُبيد^(٢) : سمعت ثلاث كلمات لم أسمع بأعجب
منهن : قول حسان بن أبي سنان^(٣) : ما شئ أهُون من ورع ، إذا رابك أمر
فدعه . وقول ابن سيرين^(٤) : ما حسدت أحداً على شيء قط . وقول موروّق
العجليّ : لقد سألتُ الله حاجة منذ أربعين سنة ما قضاها ، ولا يثست منها ،
فقليل لموروّق : ما هي ؟ قال : تركُ ما لا يعنيني .

وقال أبو حازم الأعرج : إن عُوفينا من شرٍّ ما أُعطينا ، لم يضرنا فَقْدُ
ما زُوى عنا .

(١) هو الحسن البصري .

(٢) هو أبو عبد الله يونس بن عبيد العبدى : شهر بالورع السديد والخوف الشديد وله
الكلام الموزون ، واللسان المخزون ، وكان من التقوى والصلاح على جانب عظيم . وهو من
أصحاب ابن سيرين ، وكان يتجر في الخز والإبريسم ، وكانت بينهما مفاكهاة ومداعبات . قال
يونس : أتيت ابن سيرين في بيته فدعوت جاريته فسمعتة يقول : قولوا له : إني نائم . فقلت :
إن معي ، خبيصا فقال : مكانك حتى أخرج اليك . توفي سنة ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م وله ترجمة
مستفيضة في حلية الأولياء .

(٣) كان حسان بن أبي سنان من تجار البصرة الأتقياء . وكان له شريك بالبصرة وهو
يقيم بالأهواز ، ويجهز لشريكه السلع والبضائع ، ثم يجتمعان على رأس كل سنة فيقتسمان الربح
فكان يأخذ ما يكفيه من ربحه ويتصدق بما بقى ، وكان شريكه يبنى الدور ، ويتخذ الضياع .
وله كلام محسن يدور على الزهد والعفة والقناعة وتروى له أحاديث ، وترجمته مستفيضة في الحلية .

وقال أبو عبد الحميد : لم أسمع أعجبَ من قول عُمر : لو أنَّ الصَّبرَ
والشُّكرَ بعيران ما باليتُ أيهما ركبتُ .

وقال ابن ضُبارة^(١) : إنا نظرنا فوجدنا الصبر على الطاعة أهون من
الصبر على عذاب الله .

وقال زياد^(٢) مولى (عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة) : أنا من أن
أمنع الدعاء أخوفُ مِنِّي من أن أمنع الإجابة .

وقال له عمر بن عبد العزيز : يا زياد ، إني أخاف الله مما دخلتُ فيه .
قال : لستُ أخاف عليك أن تخاف ، وإنما أخاف عليك ألا تخاف .

وقال بعض النساك : كفى موعظةً أنك لاتموت إلا بحياة ، ولا تحيا إلا
بموت . وهو الذى قال : اصحب من ينسى معروفه عندك . وهو الذى قال :
لا تجعل بينك وبين الله منعاً . وعُدَّ النعم منك عليك مغرمًا .

(١) هو عمرو بن ضبارة ويقال : عامر كان فارس ربيعة بخراسان أيام قيام الدعوة العباسية
وكان من المناوئين لها . قتل في المعركة سنة ١٢١ هـ ٧٣٩ م .

(٢) هو زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش . بن أبي ربيعة الخزومي . كان من الأتقياء ، الصالحين
ومن النساك المتزهدين ، وله كلام حسن يعد من الحكم .

ودخل سالم بن عبد الله^(١) ، مع هشام بن عبد الملك البيت ، فقال له هشام : سلني حاجتك ؟ فقال : أكره أن أسأل في بيت الله غير الله .

وقيل لرابعة القيسية : لو كلمت رجال عشيرتك فاشترؤا لك خادماً تكفيك مهنة بيتك ، فقالت : والله إنني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا ، فكيف أسأله من لا يملكها ؟

وقال بعض النساك : دياركم أمامكم ، وحياتكم بعد موتكم .

وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، وهم اليوم شوك لا ورق فيه .

وقال الحسن بن دينار : رأى الحسن (البصري) رجلاً يكيده بنفسه^(٢) ، فقال : إن أمراً هذا آخره لجدير أن يُزهد في أوله ، وإن أمراً هذا أوله لجدير أن يخاف آخره .

وقال أبو حازم (الأعرج) : الدنيا غرت أقواماً فعملوا فيها بغير الحق ، فلما جاءهم الموت خلفوا مألهم لمن لا يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم .

وقد خلفنا بعدهم ، فينبغي لنا أن ننظر إلى الذي كرهناه منهم فنجتنبه ، وإلى الذي غبطناهم به فنستعمله .

(١) هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

(٢) يكيده بنفسه : يعالج سكرات الموت .

وقال موسى بن داود (الصَّبِي) : النظر إلى خمسة عباد : النَّظَرُ إلى
الوالدين ، والنظرُ إلى البحر ، والنظرُ إلى المصحف ، والنظرُ إلى الصَّخْرَةِ ،
والنظرُ إلى البيت^(١) .

وقال عبد الله بن شدَّاد : أربَع من كن فيه برىء من الكبر : من اعتقل
البعير ، وركب الحمار ، ولبس الصُّوف ، وأجاب دعوة الرجل الدُّون .
ودخل أبو الدَّرْداء على رجل يُعوذه ، فقال له : كيف تجددك ؟ قال :
أفرق من الموت قال : فمَنْ أَصَبْتَ الخير كله ؟ قال : من الله . قال : فلم
تفرق ممن لم تُصِب الخير كله إِلَّا منه ؟

ودخل بعض النساك على صاحب له ، وهو يكيّد بنفسه ، فقال له :
طبّ نفساً فإنك تلقى ربّاً رحيمًا قال : أمّا ذنوبي فأني أرجو أن يغفرها الله
لي ، وليس اغتامي إِلَّا لمن أدعُ من بناتي ! قال له صاحبه : الذي ترجوه لمغفرة
ذنوبك ، فارجه لحفظ بناتك !

وقال يونس بن عُبيد : لو أمرنا بالجزع لصبرنا !

وكان يقول : كسبت في هذه السوق ثمانين ألف درهم ما منها درهم ،
إِلَّا وأنا أخاف أن أسأل عنه .

(١) يريد صخرة بيت المقدس ، ويعنى البيت الحرام .

وقال الحسن البصري : يَا ابْنَ آدَمَ ، بَعِ دُنْيَاكَ بِآخِرَتِكَ تَرْجُحُهَا جَمِيعاً ،
وَلَا تَبِعْ آخِرَتِكَ بِدُنْيَاكَ فَتُخْسِرُهَا جَمِيعاً . يَا ابْنَ آدَمَ ، إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فِي
الْخَيْرِ فَنَافَسْتَهُمْ فِيهِ ، وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي الشَّرِّ فَلَا تَغْبِطَهُمْ بِهِ ، الثَّوَاءُ هَهُنَا قَلِيلٌ ،
وَالْبَقَاءُ هُنَاكَ طَوِيلٌ .

أَمَّا إِنَّهُ وَاللَّهِ لَا أُمَّةَ بَعْدَ أُمَّتِكُمْ ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ ، وَلَا كِتَابَ بَعْدَ
كِتَابِكُمْ . أَنْتُمْ تَسْوِقُونَ النَّاسَ وَالسَّاعَةَ تَسْوِقُكُمْ ، وَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوْلَكُمْ أَنْ يُلْحِقَهُ
آخِرُكُمْ . يَا ابْنَ آدَمَ ، طَا الْأَرْضُ بِقَدَمِكَ فَإِنِهَا عَمَّا قَلِيلٍ قَبْرُكَ ، وَاعْلَمْ
أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَذِهِ عُمُرِكَ مِنْذُ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ ، رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا نَظَرَ
فَتَفَكَّرَ ، وَتَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ ، وَأَبْصَرَ فَصَبَرَ . فَقَدْ أَبْصَرَ أَقْوَامَ وَلَمْ
يَصْبِرُوا فَذَهَبَ الْجَزَعُ بِقُلُوبِهِمْ ، وَلَمْ يُذَكِّرُوا مَا طَلَبُوا ، وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مَا
فَارَقُوا .

يَا ابْنَ آدَمَ ، اذْكُرْ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ
وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ
عَلَيْكَ حَسِيبًا) عَدَلَ وَاللَّهُ عَلَيْكَ مِنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ !

يَا ابْنَ آدَمَ ، الْإِيمَانُ لَيْسَ بِالتَّحَلِّيِ وَلَا بِالتَّمَنَّى ، وَلَكِنَّهُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ ،
وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ .

وَكَانَ يَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا خَلَا بِكِتَابِ اللَّهِ فَعَرَضَ عَلَيْهِ نَفْسَهُ ، فَإِنْ
وَافَقَهُ حَمْدُ رَبِّهِ وَسَأَلَهُ الزِّيَادَةَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَإِنْ خَالَفَهُ اعْتَبَتْ وَأُنَابَ ، وَرَاجَعَ

من قريب . رحم الله رجُلًا وعظ أخاه وأهله فقال : يا أهلى صلاتكم . صلاتكم ، زكاتكم زكاتكم ، جيرانكم جيرانكم ، إخوانكم إخوانكم ، مساكينكم مساكينكم ، لعل الله يرحمكم ، فإن الله - تبارك وتعالى - أثنى على عبد من عباده فقال : (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيًا) .

يا ابن آدم ، كيف تكون مسلمًا ولم يسلم منك جارُك ؟ ! وكيف تكون مؤمنًا ، ولم يأمنك الناس ؟ وكان يقول : لا يستحق أحدٌ حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيبًا إلا وجد في نفسه عيبًا آخر ينبغي له أن يصلحه ، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئًا من الخير وإن صغر ، فإنك إذا رأيت سرًّا مكانه . ولا تحقرن شيئًا من الشر وإن صغر ، فإنك إذا رأيت ساءك مكانه .

وكان يقول : رحم الله عبدًا كسب طيبًا وأنفق قسداً ، وقدم فضلاً ، وجَّهوا هذه الفضول^(١) حيث وجهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ، ويؤثرون بالفضل .

ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها ، فلا والله ما وجد ذو لب

(١) يريد بالفضول ، فضول المال الزائد عن الحاجة ، يحسن أن يوضع في الخير .

فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السُّبُل المتفرقة التي جماعها الضلالة ، وميعادُها النار !!

أدرکت من صدر هذه الأمة قوماً كانوا إذا جَنَّهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يُناجون مولاهم في فكاك رقابهم . إذا عملوا الحسنة سرَّتهم ، وسألوا الله أن يتقبلها منهم ، وإذا عملوا سيئة ساءتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم .

يا ابن آدم ، إن كان لا يُغنيك ما يَكفيك فليس ههنا شيء يُغنيك ، وإن كان يُغنيك ما يَكفيك فالقليلُ من الدنيا يَكفيك .

يا ابن آدم ، لا تعمل شيئاً من الحق رياءً ولا تتركه حياءً .

وكان يقول : إن العلماء كانوا قد استغنوا بعلمهم عن أهل الدنيا ، وكانوا يقضون بعلمهم على أهل الدنيا مالا يقضى أهل الدنيا بدنياهم فيها ، وكان أهل الدنيا يبدلون دنياهم لأهل العلم رغبةً في علمهم ، فأصبح أهل العلم اليوم يبدلون علمهم لأهل الدنيا رغبةً في دنياهم ، فرغب أهل الدنيا بدنياهم عنهم ، وزهدوا في علمهم ، لما رأوا من سوء موضعه عندهم .

وكان يقول : لا أذهب إلى من يُوارى عنى غناه ويُبدى لى فقره ويُغلق دوفى بابه ، ويمنعنى ما عنده ، وأدع من يفتح لى بابه ، ويُبدى لى غناه ، ويدعونى إلى ما عنده وهو الله تعالى .

وكان يقول : يا ابن آدم ، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر .

أى قوم ، إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم فسارعوا إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد ما كان له واعظاً من نفسه ، كانت المحاسبة من همه .

فإن كان المؤمن قد أتى الله بما يحب من الأعمال ، فإنه لا يزال له راحة من ربه ، ولا يزال له راحة من نفسه ، ولا يزال له راحة من خلقه ، ولا يزال له راحة من الدنيا ، ولا يزال له راحة من الآخرة .

وإن كان المؤمن قد أتى الله بما يكره من الأعمال ، فإنه لا يزال له راحة من ربه ، ولا يزال له راحة من نفسه ، ولا يزال له راحة من خلقه ، ولا يزال له راحة من الدنيا ، ولا يزال له راحة من الآخرة .

وإن كان المؤمن قد أتى الله بما يحب من الأعمال ، فإنه لا يزال له راحة من ربه ، ولا يزال له راحة من نفسه ، ولا يزال له راحة من خلقه ، ولا يزال له راحة من الدنيا ، ولا يزال له راحة من الآخرة .

موسى والخضر

وقف موسى - عليه السلام - خطيباً في بنى إسرائيل مذكراً لهم بأيام الله بعبارات تثير الأسى وتبعث الشئون (١) ، ففاضت العيون ، ورقّت القلوب .

ولما انتهى من قوله تعلق بأهدابه رجل ، وقال :
أى رسول الله ، هل فى الأرض من هو أعلم منك ؟ قال : لا .

أليس هو كبير أنبياء بنى إسرائيل وقاهر فرعون ، أو ليس هو صاحب اليد والعصا وبعضاه انقلب البحر ؟ أليس الله قد شرّفه بالتوراة ، وكلّمه جهرة وعياناً ؟ فأى غاية أبعد من هذه الغاية ؟ وأى شرف أسمى من هذا الشرف ؟

ولكن الله أوحى إليه أن العلم أعظم من أن يحويه رجل ، أو ينفرد به رسول ، وأن فى الأرض من خصه الله بعلم أوفر من علمه ، ونصيب من الإلهام أوفر من نصيبه . قال : يارب ، أين مكانه ؟ لعلّ ألقاه فأصيب قبساً . من علمه ، أو فيضاً من إلهامه ، ويقينه ، قال : تلقاه بمجمع البحرين . قال : اجعل لى علماً (٢) يدلنى عليه ، وآية ترشدنى إليه . قال : آية ذلك أن تأخذ حوتاً فى مكث (٣) فحيث فقدت الحوت فقد وجدت الرجل .

(١) الشئون : الدموع .

(٢) علماً : علامة .

(٣) مكث : ما يعرف (بالمقطف) .

فأخذ موسى للأمر عدته ، واصطحب فتاه ، وحمل المكتل ، ووضع الحوت فيه كما أوحى إليه ربه ، وظل سائرًا وقبلته الرجل ، وأخذ على نفسه عهدًا أنه سيظل مجدًا في السير ، ممعنا في الطلب ، حتى يبلغ هذا المكان ، ولو مضت عليه الأيام ، أو تعاقبت السنون ، ثم أذن الفتى أن يخبره إذا فقد الحوت . ولما بلغ مجمع البحرين ، في المكان الذى أراد الله أن يلتقى فيه نبيُّ بنى إسرائيل بعبده الصالح ، أخذت موسى سنة فنام . وفى أثناء نومه هضبت^(١) السماء فابتل الحوت وانتفض ، وسرت إليه الحياة ، ثم قفز إلى الماء . واستيقظ موسى - عليه السلام - ونادى فتاه : هيا نواصل السير والسرى^(٢) . وأنسى الشيطان الفتى ما كان من أمر الحوت ، وتابعه المسير إلى أن أدركهما الأين^(٣) وأحسا بالجوع ، فقال موسى لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا .

ولمّا هم أن يأخذ الغداء من المكتل تذكر ما كان - من أمر الحوت وذهابه فى الماء ، فقال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة وحين غشاك النعاس ، فإن الحوت قد اتخذ سبيله إلى الماء ، ونسيت أن أذكرك ، وما أنساني إلا الشيطان .

وحينئذ لاحت لموسى شارة الظفر ، ووجد ريح الرجل ، فقال : ذلك ما كنا نبغيه وننشده ، هيّا بنا نعود إلى هذا المكان ، فإننا سنصيب الغاية .

(١) هضبت السماء : أمطرت .

(٢) السرى : السير ليلا .

(٣) الأين : التعب .

ورجعا يقفوان الأثر^(١) ويتعرفان الطريق . ولَمَّا وصلا إلى حيث فقد الحوت
وجدا رجلاً نحيل الجسم ، غائر العينين ، عليه دلائل من النبوة ، وفي وجهه
فيض من السماحة والتقوى ، قد سجدى بثوبه ، وجعل طرفه تحت رجله .
وطرفه الآخر تحت رأسه ، فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه ، قال :
هل بأرضى من سلام ؟

من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى نبي بنى إسرائيل ؟ قال :
نعم ، ومن أعلمك بهذا ؟ قال : الذى بعثك إلى . فعلم موسى أنه وجد ضالته
التي ينشدها ، وبغيته التي جهد في سبيلها ، فتلطف في القول ، وتحمل
بأحسن ما وهبه الله من أدب الحديث وفضل التواضع ، وقال : هل تأذن
أيها العبد الصالح لرجل جاهد في سبيل لقائك ، ولقى العناء حتى أصاب
موضعك ، أن تفيض عليه من علمك ، وأن تقبسه شيئاً من هديك ، على
أن أتبعك ، وأسير في ظلك وألتزم أمرك ونهيك ؟

قال له الخضر : إنك لن تستطيع معى صبراً ، ولو أنك صحبتنى فإنك
سترى ظواهر عجيبة ، وأموراً غريبة ، وسترى أموراً منكراً في ظاهرها ، وإن
كانت حقاً في باطنها ، ولكنك بما ركب الله في البشر من إلف القيل والقال ،
والجنوح إلى البحث والجدال ، سوف لاتسكت عن الاعتراض ، ولا تنورع
عن الامتناع ، وكيف تصبر على ما يخرج عن مألوفك ، ويتجاوز معروفك ؟

(١) يقفوان الأثر : يتبعانه .

فقال له موسى - وكان حريصًا على العلم وتوًّا إلى المعرفة : (سَتَجِدُنِي
إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) .

قال الخضر : إن صحبتني آخذ عليك عهدًا وشرطًا ، أن تأخذ عدتك
من الحزم والصبر ، ونصييك من الجلد وضبط النفس ، فلا تبتردني بسؤال
ولا تثير أمامي أي اعتراض ، حتى ينقضي الشرط وتنتهي الرحلة ، وإني بعدها
سأقي على ما في نفسك ، وأشفى ما بصدرك .

فقبل موسى الشرط ، وقيد نفسه بذلك العهد ، وسار على الساحل ،
حتى لحا سفينة في البحر ، فطلبا من أهلها حملهما إلى حيث يذهبون ، ولما
قرعوا السماحة في وجهيهما ، ورأوا بريق النبوة يلمع في عيونهما ، حملوهما
من غير نول^(١) وبينما هما في السفينة ، وعلى حين غفلة من أهلها ، أخذ
الخضر لوحين من خشب السفينة فخلعهما ، فهال موسى - وهو الرسول
الكريم الذي أرسل لهداية الناس وردّ عادية الظلم عنهم - أن يقابل صنيعهم
بالإساءة ، وجميلهم بالنكران . وخشى أن يصيبهم غرق أو هلاك ، فنسى
عهده وشرطه ، وصاح : أتعمد إلى قوم أكرموا وفادتنا ، وأحسنوا لقاءنا ،
فتخرق سفينتهم وتحاول إغراقهم ؟ . (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ^(٢)) .

(١) نول : أجرة .

(٢) شيئا إمرا : عظيما .

فالتفت الخضر إليه ، وما زاد على أن ذكره بشرطه ، وما قدره من قبل أنه سوف لا يصبر على سؤال ، ولا يسكت عن مرأى ، وقال : (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) ، وحينئذ أدرك موسى ما وقع فيه من خطأ ، وما تورط فيه من نسيان ، فاعتذر إليه ، واستغفره من نسيانه ، وقال : لا تؤاخذنى بما نسيْتُ ، ولا تحرمنى شرف الصحبة ، وفضل المرافقة ، وسأكون بعد الآن كما شرطت . وغادرا السفينة ، وتابعا السير ، فوجدا غلامًا وضيئًا يلعب مع لِداته وأقرانه ، فأخذه الخضر بعيدًا ، ثم أضجعه وقتله . ففزع موسى من هذا القتل ، وكبر عنده ذلك الإثم ، إذ رأى غلامًا يافعًا ، قد يكون وحيد أهله ، ورجاء والديه ، يقتل فى غير قود^(١) ويسفك دمه من غير إثم ، على يد ربائى كريم ، وإمام من أئمة الدين . فتحلل من عهده ، وأطلق نفسه من ميثاقه ، وقال : ما هذا المنكر الذى تأتبه ، والإثم الذى ترتكبه ؟ (أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا)^(٢) .

فالتفت إليه الخضر ، ولم يزد على أن ذكره بعهده ، وما كان من شرطه ، وما قدره مما سيكون من سؤاله عمًا لا يعرف ، وامتناعه مما لا يألف ، قائلاً : (أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) .

(١) قود : قصاص

(٢) النكر : المنكر .

وهنا استحيا موسى ، وأدرك أنه قد أثقل على هذا العبد الصالح ، وكان خليقاً به أن يتذرع بالصبر ، ويمسك لسانه عن الجدل ، حتى يفصح له بعد عما خفى من أمره ، وما تشابه عليه من علمه ، وخشى إن تمادى أن يقع منه على موجدة أو كراهية ، فاتخذ لنفسه شرطاً : ألا يعجل بسؤال بعد الآن ، وإلا فإن رفيقه في حل من مفارقتة ، وقطع صحبتة ، وقال : (إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا) .

وانطلقا على هذا الشرط حتى أدركهما الطوى ، ونال منهما النصب والكلال ، وصادفا قرية في طريقهما ، فدخلها طمعاً في زاد يعينهما على السير ، ويمسكهما على الجوع ، ولكن أهلها بما كانوا عليه من لؤم النحيزة (١) وكزازة النفس - أبوا أن يضيفوهما ، وردوهما ردّاً غير جميل ، فلم يجدا عندهم مأوى ولا طعاماً وخرجوا جائعين ساخطين . وقبل أن يجاوزا القرية ، وجدا جداراً يتداعى للسقوط ، فأقامه الخضر ، وأصلح من شأنه ، فقال موسى : عجبا : أتجازى هؤلاء القوم اللؤماء الذين أساءوا اللقاء ، بهذا الإحسان ؟ لو شئت لاتخذت على عملك هذا أجرا نسد به حاجتنا ، ونحفظ به على الحياة أنفسنا .

قال الخضر ، وقد آمن بأن موسى سوف لا يستطيع بعد الآن صبراً :-
(هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) ، أما

السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فيصيبون منها رزقاً ، يعينهم على الكسب ، ويقطعون به مفازة الحياة ، ولكن ملكاً ظالماً كان يتبع كل سفينة صالحة ؛ يأخذها من أهلها عنوة ، ويستولى عليها غصباً ، فأردت أن أعيها ، رفقا بهم ، ورحمة لهم ، حتى إذا شهدها ملكهم تركها لعيها ، فهذا عمل إن كان ظاهره الفساد ، ففى باطنه الرحمة ، وإن كنت قد حسبته نُكراً فإنما هو حفظ للمساكين ، وإبقاءً على حياة هؤلاء البائسين .

وأما الغلام فكان وَقَّاحاً مُبْغِضاً من الناس ، وكان أبواه مؤمنين ، وبما فطر الله الآباء على حب الأبناء ، والدفاع عنهم بالحق والباطل ، خشيت أن يحملهما هذا على التعصب له ، والميل إلى طريقه ، فينتهيا إلى الطغيان والكفر ، فقتلته حفاظاً لدينهما ، ورجاءً من الله أن يرزقهما خيراً منه زكاةً وأقرب رحماً .

وأما الجدار فقد علمت من الله أن تحته كنزاً ليتيمين صغيرين ، تحذراً من رجل صالح كريم ، فأردت أن أحمي هذا الجدار ، حتى يشتد أزرهما ، ويقوى على الحياة أمرهما ، فيستخرجا كنزهما مالاً حلالاً طيباً لهما .

وما فعلت هذا بعلمي ولا برأى ، ولكنه وحى من الله ، وهدى منه :
(ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ ^(١) عَلَيْهِ صَبْرًا) .

(١) تسطع : تستطع .

المناقشة

- ١ - أى رسول الله هل فى الأرض من هو أعلم منك ؟
متى وجه الرجل هذا السؤال إلى موسى عليه السلام ؟ وعلام استند موسى - عليه السلام - فى إجابته بالنفى على هذا السؤال ؟
- ٢ - العلم أعظم من أن يحويه رجل أو ينفرد به رسول ، وإن فى الأرض من خصه الله بعلم أوفر من علمه ... إلخ .
كيف انطبعت فى ذهن موسى - عليه السلام - هذه الحقائق ؟ وماذا تحمل من معان وتوجيه ؟
- ٣ - أين وكيف التقى موسى - عليه السلام - بمن هو أوفر منه علمًا ؟ وبماذا استرشد إليه ؟
- ٤ - كيف عادت الحياة إلى الحوت وأين اختفى ؟ ولماذا لم يخبر الفتى موسى - عليه السلام - باختفائه فى حينه ؟ ومتى أخبره ؟
- ٥ - بماذا استدل موسى على أن الرجل المسجى بثوبه هو العبد الصالح الذى يقصد إليه ؟
- ٦ - جاء فى القرآن على لسان موسى - عليه السلام - يخاطب العبد الصالح قوله تعالى : (هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً) يتجلى فى هذه الآية ما ينبغى أن يكون عليه طالب العلم من تواضع وأدب فى الحديث وخضوع للمعلم ، وضح ذلك .
- ٧ - أبان العبد الصالح لموسى - عليه السلام - أنه لن يستطيع الصبر معه فبماذا علل له ذلك ؟ وماذا كان رد موسى عليه ؟

٨ - أكرم ركاب السفينة العبد الصالح وموسى - عليهما السلام - فما مظاهر هذا الإكرام ؟ وبماذا قابل العبد الصالح هذا الصنيع ؟ ولماذا احتج عليه موسى عليه السلام ؟

٩ - تكرر إنكار موسى - عليه السلام - لتصرفات العبد الصالح مما اضطره إلى فراقه فبماذا تحكم على موقف كل منهما ؟

١٠ - بماذا أقنع العبد الصالح - موسى عليه السلام - بسلامة تصرفاته ؟

١١ - قد يخص الله بعض عباده بعلم من لدنه ، وتلك نعمة يعجز العبد عن شكرها . وضح ذلك في ضوء دراستك لهذه القصة .

١٢ - اكتب من سورة الكهف ما يتناول أحداث هذه القصة .

قارون

كان من قوم موسى وعشيرته الأقربين ، يُمْتُ إليه بسبب ، وتصل بينهما رحم ، وقد آتاه الله بسطة في العيش ، وسعة في الرزق ، وكثرة في الأموال ، فاجتمعت له أسباب السعادة ، وفاز من الدنيا بنصيب لا يظفر به إلا قليل . كان قارون ذا حظ عظيم ، فقد فاضت خزائنه بالأموال ، واكتظت صناديقه بها ، حتى ضاق الحفظة ذرعًا بمفاتيحها . وأثقلهم حملها ، وناء العُصْبَةُ أولو القوة بها .

وكان يعيش بين قومه عيشة البذخ والترف ، فكان يلبس الملابس الفاخرة ، ولا يخرج على قومه إلا في زينته ، ويسكن القصور ، ويصطفى لنفسه الخدم ، ويستكثر من العبيد والحشم ، ويستمتع من الحياة بما يشبع نهمه . ويروى ظمأه ، ويريد أن يصل إلى الغاية في النعيم - إن كانت للنعيم غاية .

والمال منذ الأزل زينة الدنيا وبهجتها ، وأساس الحياة وقوامها ، ومن استحوذ عليه طغى وتكبر واغتر وتجبر ، وظن أن أحدًا لن يقدر عليه ، وخيل إليه أن الناس جميعاً من طينة غير طينته أو أنهم ما خلقوا إلا مسخرين له ، فإذا تكلم طأطأوا ورؤوسهم عند سماع صوته ، وإذا أشار كانوا عند إشارته . وإذا نادى استَبَقُوا لتلبية ندائه ، وكانوا خلصاء له ، أو يجب أن يكونوا كذلك ، وإلا فالويل لمن تحدّثه نفسه بالعصيان ، والحرمان لمن يقعد عن نصرته . أو يتوانى عن تحقيق أمانيه ..

لم يكن قارون بذعًا في الحياة ، وإنما هو كغيره من الناس ، يسير سيرتهم
ويترسم طريقهم ، فبغى على قومه ، وفرض سلطانه عليهم ، وسامهم بطشه
وجبروته ، وليت هؤلاء الأغنياء يخفّفون من غلوائهم ، ويعرفون الحياة على
وجهها الصحيح ، ويتبينون منها الطريق الواضح ، إذاً لعرفوا أن المال وحده
لا يُخضع الرقاب ، ولا يستذل العباد ، وإنما الناس عبيد الإحسان ،
يستطيعون أن يجعلوهم طوع بئانهم ، إذا أفاضوا عليهم من خيرهم ،
وأطعموهم شيئاً من طعامهم .

لعلهم بذلك يستميلون القلوب ، ويدفعون كثيراً من الشرّ ، ويجلبون
لأنفسهم الخير ، ويجمعون الناس على محبتهم ، والالتفاف حولهم ، ولعلهم
بذلك أيضاً يدركون رضا الله ، فيكافئهم بثوابه ، ويجزيهم بجنّته فينالوا
الحسينين : حُسْنُ الأحدثِ في الدنيا ، وحُسْنُ الجزاءِ في الآخرة .

ولكنها القلوب يعميها المال ، والبصائر يذهب بها الزهو والغرور ، فلا
ترى إلا جماعات المرائين ، ولا تسمع إلا كلمات المنافقين ، ولا تحس نقمة
المحروم ، ولا لوعة المظلوم .

ورأى القوم أن قارون سادر في طغيانه وبغيه ، لاهمّ له إلا أن يستكثر
من المال وإن تضور غيره جوعاً ، وأن يكتسى من اللباس ما يزيّن به وإن
رأى العرى فاشياً ، هذا مع غرور واستئثار وبطر واستكبار . لما رأوا منه ذلك
نقموا عليه طريقه ، وحاولوا أن يثيروا فيه روح الخير ، وأن ينهوه على ما

غاب عنه . ونصحوه ألا يغويه المال أو يضلّه ، أو يحول بينه وبين الإحسان إلى قومه ، وإقالة عثرة المحتاجين ، ومسح دموع البائسين ، فبذلك يكسب الحمد في الدنيا ، وينال الثواب في الآخرة ، وهذا خير من المال وأبقى .

وقالوا : إنا لا نريد أن تنفض يدك من الدنيا وزينتها وتتجافى عن مباحجها ، وتنبأى بنفسك عن الاستمتاع بها ، فذلك مالا نريده ونأباه ، وإنما نرى لك رأياً . فيه خير لنا ولك ، هو أنك تقصد إلى الطيب من الرزق والحلال من المتاع ، فارشف من منهله ، وخذ فيه كما تشاء .

على ألا يشغلك ذلك عن الفقراء ، ولا ينسبك المحتاجين ، فأحسن إليهم كما أحسن الله إليك . ليحفظ عليك نعمتك ، ويزيد في مالك ، ويضفى عليك خيره وبركه .

على أن المال ظل زائل ، وودعة مستردة ، فلا تفرح بما أوتيت ، ولا تغتر به ، واتخذة وسيلة لقضاء مآربك في الدنيا ، وسبيلا إلى سعادتك في الآخرة ، وما حملنا على إسداء النصح إليك إلا حبنا لك ، ورغبتنا أن يُبقى الله فضله سائغاً عليك ، وخوفنا أن يسلب الله مالك أو يحرمك جنته . وأنّى للطاغية أن تتفتح آذانه ، للنصيحة تلقى إليه ؟ ومن للمستكبر ينال النصح من نفسه ويمس شغاف قلبه ؟

إن قارون قد أشرب قلبه حُبَّ المال ، وزاده الغنى غُلُوًّا واستكباراً ،
فليس لمثل هذا الكلام سبيلٌ إلى نفسه ، فمن هؤلاء الذين يشيرون عليه فيأثمّر ،
وتتطاول أعناقهم إلى نصحه فينتصح ؟ إنهم لاشك قد استباحوا حماه ،
ووضعوا أصابعهم فيما لا يعنيه من أمره ، بل إن هذا من أموره الخاصة .

لذلك كان جافياً في رده إذ قال : لستُ بحاجة إلى نصحكم ، فأنأ
أرجحكم عقلاً ، وأسدُّكم رأياً ، وما أُوتيت هذا المال إلا لأُتَى به أجدر
وأحق ، فاحتفظوا بهذه النصيحة لأنفسكم ، وقوموا بها أموركم ، أما أنا فخير
منكم مقاما وأكثر عرفانا .

وأراد أن يزيد في إيلاهم ، فخرج على قومه في زينته ، يدُلُّ بما أعطاه
الله من خير وفير ، ومال كثير .

ورآه المستضعفون من قومه ، يرفل في الثياب الجميلة ، ويركب المراكب
المطهمة ، وحوله الخدم يحفُّون به . فأحدقت به العيون ، واستشرف الناس
لرؤيته ، وحز في نفوسهم أن يروَه في هذا النعيم ، وهم في ضنك وبؤسٍ مُقيمٍ .
وتحدث بعضهم إلى بعض يقولون : ياليت لنا مثل ما أُوتى قارون إنه لذو
حِظٍّ عظيم .

ولما كانت النصيحة مع مثله لا تجدى ، والنسب لا يكفى عنده سبباً
لعطف القلوب ، ومنظر البؤس لا يستميل النفوس ، والفقر لا يستجيب إلى
دعائه مجيب ، فليس سيفُ القانون لينفُذَ إلى تلك الحجب الكثيفة ، فيهلك

ظلماتها ، ويزيل ما تراكم عليها ، فتنبعث للخير ، وتميل للإحسان . ليعلم إليه موسى في شدة وإصرار أن يؤدي زكاة ماله ، وأن يحسن إلى الفقراء ، ففي ماله حق معلوم ، للسائل والمحروم .

ولكن قارون قد طبع الله على قلبه ، وران عليه شحُّه ، فلم يصغ إلى دعوة موسى ، بل هزى به وسخر ، ورماه بالبُهتان ، ورد حديثه في عنف وسخرية ، فقال : قد احتملنا منك ما احتملنا ، فقد جئتنا بدين جديد ، فجاريناك فيه ، وأمرتنا بكذا وكذا ، فاستمعنا لأمرك ، فأطعك ذلك فينا وجرأك علينا ، فلم يبق إلا المال تسلبه ، والثروة تريد أن تستحوذَ عليها ، لقد أسلمنا لك القلوب ، وأخضعنا لك الرقاب ، ولكن هيهات أن نسلم لك من القلب سويداءه ، ومن الطرف سواده ، إنك بهذا قد دلت على كذبك ، وكشف ما حاولت ستره من أمرك ، إنك لساحر كذاب . وحاور قارون وجادل ، وأصر موسى وقاوم ، فهذا أمر الله لا يحتمل الجدل ولا المساومة . وخضع قارون بعد لأي وعلى مضض .

ورجع إلى بيته يحسب ما ينال الفقراء من ماله ، فهاله ما وجد ، وأفرعه ما رأى ، فرجع إليه دأؤه ، وتملكه شحه ، وأراد أن يمسك المال ، حتى لا يرى نفوساً بائسة يدخل إليها النعيم والسرور ، واحتال للأمر فأذاع ذائعة السوء ، فقال : إن موسى إنما يلبس ثوب الرياء ، ليكون له من ذلك عرض الدنيا وزينة الحياة ، ولو فتشنا عن مكنون سره وما يختلج في ضميره ، لوجدناه أبعد الناس من الدين ، وأقصاهم عن الله .

وحاول بالمال أن يفتن الناس^(١) ويصرفهم عن موسى ، ويزلزل عقيدتهم ، ولكن الله كشف ما أضمر ، وأظهر ما أخفى ، وخرج موسى من هذه التجربة أصفى نفسا ، وأعلى مقاما ، ولما يئس موسى من صلاحه ، دعا الله أن ينزل به عذابه ويخلص الناس من فتنه وإغوائه .

فاستجاب الله لدعائه ، وخسف به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين .

وابتلعته الأرض ، وساخت فيها أمواله وقصوره ، فكان عبرة لقوم موسى والمستضعفين من أتباعه . ولما رأى القوم ما حل بقارون ، رجعوا إلى أنفسهم نادمين على ما كان منهم ، وحمدوا الله على أنهم لم يكونوا مثله ، وقالوا :

(لَوْلَا أَنَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكُنَّ لَنَا يُقْلِحُ الْكَافِرُونَ . تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

(١) تذكر كتب التاريخ والتفسير أنه أغرى امرأة لتنسب إلى موسى الفاحشة وفعلت ، ولكنها اعترفت أخيرا أمام حفل جامع بأن قارون هو الذى دفعها إلى ذلك وأنه برئ مما رمته به .

أصحاب الأُخدود

صنعاء^(١) قد لفحتها الشمس بسهامها المحماة ، ومستها الصحراء بأوارها المتسعر ، ولهذا أقفرت شوارعها . وسكنت حركتها ، وخلت من الناس ، إلا رجلاً ظهر فجأة من الشمال ، وكأنه قادم من الصحراء ، وقد جاوز الأرباض والحدود ، واتخذ سبيله نحو قصر الملك ذى نواس .

كان كل مافيه يبعث على الشك والارتياب : وجه يعلوه الوجوم ، وعينان تختلج فيهما الحيرة ، وخطوات مضطربة غير مطمئنة ، وكأن بين جنبيه سرّاً يريد أن يُفضي به ، أو أمراً جليلاً قدم من أجله ، إلا أن حارس القصر لم يدعه يستمر في اضطرابه ، بل سأله ما قدومه في هذه الساعة التي ألزم فيها الحر الناس الدور ، وسكن فيها الإنسان والحيوان والطير والنبات ؟ قال الرجل : أتيت في أمر جليل الخطر ، عظيم المقدار ، أكشف به ذا نواس . قال الحارس : إن الملك في شغل عن لقائك ، ولقاء غيرك من الطراق والوافدين وإن يكن انتهى من قتل ذى الشناتر ، وتوطيد الملك في صنعاء وإرجاع اليهودية في اليمن إلى ما كانت عليه في عهد تبع ، إلا أنه يعد العدة ويهيئ الرحلة لغزوة بعيدة في الأرض تنتظم الشرق والغرب ، والسهل والجبل ، وقد أقسم يمينا غليظة ألا يقر له جنب على وسادة ، ولا يغمض له جفن على نوم هادئ ، حتى يرى اليهودية ديناً شاملاً ، وحكم التوراة في الأرض نافذاً وهو حينما

(١) صنعاء : مدينة باليمن .

تضيف^(١) الشمس للغروب ، وحينما تخف وطأة الحر - يخرج إلى هذه الحديقة من القصر ، ويجمع الأذواء والأقيال^(٢) ، والأشراف والقواد ، الذين تألفهم لطاعته ، وأرادهم على دينه ، فيشاورهم في الأمر .
ويهيئون جميعاً سبل الغزو والجهاد .

قال الرجل : إننى لم أبعد شيئاً عما فيه الملك ، وإنى ما قدمت عليه إلا فى أمر له صلة بهذا الدين الذى يسلم سيفه فى سبيله ، ويريد أن يحمل الناس على اتباعه ، ولو أنك حدثته بما قدمت له فإننى لا أرتاب فى أنه سيدعونى إليه ، ولا شك فى أنه سيهتم لهذا الشأن ، وسيكون منه موضع تفكير وتدبير .

ثم أوى إلى زاوية من زوايا القصر ، ريثما تخف وطأة الحر ، وينزل الملك ليأخذ مع من يجئ إليه فيما يهمهم من شؤون . وخرج ذو نواس من مخدعه ، وأخذ سبيله إلى مكانه من حديقته ، واجتمعت حوله حاشيته ، وقبل أن يخوضوا فى الحديث ، جاء الحاجب يقول : إن رجلاً قدم اليوم من نجران^(٣) للقاء الملك ، وإنه - فيما يزعم - يريد أن يفضى إلى الملك بأمر دين جديد ، يخشى منه على اليهودية .

(١) تضيف : تميل .

(٢) الأذواء والأقيال : ملوك اليمن .

(٣) نجران : إقليم باليمن من ناحية مكة .

قال ذو نواس : دين جديد . على بالرجل من فورك ، وجاء الرجل فقال : أيها الملك المتوج ، نعم مساؤك ، ودام لك سلطانك ، وليهنك الظفر بأعدائك ، وليهني لك الله هداية وتوفيقاً فيما تريد ، جئتك يا مولاي لا طالباً رفداً ، ولا مستعدياً بك على مظلوم ، ولكن حادثاً بنجران قد وقع ، وإنه إن لم يتدارك أمره فإنه يوشك أن يمتد إلى غيرها من البلدان ، وربما امتد إلى اليمن ، وربما جاوزها إلى غيرها من أصقاع الأرض .

فقال ذونواس : قد روعتني بأخبارك ، وشغلت بالي بجديتك ، فهات لما أجملت تفصيلاً ، ولما لوححت به بياناً وتبييناً .

قال الرجل : إنه منذ أيام قد دخل على نجران دين جديد يدعونه النصرانية ، ويبشرون له باسم عيسى المسيح . فأما الوثنيون من أهلها ، فقد ارتاحت قلوبهم إليه ، وتغلغل في نفوسهم ، ودخلوا فيه أفواجاً ، وأما اليهود ، ففريق منهم صباً عن دينه ، ودخل فيما دخل فيه الوثنيون ، وفريق ظل على اليهودية ، ولكنه ممتحن بالأذى . مبتلى بالكيد ، وإن لم يتدارك الملك اليهودية بنجران - فإنه يوشك أن يمحي ظلها ، ويعفو رسمها ، وينتهي تاريخها . فاستوى ذونواس في جلوسه ، وكأنه قد غص بريقه ، وقال : كيف دخل هذا الدين نجران ؟ وكيف مكن له في هذه الأرض ؟ وكيف استطاع أن يصل إلى القلوب على قرب عهده وحادثة ميلاده ؟ . زدني إيضاحاً .

قال الرجل : قد وفد على نجران - فيمن يفد عليها من الأرقاء - رجلان : أحدهما رومي واسمه فيميون ، والآخر عربي واسمه صالح ،

أما فيميون فاشترأه رجل من الوثنيين عباد النخلة ، فوجده كريماً مسموحاً ،
يجول في غرته ماءً التقوى ، ويفوح من خلأته عرف الصلاح ، فكان يعمل
له عامة يومه ، لا يعرف الكلال ولا الشكوى ، فإذا كان المساء أوى إلى
حجرة أفردها له ليصلى فيها .

واطلع عليه سيده يوماً فوجده يصلى ، والحجرة مضيئة من غير سراج ،
فعجب منه وسأله عن دينه . وهل يؤدي عبادة أخرى لغير هذه النخلة التي
يعبدونها ، ويستلهمون أسرارها ؟ قال : إنما أعبد الله مالك الملك ومدبر
الخلق ، ومصدر الوجود ، وذلك الذى أرشد المسيح إلى وجوده ، ودل على
قدرته . وأما هذه النخلة فإنها لا تملك ضراً ولا نفعاً ، بل لا تستطيع جلب
خير لها ، ولا دفع شرٍّ يراد بها ، ولو شئت لدعوت الله أن يرسل عليها ريحاً
تجففها ، أو ناراً تحرقها ، فربما فعل ، وربما استجاب .

قال له سيده : أو تستطيع ؟ قال فيميون : أتؤمن بالنصرانية لو فعلت ؟
قال : نعم . فصلى فيميون فيما يزعم أصحابه ومريدوه - ودعا الله فأرسل
على نخلة سيده ريحاً جففتها وألقتها . فعند ذلك آمن الرجل ، وشاعت هذه
المقالة في نجران ، ودخل الناس في النصرانية أفواجاً ... ولست ترى الآن في
هذه الأرض إلا من دخل ، أو هو سيدخل في هذا الدين .

قال ذو نواس : وهل بقى عندك فضل من حديث ؟ قال الرجل :
لو شئت لحدثتك ما يتناقله أهل نجران عن فيميون ، لتعلم مبلغ حبهم لدينه ،
وتعلقهم بذاته .

قال ذو نواس : هات كل ما عندك ، فإنك قد شغلت بالى بحديث هذا
الدين وأمر هذا الرجل .

قال : زعم رفيقه صالح - من تاريخه معه - أنه بينما كان يعمل في قرية من قرى الشام ، إذ بصر بفيميون سائرا في إحدى طرقاتها ، فشهد عليه علامم التقوى ، وتحدثت معارفه عن عقل راجح ، فأحبه وعلق به ، وتبعه أنى ذهب من حيث لم يشعره بذلك ، حتى خرج في يوم من أيام الآحاد إلى الصحراء يصلى ، وبينما هو فى صلاته أقبل نحوه تنين فاغر فاه فذعر صالح وارتاع وصاح : يافيميون ، احذر التنين فإنه مقبل نحوك ، ولكن فيميون أقبل على صلاته ، وما اقترب منه التنين حتى مات . عند ذلك ظهر صالح ، واستأذنه أن يرافقه ويأنس به ، فأذن له ، وما زالا ينتقلان من قرية إلى قرية ، وفيميون يظهر من كراماته وعجائبه ما زاد صالحا فيه حبًا ، وبه تعلقا ، حتى كانا بإحدى البوادي ، إذ طلع عليهما بعض العرب ، وأخذوهما أسيرين ، ثم باعوهما فى نجران ، وكان من أمر فيميون ما سمعت . وما انتهى الرجل من حديثه ، حتى ثارت حفيظة (١) ذى نواس ، واضطربت نار الغضب فى صدره ، أن يظهر فى نجران دين غير اليهودية ، أو يعلو فيها حكم لغير التوراة ، وحلف لا يغمد سيفًا ، ولا تسكن منه ثائرة ، حتى ينكل بأهل نجران ، أو يرجعوا إلى اليهودية مذعنين .

وخرج ذو نواس من صنعاء بجيش يملأ أقطار الأرض قاصداً نجران ، فلما وصل إليها ضرب من حولها نطاقاً فارتاع أهلها وذهلوا . ولكنه قبل أن

(١) الحفيظة : الغضب .

يبدأهم بعذاب أو ينالهم بمكروه جمع سادتهم وأصحاب الزعامة فيهم ، وقال :
إني قد رأيت - كرمًا وتفضلاً - قبل أن يستحر فيكم القتل ، ويعمل فيكم
السيف ، وينالكم الأذى - أن أخيركم بين اليهودية ديني اليوم ودين تبع من
قبل . وبين ما اعتنقتموه من دين جديد . ولست بصانع لكم العذاب حتى
تكفروا ، ولا يعمل فيكم السيف حتى تتدبروا .

فقالوا : إنما النصرانية دين أشربته نفوسنا . ودخل فينا بين شغاف
قلوبنا ، ومالنا عنه محيص ولا معدل ، سواء علينا أوسعت لنا في الأجل ،
أم عجلت لنا بالموت . فلما رأى إصراراً وعناداً ، وتمسكاً بالنصرانية
واعتصاماً ، أمر بشق الأخدود في الأرض . وأحضر وقوداً وحطباً ، ثم أشعلوا
النار ، وبعثوا الدخان ، وأخذوا النصارى يلقونهم في لهبها . لم يعفوا شيخاً
هرماً ، ولا امرأة عجوزاً ، ولا طفلاً رضيعاً ، حتى خلت نجران من
النصارى . ولم يبق بها غير اليهود .

(١) الأخدود : الشق الكبير في الأرض .

زينب بنت جحش

هذا زيد بن حارثة ، وقد وهبته يا محمد عبداً لك مطيعاً ، ووفياً أميناً ، فشكر النبي الكريم زوجه خديجة ، وقبل منها هديتها مسروراً ، وعاش زيد رضيعاً بصحبة رسول الله موفقاً في خدمته . وبعد حين حضر إلى مكة وفد من بنى حارثة يطلبون شراء ابنهم زيد وفديته لتحريره من رقه ، ففاض سخاء النبي العربي ، وقال لهم : إن اختاركم فخذوه من غير ثمن . ولما جرى بزید أنعم الله عليه ، فاختر الرق مع النبي على الحرية بين قومه ، وصار بعد ذلك يُدعى زيداً بن محمد ، تعظيماً له وتكريماً . بلغ الفتى أشده واستوى ، فرغب سيده أن يزوجه كريمة من كرائم العرب ، لتكون له في الحياة سنداً وظهيراً . وبالغ النبي في تكريم زيد ، فيتقدم إلى زينب بنت جحش ابنة عمته أُميمة بنت عبد المطلب ، فيخطبها لمولاه ، مكافأة له ، ودليلاً على رضاه .

ولكن عبد الله بن جحش يأبى ويأنف أن يزوج زيداً ، لأنه من غير الصرحاء ، وتشاركه أخته زينب إباءه وأنفته ، ضناً بنسبها العربي الكريم .

ولكن (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) ، فلا يصح لرجل ولا امرأة اختيار أمر من الأمور يخالف ما قضاه الله ، ثم بلغه الرسول . إذن فليرض عبد الله ولتخضع زينب لقضاء الله ورسوله ، وليسعد بزواج يخلد الله شأنه في كتابه الكريم . عاش زيد وزينب معيشة زوجين هانئين بما وفقهما الله الكريم ، وأرخصي لهما من

جبال السعادة ، ورفّه لهما في العيش ، ومد من أسباب الرخاء . وبعد حين أراد الله أن تقع الواقعة ، سنّاً للشرائع ، وإيضاحاً لأُمور الدين ، وتبياناً للعالمين ، وتصحيحاً لأوهام الناس .

وهل يقدم على مخالفة مألوف العرب ، وتحطيم أغلالهم ، ونَبذ خرافاتهم إلا رجل مَلِكُ الإيمان نفسه ، وملاً الحق قلبه ، وخالطت الجرأة منه العصب والدم ، والمسامح والأطراف ، وتغلغلت الشجاعة الخلقية فوصلت منه إلى اللب والشغاف ؟ وهل يسمو بشر إلى تلك المنزلة الكريمة سموّ النبي الكريم ؟ وبعد حين من الدهر ، رقت الرابطة بين زيد وزوجه وفترت تلك العلاقة التي تجمع بينهما زوجين مؤتلفين ، فيتقدم زيد إلى رسول الله شاكياً ، يستشير في طلاق زينب فيتجلى عطف الرسول ونبله قائلاً : يا زيد ، هذه زينب يسر الله لك زواجها بعد عسر ، وسهله بعد امتناع ، وعسى أن تصلح حالها لك بعد ، فأمسكها عليك واتق الله لئلا تصمها بأنها لا تحسن عشرة الأزواج ، وثُب إلى رشدك ، فلا تنقض أمراً أبرمته ، ولم يتم إلا بعد أن نزل فيه قرآن من المدبر الحكيم . يقول الرسول العظيم قوله هذا ، ونفسه تفيض حناناً وعظفاً وإشفاقاً ، لما كان قد سبق في علم الله : من أن زيدا يطلق زينب ثم تتزوج النبي بعده .

واستمر الرسول متضرعاً بينه وبين نفسه إلى الله ، مبتهلاً إلى رحمته ، عسى أن يمحو الله ما أثبت ، فيصلح الحال بين المرء وزوجه ، وينقض أمراً

سبق أن أبرمه استكمالاً لأسباب التشريع فاضت نفس الرسول بالنصح لزيد ، وبالضراعة إلى الله ، أملاً أن ينقض الله ما أبرم ، وأن يمحو ما أثبت ، ولكن أبى الله إلا أن يتم قضاءه ، فأوحى الله إلى رسوله : (وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) .

وكان النبي يخفي قضاء الله ، عسى أن تنفع فيه شفاعته ، ويخشى الناس أن يضلوا بسبب اعتراضهم على أمر لم يألفوه ، وتشريع ماتعودوه ، ولكن من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فماله من هاد ، والله أحق بالخشية والرعاية من سواه ، لأن مألوف الناس وعاداتهم ليست أصلاً لتشريع ، ولا أساساً لقانون ، والنبي أول من يهدم العقائد الفاسدة ، ويقوض الخرافات السائدة ، ويقيم بعدها صرحاً من الحق ومناراً للشريعة السمحة .

انقضت عدة زينب بعد طلاقها من زيد ، ثم هياً الله زواجها من النبي الكريم ، وكانت زينب فخورة ، تتيه دلالة ، وتمتلي عجباً ، فتقول لسائر نساء النبي : إن الله تولى تزويجي ، أما أنتن فتولى تزويجكن أولياؤكن .

ولقد كانت هذه الحادثة أمراً خرق مألوف العرب ، وغير وجهة أحوالهم ومعتقداتهم ، فقد ادعوا للدعى ما للابن من الحقوق ، من إرث ونسب ، وقد تسلط ذلك الاعتقاد على نفوسهم ، ورسخ في أذهانهم ، وعسر عليهم أن يخلعوا عنهم ربقتهم ، أو أن يزيلوا عن أفكارهم وطائئته ، فتقدم النبي الكريم بآية واضحة ، وحجة قاطعة ، فقام بما قام به مع قيام هذه العادة ، وتمكنها

من الناس ، ومن أولى بذلك من رسول الشريعة الحنيفية ؟ وهو الذى نادى
بحرمة ربا الجاهلية ، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس ، حتى يرى الناس
صنيعه بأقرب الناس إليه ، فتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم ، ولقد
كانت قصة زيد وزينب مثارا لأقوال وشبهات جرفت كثيرا من الناس ، ممن
زاغ بهم الباطل ، وران على قلوبهم حلك الضلال ، فنسبوا إلى النبى أنه اشتبه
زينب بعد زواجها من زيد ، وما كان محمد يمكن لميوله ، ويمهد لهواه بما
يخالف أمر ربه ، تسامى قَدْر الرسول وتعالى علواً كبيراً ، أما كانت زينب
أمامه بكرأ تحت سمعه وبصره وهو فى سن الأربعين : زمن اكتمال الفتوة
والشباب ؟ أبعد ثلاث عشرة سنة ، وبعد أن زالت عنها نضرة البكارة ،
وهدأت فيه ثورة الشباب ، ينظر إليها نظر التشهى ؟ ألم يكن له من شواغل
الدين والفتح شاغل عن أمور النساء ، وهو ابن السادة الكرام الموصوفين :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم

دون النساء ولو باتت بأطهار

وهو النبى الكريم ، نهاه ربه أن يمد عينيه إلى ما متع الله به الناس من
زهرة الحياة الدنيا .

بل نرجع إلى الفطرة الأولى للرجل العربى ، الذى لم تعصمه النبوة ،
ولم تزينه راحة العقل ، وسمو المعرفة ، وصدق العزيمة ، فنراه يغض الطرف ،
فهذا عنترة الجاهلى يقول :

وأغض طرفي إن بدت لى جارقى

حتى يوارى جارقى مأواها

بل هو الذى يقول الله فيه : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

هذا هو الإيمان

عن النَّبِيِّ - ﷺ - أنه قال : « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقَرَّ في القلب وصدَّقه العمل ، وإنَّ قوماً غَرَّتْهُمُ الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحنُ نُحسنُ الظَّنَّ بالله وكذبوا لو أحسنوا الظَّنَّ لأحسنوا العمل » .

ومعنى ذلك أن الإيمان لا يكون بمجرد تخيل الأمانى . ثم تمنى الحصول عليها بغير الأسباب الموصلة إليها ، ولكن الإيمان الخلق بأن يطلق عليه اسم الإيمان ، هو ما استقرَّ في قلب المؤمن أنه حق ، فاطمأن إليه ، واستراح له وحرص عليه ، ثم كان عمله موافقاً له ، مصداقاً لوجوده ، أو لدعوى اعتقاده ، وقد غفل عن ذلك قوم ، فرأوا في الإيمان مجرد اعتقاد سليم ، حُسن ظنٍّ بالله ، وبنوا على ذلك أوهاماً باطلةً . وأحلاماً بعيدة ، فتمنَّوا على الله الأمانى ، دون أن يدخلوا البيوت من أبوابها ، ويلتمسوا النتائج من أسبابها ، وظلُّوا على حالهم مخدوعين بالأحلام والأوهام ، حتى خرجوا من الدنيا دون حسنة تحسب لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، ونطمع في فضله وإحسانه ، وقد كذبوا فيما زعموا ، لأنهم لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل بما يعتقدون أنه حق وصدق ، فذلك هو الذى يقرَّبهم من ربِّهم ، ويدنيههم من أمانهم ، ويحقق لهم الحياة الطيبة فى الدنيا ، والنعيم المقيم فى الآخرة ، كما يفهم من قوله تعالى : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وهذا المعنى الذى يفهم من هذا الحديث يلتقي مع ما يفهم من قول الله جلَّ شأنه : « لَيْسَ بِأَمَانِيَكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » .

فالإيمان عقيدة قوِّية ، وعَمَلٌ صالح ، وَبَيِّنَ العقيدة والعمل إرادة ماضية وعَزَمٌ مصمم ، وثقة مطلقة فى أَنَّ الله كما يقول : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » .

والعقيدة ليس معناها مقصوراً على التصديق بوجود الله وبكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، وإنما هو واسع يتناول التصديق العميق بكل ما صدر عنه ، أو أَمَر به ، كالإيمان بأنَّ الأجل لا يتقدم بحرب ، ولا يتأخر بسلم ، وبأنَّ كلَّ ما يصيب الإنسان من خيرٍ وشرٍ إنما هو بقدر الله ، كما يفهم من قوله تعالى :

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا . إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » وبأنَّ الله لا يبخس الإنسان عمله فى الحياة ولو كان كافراً ، كما يفهم من قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ » وبأنَّ أحقَّ الناس بالحياة الطيبة

هم المؤمنون ، كما يفهم من قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ » .

فإذا تخلّف المسلمون عن غيرهم في وسائل الحياة الحرة الكريمة ، فمردّد ذلك إلى انحرافهم عن فهم الإسلام فهماً سليماً ، وعن ضعف إيمانهم بقيمه ومثله ، وعن بُعدهم عن مصادر القوة فيه ، وقعودهم عن الجهاد في سبيله ، وهو من الإيمان ، كما يفهم من قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

وإذا صار أمرهم إلى ما نرى ويرَوْن ، من ضعف بعد قوة ، وجَهل بعد علم ، وذِل بعد عزّة ، وحياة شقية بعد حياة طيبة راضية ، فلأنهم لم يستجيبوا إلى دعوة الله ورسوله ، وهى حياة الحياة ، وروح الكرامة والعزة ، كما يفهم من قوله تعالى : « يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » ، وقوله : « أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ ، فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » .

ولا سبيل إلى إصلاح حالهم ومآلهم إلا بالإيمان على الوجه الذى بيّنه الله فى كتابه ورسوله فى سنته ، وهو أن يكون طاقةً دافعةً إلى العمل .

وقوة محرّكة ، وحافزاً طبيعياً للتفوق ، فإن الإسلام ليس تواكلاً وتخاذلاً
وسلبيةً ، إنما هو عقيدة تعمر القلب ، وعمل يعمر الحياة ، وإيمان راسخ بأن
الله كما يقول :

« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

ما أروعك في رحمتك يا عمر

قال «أسلم»^(١) : خرجنا مع «عمر» - رضى الله عنه - إلى حرّة ، حتى إذا كنا في صرار^(٢) إذا نارٌ تؤرث^(٣) ، فقال : يا «أسلم» إني أرى ها هنا ركبانا قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا فخرجنا نهول حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها صبيان ، وقدرٌ منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون^(٤) . فقال «عمر» : السلام عليكم يا أهل الضوء - وكره أن يقول يا أصحاب النار ، فأجابته امرأة : وعليكم السلام . فقال : أأدنو^(٥) فقالت : ادن بخير أو دَعْ^(٦) . فدنا منها ، ثم قال : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد . قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ ؟ قالت : الجوع . قال : وأى شئ في هذه القدر ؟ قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا . والله بيننا وبين «عمر» فقال : يرحمك الله ، وما يدري «عمر» بكم ؟ فقالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟ فأقبل على فقال : انطلق بنا فخرجنا نهول حتى أتينا

(١) أسلم : غلام لعمر .

(٢) صرار : مكان على مقربة من المدينة .

(٣) تؤرث : توقد .

(٤) يتضاغون : يتصايحون .

(٥) أأدنو : أأقرب .

(٦) دَع : اترك .

دار الدقيق ، فأخرج عدلاً^(١) من دقيق ، وكبة^(٢) من شحم ، وقال : احملة على ، قلت : أنا أحملة عنك ، قال : أنت تحمل وزرى يوم القيامة ؟ لا أم لك ، فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها نهروا ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً . فجعل يقول لها : ذرى على أحر لك^(٣) .

وجعل ينفخ تحت القدر ، وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلالها ، حتى طبخ لهم . ثم أنزلها ، وأفرغ الحريرة في صحفة وهو يقول لها : أطعمهم ، وأنا أسطح لهم - أى أبرده - ولم يزل حتى شبعوا ، وهى تقول له : جزاك الله خيراً ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين ، وأمثال هذه القصة في سيرة « عمر » كثير . ولا يقال هى ومثيلاًتها من الشعور بالتبعة^(٤) . وليست من الرحمة . لأن العهد بالشعور بالتبعة أن يأتى من الرحمة ، وليس العهد بالرحمة أن تأتى من الشعور - بالتبعة .

كذلك لا يقال : إنه قد كان يطيع أمراً سماوياً تحركت له نفسه . أو لم تتحرك ، فإن النفس التى تتحرك للأمر السماوى هى النفس التى فيها الخير ، ولها رغبة فيه ، وقلماً تشفق^(٥) من عقاب السماء ، إلا أن تشعر بألم الظلم ، ومبلغ استحقاقه للعقاب .

(١) العدل : الجوالق .

(٢) كبة من شحم : مقدار منه .

(٣) أحر لك : أى اتخذى لك حريرة : وهى الحساء من الدقيق والدسم .

(٤) التبعة : المسئولية .

(٥) تشفق : أى تخاف .

على أن « عمر » كان يرحم في أمور يحول فيها النفور الدينى دون الرحمة عند كثيرين .

فمن ذلك أنه رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب ، فلما علم أنه يهودى قال له : ما ألك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن . فأخذ « عمر » بيده ، وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : انظر هذا وضرباه^(١) ، فو الله ما أنصفناه أكلنا شيبته^(٢) ثم نخذه عند الهرم . « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب . ووضع^(٣) عنه الجزية وعن ضربائه ، فهنا علمته الرحمة كيف يطيع الدين ، ولن يطيع الدين هكذا إلا رحيم .

وقد فرض « عمر » لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال ، كما فرض لكل مولود من زوجين ، وهى رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته ، فى نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون . بل كان يرحم كل مخلوق حتى البهيمة الذى لا يُبين بشكاية ، فروى « المسيب بن دارم » أنه رآه يضرب رجلاً ويلاحقه بالزجر ، لأنه يُحمَل جَمَلُهُ ما لا يطيق .

(١) ضرباؤه : نظراؤه وأمثاله .

(٢) شيبته : شبابه .

(٣) وضع عنه الجزية : أى رفعها .

وكان يدخل يده في عقر^(١) البعير الأدبر^(٢) ليداويه وهو يقول : إني
لخائف أن أسأل عما بك . ومن كلامه في هذا المعنى : « لو مات جدى
بطف^(٣) الفرات ، لخشيت أن يحاسب به الله عمر » وإنه لشعور بالتبعة
عظيم .

لكنه - كما أسلفنا - لن ينبت في قلب كل أمير عليه تبعة إلا أن يكون
به منبت للرحمة عظيم .

(١) عقر : أى جرح .

(٢) الأدبر : البعير المصاب بالدبرة ، وهو مرض يصيب الدواب كالقرحة .

(٣) المراد بطف الفرات : شاطئ الفرات وهو نهر بالعراق .

المناقشة

- كان عمر كثيراً ما يخرج إلى ضواحي المدينة ... فماذا تعلل ذلك ؟
- وماذا ترى في هذه السياسة من مزايا ؟
- ماذا رأى عمر ؟ وماذا سمع حين دنا من موقد النار ؟
- في قوله عمر : السلام عليكم يا أهل الضوء ، تلتطف وحسن أدب ، فما مظاهر ذلك ؟
- وعلام يدل من أخلاق عمر ؟
- بماذا تفسر استئذان عمر ؟ وإلام يدعو ؟
- دار حوار بين عمر والمرأة صاحبة الضوء ... أعد كتابة هذا الحوار بأسلوبك .
- للمرأة رأى فيمن يتولى أمور المسلمين فماذا كان هذا الرأى ؟ وهل توافقها عليه ؟ ولماذا ؟
- « الله بيننا وبين عمر » من قائل هذه العبارة ؟ وما المقصود بها ؟
- كيف تصرف عمر بإزاء هذا الموقف ؟ وما رأيك في تصرفه ؟
- لماذا لم يقبل عمر أن يحمل غلامه عنه الدقيق والسمن ؟ وبماذا ردّ عليه حين طلب منه ذلك ؟
- بماذا تفسر إسراع عمر في عودته إلى المرأة والصبية يحمل لهم رزقاً من بيت المال ؟
- شارك عمر في إعداد الطعام فماذا كان دوره ؟ وما الدافع له على ذلك ؟
- كان عمر يرحم في أمور يحول فيها النفور الديني دون الرحمة . فما أمثلة ذلك في ضوء دراستك ؟ وبماذا تفسر رحمته في مثل هذه الأمور ؟

- وجه عمر أمراً إلى خازن بيت المال . فما مضمون هذا الأمر ؟ وما الآثار التي ترتبت عليه ؟
- قد فرض عمر لكل مولود لقيط من بيت المال . فما دوافعه على ذلك ؟
- كان عمر يرحم كل مخلوق حتى البهيم الذي لا يبين بشكاية فما مظاهر هذه الرحمة ؟
- وما بواعثها في نفس الخليفة الثاني ؟
- إذا أردت أن تحت حكام العالم أن يتأسوا بعمر في هذه السياسة فماذا تقول ؟
- ضرب عمر المثل في التواضع والخشية من الله . في أى المواقف نأخذ ذلك من الموضوع ؟
- رحمة عمر بين الإيمان وبين الشعور بالتبعية . اشرح هذه العبارة .

وصية المهلب

لَمَّا حَضَرَتِ الْمَهْلَبَ بْنَ أَبِي صَفْرَةَ الْوَفَاةَ ، قَالَ لَوْلَدِهِ وَأَهْلِهِ : أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَصَلَةِ الرَّحِمِ ، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ تُعْقِبُ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ صَلَةُ الرَّحِمِ تُنْسِي^(١) الْأَجَلَ ، وَتُثْرَى الْمَالُ وَتَجْمَعُ الشُّمْلُ ، وَتَكْثُرُ الْعِدَدُ ، وَتَعْمُرُ الدِّيَارَ ، وَتُعِزَّ الْجَانِبَ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - فَإِنَّ مَعْصِيَةَ اللَّهِ تُعْقِبُ النَّارَ ، وَإِنْ قَطِيعَةُ الرَّحِمِ تَوْرَثُ الذِّلَّةَ وَالْقِلَّةَ ، وَتُقِلُّ الْعِدَدَ ، وَتَفْرُقُ الْجَمْعَ ، وَتَذَرُ الدِّيَارَ بِلَاقِعَ ، وَتُذْهَبُ الْمَالُ ، وَتُطْمَعُ الْعَدُوُّ ، وَتُبْدَى الْعَوْرَةُ .

يَا بَنِيَّ ، قَوْمَكُمْ ، إِنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ فَضْلٌ عَلَيْهِمْ ، بَلْ هُمْ أَفْضَلُ مِنْكُمْ ، إِذْ فَضَّلَكُمْ وَسَوَّدُوكُمْ وَوَطَّئُوا أَعْقَابَكُمْ ، وَبَلَّغُوا حَاجَتَكُمْ فِيمَا أَرَدْتُمْ ، وَأَعَانُوكُمْ ، فَإِنْ طَلَبُوا فَأَطِئُوهُمْ^(٢) ، وَإِنْ سَأَلُوا فَأَعْطُوهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَسْأَلُوا فَابْتَدِئُوهُمْ ، وَإِنْ شَتَمُوا فَاحْتَمِلُوهُمْ ، وَإِنْ غَشَوْا أَبْوَابَكُمْ فَلتُفْتَحْ لَهُمْ وَلَا تُغْلَقْ دُونَهُمْ .

يَا بَنِيَّ ، إِنِّي أَحِبُّ لِلرَّجُلِ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لِفِعْلِهِ الْفَضْلُ عَلَى لِسَانِهِ ، وَأَكْرَهُ لِلرَّجُلِ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لِّلْسَانُهُ الْفَضْلُ عَلَى فِعْلِهِ .

يَا بَنِيَّ ، اتَّقُوا الْجَوَابَ وَزَلَّةَ اللِّسَانِ ؛ فَإِنِّي وَجَدْتُ الرَّجُلَ تَعَثَّرُ قَدَمُهُ فَيَقُومُ مِنْ زَلَّتِهِ ، وَيَنْتَعِشُ مِنْهَا سَوِيًّا ، وَيَزِلُّ لِسَانُهُ فَيُؤْبِقُهُ^(٣) ، وَيَكُونُ فِيهِ هَلَكَتُهُ .

(١) أَنْسَاهُ وَنَسَاهُ : أَخْرَهُ .

(٢) أَطْلَبُهُ : حَقَّقَ لَهُ طَلْبَهُ .

(٣) أَوْبِقَهُ : أَهْلَكَهُ .

يَابَنِّي ، إِذَا غَدَا عَلَيْكُمْ رَجُلٌ وَرَاحَ ، فَكُفَى بِذَلِكَ مَسْأَلَةً وَتَذَكُّرَةً
بِنَفْسِهِ .

يَابَنِّي ، ثِيَابُكُمْ عَلَى غَيْرِكُمْ أَجْمَلُ مِنْهَا عَلَيْكُمْ ، وَدَوَابُّكُمْ تَحْتَ غَيْرِكُمْ أَجْمَلُ
مِنْهَا تَحْتَكُمْ !

يَابَنِّي ، أَحْبُّوا الْمَعْرُوفَ ، وَأَنْكُرُوا الْمُنْكَرَ وَاجْتَنِبُوهُ ، وَآثِرُوا الْجُودَ عَلَى
الْبَخْلِ - وَاصْطَنَعُوا الْعَرَبَ وَأَكْرَمُوهُمْ فَإِنَّ الْعَرَبِيَّ تَعَدُّهُ الْعَدُوَّةُ فَيَمُوتُ دُونَكَ
وَيَشْكُرُ لَكَ ، فَكَيْفَ بِالصَّنِيعَةِ إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ فِي احْتِمَالِهِ لَهَا وَشُكْرِهِ ، وَالْوَفَاءِ
مِنْهُ لَصَاحِبِهَا .

يَابَنِّي ، سَوِّدُوا أَكْبَرَكُمْ ، وَاعْرِفُوا فَضْلَ ذَوِي أَسْنَانِكُمْ ، وَارْحَمُوا صَغِيرَكُمْ
وَقَرَّبُوهُ وَالْطُفُوهُ (١) وَاجْبُرُوا يَتِيمَكُمْ ، وَعُودُوا عَلَيْهِ بِمَا قَدَرْتُمْ ، ثُمَّ خَذُوا عَلَى
أَيْدِي سَفَهَائِكُمْ ، وَتَعَاهَدُوا فَقَرَاءَكُمْ وَجِيرَانَكُمْ بِمَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ ، وَاصْبِرُوا
لِلْحَقُوقِ وَنَوَائِبِ الدَّهْورِ ، وَاحْذَرُوا عَارَ غَدٍ ، وَعَلَيْكُمْ فِي الْحَرْبِ بِالْأَنَاةِ
وَالْتَّوَدُّةِ فِي اللَّقَاءِ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْتَّمَّاسِ الْخَدِيعَةِ فِي الْحَرْبِ لَعْدُوكُمْ ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَزُّقَ
وَالْعَجَلَةَ ، فَإِنَّ الْمَكِيدَةَ وَالْأَنَاةَ وَالْخَدِيعَةَ أَنْفَعُ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالشَّدَةِ ، وَاعْلَمُوا
أَنَّ الْقِتَالَ وَالْمَكِيدَةَ مَعَ الصَّبْرِ ، فَإِذَا كَانَ اللَّقَاءُ ، نَزَلَ الْقَضَاءُ الْمَبْرُومُ ، فَإِنَّ ظَفِيرَ
الْمَرْءِ وَقَدْ أَخَذَ بِالْحَزْمِ قَالَ الْقَاتِلُ : قَدْ أَتَى الْأَمْرُ مِنْ وَجْهِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَظْفَرْ
قَالَ : مَا ضَيَّعَ وَلَا فَرَّطَ وَلَكِنْ الْقَضَاءُ غَالِبٌ !

(١) الإِلْطَافُ : الإِهْدَاءُ وَالْإِنْخَافُ .

يَابَنِيَّ ، الزموا الحزم على أَى الحالين وقع الأمر ، والزموا الطاعة والجماعة ، وتواصلوا وتزاوروا وتعاطفوا ، فإن ذلك يُثَبِّتُ المودة ، وتحبُّبوا ، وخذوا بما أُوصِيكم به بالجد والقوة ، والقيام به ، والتعهد له ، وترك الغفلة عنه ، تظفروا بديناكم ماكنتم فيها ، وآخرتكم إذا صرتم إليها ولا قوة إلا بالله !

يَابَنِيَّ ، وليكن أَوَّل ما تبدءون به أنفُسكم إذا أصبحتم تَعْلَمُ القرآن والسُنَن وأداء الفرائض ، وتأدَّبوا بأدب الصالحين من قبلكم من سلفكم ، ولا تُقَاعِدُوا أَهْلَ الدعارة والرِّية ولا تخالطوهم ولا يَطْمَعَنَّ في ذلك منكم ، وإياكم والخِفة في مجالسكم وكثرة الكلام ، فإنه لا يسلم منه صاحبه ، وأدوا حق الله - تعالى - عليكم فإنى قد أبلغتُ إليكم فى وصيَّتى ، واتخذت الله حجة عليكم ! .

مصر تتحدث عن نفسها

للشاعر حافظ إبراهيم

وقف الخلق ينظرون جميعاً

كيف أبني قواعد المجد وحدي ١

وبُناة الأهرام في سالف الده

ر كفوني الكلام عند التحدّي ٢

أنا تاج العلاء في مفرق الشر

قد ودّراته فرائد عقدي ٣

أى شيء في الغرب قد بهر النّ

س جمالاً ولم يكن منه عندي ٤

فتراني تبرّ ونهرى فرات

وسمائي مضقولة كالفرنْد ٥

أينما سرت جدول عند كرم

عند زهر مدر عند رند ٦

(٣) العلاء : الرفعة والشرف ، الفرائد : الجواهر .

(٦) مدر : مشرق متلالئ ، الرند : شجر طيب الرائحة .

أنا إن قدر الإلهُ مماتي
لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى ٧

ما رماني رام وراح سلیمان
من قديم عناية الله جُنْدِي ٨

كم بغت دولةً على وجارت
ثم زالت وتلك عقبى التعدى ٩

إننى حُرّة كسرت قيودى
رغم رقبى العدا وقطعت قِدَى ١٠

قل لمن أنكروا مفاخر قومی
مثل ما أنكروا مآثر وُلْدِي ١١

هل وقفتم بقمة الهرم الأك
بر يوماً فرأيتُم بعض جهدى ؟ ١٢

هل رأيتم تلك النقوش اللواتى
اعجزت طوقَ صنعة المتحدى ؟ ١٣

هل فهتم أسرار ما كان عندى
من علوم مخبوءة طى بردى ؟ ١٤

(١٠) رقبى العدا : مراقبة الأعداء ، القد : القيد من جلد .

(١٤) البردى : نبات كان يصنع منه الورق قديمًا .

ذاك فن التحيط قد غلب الدهر

ر وأبلى البلى وأعجز ندى ١٥

إن مجدى فى الأوليات عريق

من له مثل أولياتى ومجدى ١٦

أنا أم التشريع قد أخذ الروما

ن عنى الأصول فى كل حد ١٧

ورصدت النجوم منذ أضاءت

فى سماء الدجى فأحكمت رضى ١٨

وقديماً بنى الأساطيل قومى

ففرقن البحار يحملن بنى ١٩

فسلوا البحر عن بلاء سفينى

وسلوا البر عن مواقع جردى ٢٠

(١٧) المصريون كانوا مصدر القوانين الإدارية قديماً ، وعنهم أخذ اليونان ، وعن اليونانيين أخذ الرومان .

(١٩) البند : العلم الكبير .

(٢٠) الجرد : الخيل والمراد بها الجيش .

أى شعب أحق منى بعيش
وارف الظل أخضر اللون رَغْدِ ٢١

نظر الله لى فأرشد أبنا
ئى فشدوا إلى العلا أى شد ٢٢

إنما الحق قوة من قوى الد
يان أمضى من كل أبيض هندی ٢٣

قد وعدت العلا بكل أبى
من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى ٢٤

أمهروها بالروح فهى عروس
تشنأ المهر من عروض ونقد ٢٥

وردوا بى مناهل العز حثى
يخطب النجم فى المجرة ودّى ٢٦

وارفعوا دولتى على العلم والأخ
سلاق فالعلم وحده ليس يُجْدِى ٢٧

(٢٣) الأبيض الهندى : السيف .

(٢٥) تشنأ : تكره ، والعروض جمع عرض وهو كل ما سوى الذهب والفضة .

(٢٦) يخطب النجم ... البيت كناية عن الرفعة والعلو .

وتواصوا بالصبر فالصبر إن فا

رق قومًا فما له من مسدّ ٢٨

واستبينوا قصد السبيل وجدوا

فالمعالى مخطوبةً للمجد ٢٩

(٢٨) من مسد : أى لا شيء يقوم مقامه ويسد مسده . (٢٢)

(٢٩) قصد السبيل : الطريق المستقيم .

حكمة الأعياد ، ووحى العيد الهجرى

العيدُ يُسرِّي^(١) عنا بعض همومنا ، ويُنسينا متاعب أعمالنا ، ونتركُ فيه الخصوماتِ والمنازعات ، ونستقبلُ الدنيا بكثير من المرح والسرور .

وسواءً أكان العيدُ دينياً أم قومياً - فإنه يُحققُ غرضاً نبيلاً ، ويُمنّى فضيلة ساميةً : كالألفة والتراحم ، وصلة الأقارب ، والبر بالفقراء والمساكين ؛ ولهذا حثَّ الأديان على عمل الخير في أيامه ، وندبت^(٢) الناس إلى البرِّ والمعروف ؛ كى يشعروا ذور الحاجة والضعفاء أنهم ليسوا بمعزل عن عطف الإنسانية ورحمتها ، والنفوسُ الزكية^(٣) لا تدركُ للسعادة معنى إلا إذا اشركت غيرها في أنعم الله ؛ ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً فخير الأعياد ما امتزج فيه السرور بخوف الله ، والطمع في ثوابه ، والشعور بأن حياة الإنسان ليست مقصورة عليه وحده ، بل هى له ولمن يستطيع أن يعاونهم من الناس ؛ فلا يطربُّ للسعادة ولا يتمتع بالعيد - وحوله من يتجرعُ كئوسَ الشقاء ، ولا يفرحُ بالنعمة وبين إخوانه وأقاربه من يشكو البلاء .

فإن كان العيدُ ينبوعاً للسرور - فإن مساعدة الفقراء ومعاونة البائسين مما يجعلُ ذلك ينبوعَ فياضاً ، والتمتع به صفواً لا كدر فيه ، فيجمعُ الإنسان

(١) يذهب .

(٢) دعت .

(٣) الطاهرة .

بينَ غبطة^(١) العيد ، وراحةِ الضمير التي يجدها المحسنُ في إحسانِهِ ، إذ يُقرضُ الله قَرْضاً حسناً ، فيضاعفه له أضعافاً كثيرةً والله يحبُّ المحسنين .

ففكرةُ الأعيادِ من أجلِّ ما شرَّعته الأديانُ ، واهتدت إليه العقولُ الحكيمة .

وإنَّ يومَ الهجرة من الأيام الجميلة التي شُرِّفت على الأيام فأصبحت أعياداً ، واكتسبت الخلودَ ؛ فقد هجر الرسولُ - صَلَّى اللهُ عليه وسلم - في ذلك اليوم أهله وعشيرته ، في سبيل القيام برسالة ربِّه ، وترك مكةَ ليحققَ وعْدَ الله ، فينصرَ الحقَّ ، ويخذلَ الباطلَ ، ويجاهدَ لتطهير الأرض من أرجاس^(٢) الجاهليَّة الأولى ؛ ويُقيمَ على أطلالها^(٣) مدنيَّةً قويَّةً أساسها تطهيرُ القلبِ ؛ وتحريرُ العقل من قيود الأوهام والأباطيل .

في ذلك اليوم هاجرَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) ومعه الصَّدِيقُ من غير عُدَّةٍ ولا عَتَادٍ^(٤) للهجرة إلا إيمانه بالله ، فحقَّقَ اللهُ رَجَاءَهُ ، وأدركه بالنصر الذي وَعَدَهُ : والله لا يُخلفُ الميعاد .

سَنَّ الرسولُ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) بهجرته للناسِ سُنَّةً صالحةً في نصر الحق ، ولو أجمع الناس على إذلاله ، وقال لهم : الساكت عن الحق

(١) سرور .

(٢) أقدار (المفرد : رجس) .

(٣) ما بقي من آثارها .

(٤) ما يحتاج إليه الإنسان في سفر أو حرب .

شيطان أخرس ، وعلى تلك السنة الشريفة جرى سلفنا^(١) الصالح عليهم
رضوان الله ، فأبلوا في إظهار دينهم ، وتأييد آرائهم الصالحة خير بلاء ، ولم
يكن أحدهم ليخشى قوة السلطان ، ولا ظلم الظالمين ولا كيد الأعداء ،
وبعملهم هذا قامت المدنية العربية على أساس متين من التقوى ، والخلق
القوم .

كَذَّا النَّاسُ بِالْأَخْلَاقِ يَتَّقَى صِلَاحُهُمْ
وَيَذْهَبُ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ حِينَ تَذْهَبُ
فلنذكر بيوم الهجرة نبينا ؛ ولنعرض أعماله على أنظارنا ، ولنعمل بسنته
الشريفة ، فننصر الحق ، ونتحمل الأذى في سبيله ، وندافع عنه بالتي هي
أحسن ، والله يتولى^(٢) الصالحين

(١) السابقون منا .

(٢) يراعى .

جعفر بن أبي طالب

وَمَنْ كَجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؟ اقْتَعَدَ فِي حَيَاتِهِ غَارِي الْمَجْدِ وَالسِّيَادَةِ ، كَمَا نَالَ بَعْدَ جِهَادِهِ وَجَلَادِهِ فَضْلَ التَّضَحِّيَةِ وَالشَّهَادَةِ بَلْ إِنَّهُ عَلَّمَ الْمَجَاهِدِينَ الْمُنَاضِلِينَ ، الْمُضْحِّينَ بِالنَّفْسِ وَالنَّفِيسِ فِي سَبِيلِ الذُّودِ عَنْ حِيَاضِ الدِّينِ ! .

إنه جعفر أبو عبد الله ، ابن عم رسول الله - عليه صلوات الله - وأخو علي بن أبي طالب ، عليهما رضوان الله ، وهو أسنُّ من عليٍّ بعشر سنين ، وثالث الأخوين عقيل ، ولدوا ثلاثتهم من فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف .

قال ابن إسحاق : أسلم جعفر بعد أحد وثلاثين نفساً ، لكن الحسن ابن زيد يقول : إنَّ عليّاً أول ذكر أسلم ، ثم أسلم زيد ، ثم جعفر ، وكان أبو بكر الرابع أو الخامس ، وأيا ما كان ، فإن جعفرأ كان في طليعة المصدِّقين برسالة سيد المرسلين ، المتفانين في سبيل إظهار دينه على كل دين .

هاجر جعفر الهجرتين ، وهاجر من الحبشة إلى المدينة ، فوافى المسلمين وهم على خير إثر أخذها ، فأقام بالمدينة ما شاء الله أن يقيم ، ثم أمَّره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على جيش غزوة مؤتة بناحية الكرك ، فاستشهد بعد طول جهاد ، وجلاد ، وبعد أن أبلى في منازلة الأعداء أحسن البلاء ، وما كاد رسول الله يسرُّ السرور كله بقدمه ، حتى حزن الحزن كله لنبياً وفاته .

والآن ننشر أمام عينيك ، أيها القارئ ، صفحة مشرقة يتجلى لك فيها شخص جعفر بن أبى طالب ، وهو يقارع خصوم دينه بلسانه ، فى ميدان الجدل ، مقارعته لهم بسيفه فى ميدان القتال .

قال ابن مسعود :

بعثنا رسول الله - عليه صلوات الله - إلى النجاشى ثمانين رجلاً : أنا ، وجعفر ، وأبو موسى ، وعبد الله ابن عرفة ، وعثمان بن مظعون . وبعثت قريش عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد ، بهديّة ، فقدموا على النجاشى ، فلما دخلا سجدا له ، وابتدراه فقعده واحد عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فقالا : إنّ نفرأ من قومنا نزلوا بأرضك ، فرغبوا عن ملّتنا . قال : وأين هم ؟ قالوا : بأرضك . فأرسل فى طلبهم ، فقال جعفر : أنا خطيبكم . فاتبعوه ، فدخل فسلم ، فقالوا : مالك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلا لله ، ولم ذاك ؟ قال : إن الله أرسل فينا رسولا ، وأمرنا ألا نسجد إلا لله ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

فقال عمرو ، مندوب قريش : إنهم يخالفونكم فى ابن مريم وأمه . قال : ما تقولون فى ابن مريم وأُمّه ؟ قال جعفر : نقول كما قال الله : رُوح الله وكلمته ، ألّقاها إلى العذراء البتول^(١) التى لم يمسهأ بشر . قال ابن مسعود : فرفع النجاشى عوداً من الأرض وقال : يامعشر الحبشة والقسيسين والرهبان ،

(١) البتول : المنقطعة للعبادة .

ما تريدون ؟ ما يسوءنى هذا ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى بشر به عيسى فى الإنجيل . والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته ، فأكون أنا الذى أحمل نعليه ، وأوضّته . وقال : انزلوا حيث شئتم ، وأمر بهدية الآخرين فردت عليهما !!..

وهذه أم سلمة - عليها الرضوان - تلقى بعض الألوان من الإيضاح والبيان على هذه الهجره فتقول :

لَمَّا ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله وقتنوا ، قال لهم رسول الله : (إن بأرض الحبشة ملكا لا يُظْلَمُ أحد عنده ، فالحقوا ببلاده ، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً) فخرجنا إليه أرسالا ، حتى اجتمعنا فنزلنا بخير دار ، إلى خير جار أمّنتنا على ديننا .

وتزيد أم سلمة - عليها الرضوان - ألوان هذا البيان فى ختام هذه القصة ، فتقول : إنَّ النجاشى سأل وفد المسلمين ، وعلى رأسهم جعفر : هل معكم شيء مما جاء به رسولكم ؟ ، وكان قد دعا أساقفته ، فأمرهم فنشروا المصاحف حوله ، فقال جعفر : نعم ، وقرأ عليهم صدرا من سورة : « كَهَيْعِصَ ، ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ، إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . وَلَا شَكَّ أَنَّ جَعْفَرًا أَصَابَ الْحَزْنَ ، وَلَمْ يَخْطِئِ الْمَفْصِلَ ، وَلَمْ يَجَانِبِهِ التَّوْفِيقُ إِذْ قَرَأَ عَلَيْهِمْ : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِ مَكَانِهَا شَرِقًا » إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ ، الَّتِي تَكْشِفُ الْغَطَاءَ ، وَتَزِيلُ الشُّكَّ وَالْخَفَاءَ عَنْ قِصَّةِ

مريم وعيسى . فتتجلى للناس في ثوبى الحق والصدق ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ؟ .

وما أتمَّ جعفر تلاوة الآيات الكريمة ، حتى بكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته (١) ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم !! ثم قال : إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى ، وأقبل بوجهه على وفد المسلمين ليقول لهم : انطلقوا راشدين ، ونظر شزرا إلى عضوى وفد قریش ليقول لهما : لا والله ، لا أردّهم عليكم ، ولا أنعمكم عينا ! . فخرجا من لدنه تجلّلهما الهزيمة والصغار ، ولما عاد جعفر ومن معه إلى المدينة ، ولبت فيها ما شاء الله أن يلبث ، أمره رسول الله على جيش غزوة مؤتة ، فأبلى في مجالدة الأعداء أحسن البلاء ، ثم أكرمه الله بنيل الشهادة في سبيل نصره دين الله .

قال ابن عمر : فقدنا جعفرا يوم مؤتة ، فوجدنا بين طعنة ورمية بضعا وتسعين ، وجدنا ذلك فيما أقبل من جسده ، دليل شجاعته وجراته ، لأنه لا يقاتل إلا مقبلا غير مدبر !!

ولما سأل رسول الله - عليه صلوات الله - عن جعفر ، قال رجل : رأيته حين طعنه رجل ، فمشى إليه في الرمح ، فضربه فماتا جميعا ! فياها من آية جديدة ناطقة بأن جعفرا من طراز جديد في الشجاعة والبطولة !

(١) أخضل لحيته : بلهما .

إِلَّا يَكُنْ ، فكيف يستطيع أن يهجم على - خصمه ، بعد أن انتظم الرحم صدره ، ويضربه ، فيموتا جميعاً .

قالت أسماء بنت عميس زوج جعفر : دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعا بنى جعفر ، فرأيتهم شمههم ، وذرفت عيناه فقلت : يا رسول الله أبلغك عن جعفر شئ ؟ قال : « نعم ، قتل اليوم » ، فقمنا نبكى ، ورجع فقال : « اصنعوا لآل جعفر طعاماً ، فقد شغلوا عن أنفسهم » .

ثم أرعنى بصرى ، أيها القارئ ، لتقرأ معى عن ابن عباس فى جعفر هذا الحديث النبوى العظيم :

بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس ، وأسماء بنت عميس قرية ، إذ قال : « يا أسماء ، هذا جعفر مع جبريل وميكائيل ، مر فأخبرنى أنه لقى المشركين يوم كذا وكذا فسلم ، فردى عليه السلام . وقال إنه لقى المشركين ، فأصابه فى مقاديمه ثلاث وسبعون ، فأخذ اللواء بيده اليمنى فقطعت ، ثم أخذ باليسرى فقطعت !! : فعوضنى الله من يدى جناحين أطير بهما مع جبريل وميكائيل فى الجنة . آكل من ثمارها » .

ويقول - الرسول عليه الصلوات : « رأيت جعفر بن أبى طالب ملكاً فى الجنة ، مضرجة قوادمه بالدماء ، يطير فى الجنة » .

ولعل هذا هو السر فى شهرته بجعفر الطيار .

قال الشعبي : كان ابن عمر إذا سلّم على عبد الله بن جعفر قال : السلام عليك يا بن ذى الجناحين .

وكان رسول الله - عليه صلوات الله - يقول لجعفر : أشبه خلقك خلقتي ، وأشبه خلقتك خلقتي ، فأنت مني ومن شحمتي .

وفي رواية أخرى رواها على عن رسول الله : « أشبهت خلقتي وخلقتي » .

هذا ، ولكي نكشف عن مكانة جعفر من قلب رسول الله ، نسوق ما رواه الشعبي : لما رجع رسول الله عليه - صلوات الله - من خير ، تلقاه جعفر ، فالتزمه رسول الله ، وقبّل بين عينيه ، وقال : « لا أدري : بأيهما أنا أفرح ؟ بقدوم جعفر ، أم بفتح خير ؟ » .

وهذا أبو هريرة يقول : ما احتذى النّعال ، ولا ركب المطايا بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أفضل من جعفر بن أبي طالب .

يقول : كنّا نسّمّي جعفرا « أبا المساكين » ، لشدة برّه بهم ، وإيثارهم حتى على نفسه .

فهنيئًا لجعفر بعد الذى كابده فى الدنيا من مشقة وجهد ، ما يلقاه الآن فى فسيح الجنان من نعيم وخلد .

مؤسس الدولة الإسلامية (*)

تأسست الدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر - رضى الله عنه - لأنه وطّد العقيدة ، وسير البعوث ، فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الردّة ، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح ، وكان له السّبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين .

إلا أننا نسمّي عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السّبق في أعمال الخلافة ، لأننا لا نجد مكاناً في التاريخ اليقّ به من مكان المؤسسين للدول العظام ، ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية ، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسّع في الغزوات والفتوح ، وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسساً لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم ، فجهر بدعوة الإسلام وأذانه وأعزّها بهيئته وعنفوانه .

وكان مؤسساً لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة ، وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها .

(*) ملخصة من كتاب « عبقرية عمر » للأستاذ عباس العقاد .

وكان مؤسسًا لها يوم أشار على أبى بكر بِجَمْع القرآن ، وهو فى الدولة الإسلامية دستور الدساتير ، ودعامةُ الدعائم ، ولم يزل يراجع أبا بكر فى ذلك حتى استدعى زيد بن ثابت كاتب الوحي ، فأمره أن يَتَّبِعَ آى^(١) القرآن ليجمعها من الرُّقاع والعظام والجريد والخاف^(٢) وصدور الرجال ، فكان ذلك أولُ الشُّروع فى جَمْع الكتاب . هذا إلى أن أبا بكر - رضى الله عنه - أسَّس ولم يتسع له الأجل حتى يَفْرُغَ من عمله وجاء بعده عمر فأتَمَّ عمله وأكمل الأساس ، ثم أقام عليه البناء . وكانت قدرته على التأسيس هى آية الآيات فيه ، وفى ذلك العصر لأنَّه التفت إلى مواضعه الخليفة بالاهتمام والتقديم ، كأنه راجع تاريخ عشرين دولة مستفيضة المُلْك راسخة العُمران .

وهى قُدْرَةٌ تَرُوعُنَا وتُدهِشُنَا لو شهدناها من مَلِك تَرَى على المُلْك ، وسَلَفَه على عَرْشه سَمَط^(٣) الملوك ، وأولى أن تروَعُنَا وتُدهِشُنَا من رجل البادية الذى يُقَدِّمُ على أمرٍ جديد لم تُعْنِه فيه السوابق ، ولم يَهْتَدِ فيه إلا بما اختار هو أن يَهْتَدَى إليه .

فبعد جمع القرآن لا نجد عملاً يقترن به ويلازمه ويُعَدُّ من أسس الدولة العربية كالعَمَل على تصحيح اللغة وحفظها من الخَلَطِ والفساد ، وكلاهما

(١) جمع آية .

(٢) جمع لخرة ، وهى الحجر الأبيض الرقيق .

(٣) سمط : سلسلة وصف .

عمل لا يَفْطَنُ إليه إلا من طُبِعَ على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها ،
وكلاهما فِطْنٌ إليه هذا المؤسس الكبير على أهْوَنَ ما يكون من البساطة
والسهولة ، فأشار بوضع علم النحو^(١) كما أشار بجمع آى القرآن ، فكان
أثره فى دعم الدولة الأدبية كآثره فى دعم دولة الغزوات والفتوح ، ونَدَرَ فى
الدولة الإسلامية نظام لم تكن له أولية فيه ، فافتتح تاريخاً ، واستهل حضارة ،
وأنشأ حكومة ، ورتب لها الدواوين ، ونظم فيها أصول القضاء والإدارة ،
واتخذ لها بيت مال ، ووصل بين أجزائها بالبريد ، وحمى ثغورها^(٢)
بالمرابطين^(٣) ، وصنع كل شيء ، فى الوقت الذى ينبغى فيه أن يصنَعَ
فيه ، وعلى الوجه الذى يَحْسُنُ به الابتداء .

فأَوْجَزُ ما يقال فيه أنه وضع دستوراً لكل شيء ، وتركه قائماً على أساس
لمن شاء أن يبنى عليه .

وملاك^(٤) التَّظْمِ الحكومية كلها نظامُ الشورى الذى أقامه عمر على
أحسن ما يقام عليه فى زمانه ، فجمع عنده نخبة من الصحابة للمشاورة
والاستفتاء ، وضمنَ بهم على العمل فى أطراف الدولة ، تنزيهاً لأقذارهم ،

(١) اعتمد المؤلف على رواية تنسب إلى عمر الإشارة بوضع النحو ، لكن المشهور من
الروايات الأخرى أن الإمام علياً هو صاحب الفكرة .

(٢) المواضع التى يخشى دخول الأعداء منها (المفرد : ثغر) .

(٣) الجنود ، والحراس الملازمون .

(٤) أساس وقوام .

وانتفاعاً برأيهم ، واعتزازاً بتأييدهم له ، ومعاونتهم إيّاه فيما يتولاه من شوا ب
أو عقاب .

وجعل موسم الحج موسماً للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء في أقطار
الدولة من أقصاها إلى أقصاها ، يفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لسيط
ما يشكّهم^(١) ، ويفد فيه الرقباء الذين كان يثّهم في أنحاء البلاد لمراقبة الولاة
والعمال فهي (جمعية عمومية) كأوفي ما تكون الجمعيات العمومية في عصر
من العصور .

وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ، ويشير عليهم ، ويستمع لهم
ويُسمِعُهُم ، ويتوخى في جميع ذلك تمحيص الرأي ، وإبراء الذمة ، والخلوص
إلى التبعة السليمة العقابيل^(٢) .

وإنَّ أضعف الناس رأياً لمن يستضعف فضل الأمير في عمل تولاه ، لأنّه
عمِلُهُ بمشاوره غيره ، فإن باب المشاورة مفتوح لكل إنسان ، وليس كل إنسان
مع ذلك بالذى يريد أن يستشير ، أو بالذى يعرف كيف يستشير إذا أراد ،
أو بالذى يُحسن الموازنة بين الآراء إن عرّف من يستشيرهم ومن يقبل
مشورتهم في حالة ، ويرفضها في حالة أخرى . إنَّ المشاورة لفن عسير ، وإن
الذى ينتفع بمشورة غيره لأقدر ممن يُشير عليه .

(١) يشكّهم : يؤذيمهم ويحملهم على الشكوى .

(٢) أصل العقابيل : ما يبقى من المرض . والمراد : الوصول إلى الغاية الخالية من الآثار

السيفة (المفرد : عقبولة وعقبول) .

وقد كان عمر عبقرى هذا الفن الذى لا يُجارى . وكان من بدعَه
المُلْهِمَة فى هذا الفن العسير ، أنه لم يلمس الرأى عند أهل الحُنْكَة^(١)
والخبرة وكفى ، بل كان يلمسه كذلك عند أهل الحُدَّة والنشاط ممن يناقضون
أولئك فى الشعور والتفكير .

وقد وضع لقواده دستور الحرب ، أو دستور الرُّخْف من الجزيرة العربية
إلى تُخُوم^(٢) أعدائها ، كأخسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده^(٣) ،
فأرسل المدد إلى العراق وعليه أبو عُبيد بن مسعود الثقفى ، وعلمه كيف
يستشير مجلس الحرب الذى معه ، وكيف يُقدِّم فى موضع الإقدام ،
ويترى^(٤) فى موضع التريث . وكتب لسعد بن أبى وقاص بعد اختياره
لحرب فارس ، وفى كتابه له قَبَس من هذا المعنى ، وقبل أن يضع دستوراً
للولاة وضع دستوراً لنفسه قِوَامُهُ أن الحكم مخنة للحاكم ومحنة للمحكومين ،
وأنه لا يَصْلُحُ إلا بشدة لا جَبَرِيَّة فيها^(٥) ، ولين لا وهن فيه^(٦) ، وأن الخليفة
مسئول عن ولاته واحداً واحداً فى كل كبيرة وصغيرة ، لا يُعْفِيه من اللوم أنه
أخسن الاختيار .

(١) الحنكة : الخبرة والدراية .

(٢) التخوم : الحدود (المفرد : تخم) .

(٣) جمع جنود ، وجنود جمع جندى ، الأجناد جمع للجمع .

(٤) يتباطأ ويتمهل .

(٥) الجبرية : القهر والاستبداد .

(٦) الوهن : الضعف .

قال يوماً لمن حوله : أَرَأَيْتُمْ إِذَا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ خَيْرَ مَنْ أَعْلَمَ ، ثُمَّ أَمَرْتُهُ بِالْعَدْلِ - أَكُنْتُ قَضَيْتُ مَا عَلَيَّ ؟ قالوا : نعم . قال : لا ، حتى أَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ ، أَعْمَلَ بِمَا أَمَرْتُهُ أَمْ لَا .

ومن أوائل عُهْدِهِ فِي بَيَانِ الْحَقِّ الَّذِي يُرَشِّحُ الْحَاكِمَ لَوْلَايَةِ الْحُكْمِ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ ، لَوْلَا رَجَائِي أَنْ أَكُونَ خَيْرَكُمْ لَكُمْ ، وَأَقْوَامَكُمْ عَلَيْكُمْ ، وَأَشَدَّكُمْ اسْتِضْلَاعًا ^(١) بِمَا يَنْتُوبُ ^(٢) مِنْ مُهِمِّ أُمُورِكُمْ ، مَا وَلِّيتُ ذَلِكَ مِنْكُمْ » .

وَصَرَحَ فِيمَا لَا يُخَصِّي مِنَ الْخُطْبِ وَالْأَحَادِيثِ أَنَّ لَهُ عَلَيْهِمْ حَقَّ الطَّاعَةِ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ ، فَلَا طَاعَةَ لِلْمَخْلُوقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، وَأَنَّ لَهُ عَلَيْهِمْ حَقَّ النِّصِيحَةِ وَلَوْ آذَوْهُ فِيهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ الرِّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي سَأَلَ النَّاسَ فِيهَا أَنْ يَذِّلُّوهُ عَلَى عَوَجِهِ : فَقَالَ أَحَدُهُمْ : وَاللَّهِ لَوْ عَلِمْنَا فِيكَ اعْوَجَاجًا لَقَوْمَانَا بِسُيُوفِنَا . فَحَمِدَ اللَّهُ أَنْ جَعَلَ فِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ يُقِيمُونَ اعْوَجَاجَ عُمَرَ بِسُيُوفِهِ .

أَمَّا دَسْتُورُ الْوَلَاةِ عِنْدَهُ فَأَسَاسُهُ أَنَّ الْوَلَايَةَ تَمَيِّزٌ ^(٣) بِالْوَاجِبِ وَالْكَفَاةِ وَلَيْسَتْ تَمَيِّزًا بِالْوَجَاهَةِ وَالِاسْتِعْلَاءِ ، فَكَانَ يَقُولُ لِلْوَالِي : افْتَحْ لِهَمْ بَابَكَ وَبَاشِرْ أُمُورَهُمْ بِنَفْسِكَ ، فَإِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ، غَيْرُ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَكَ أَثْقَلَهُمْ حِمْلًا .

(١) اسْتِضْلَاعًا : احْتِمَالًا وَقُدْرَةً .

(٢) بِمَا يَنْتُوبُ : بِمَا يَنْزِلُ وَيَصِيبُ .

(٣) اِمْتِيَاز .

وكان يُحصَى أموالهم قبل الولاية ، ليحاسبهم على مازادوه بعد الولاية ، مما لا يَدْخُلُ في عداد الزيادة المعتدلة ، ومن تَعَلَّلَ منهم بالتجارة لم يَقْبَلْ منه دعواه لأنه كان يقول لهم . إنما بعثناكم وُلاةً ، ولم نبعثكم تجارًا .

وكان يَرُصِدُ لهم الرُّقَبَاءَ والعُيُونَ من حَوْلِهِمْ ، ليلغوه ما يظهر وما خفى من أمرهم ، حتى كان الوالى من كبار الولاة وصغارهم يَخْشَى من أَقْرَبِ الناسِ إليه أَنْ يَرْفَعَ نَبَاهُ إلى الخليفة .

وكان يَأْمُرُ الولاةَ والعُمَّالَ أَنْ يَدْخُلُوا بلادهم نهارًا إذا قَفَلُوا إليها من ولاياتهم لِيُظْهَرَ معهم ما حملوه في عَوْدَتِهِمْ ، ويتصل نبؤه بالحُرَّاسِ والأَرَضَادِ^(١) الذين يُقِيمُهُمْ على مَلَاقٍ^(٢) الطَّرِيقِ .

وكانت سُنَّتُهُ إذا ثَبَّتَ على الوالى شُبْهَةً التصرف في بيت مال المسلمين أَنْ يأخذ منه المال الذى ظَفَرَ به ، أو يُقَاسِمُهُ فيما أَرى على كَسْبِهِ المعقول فيترك له النصف ويضُمُّ النصفَ إلى بيت المال ، وهذا عدا ما يجزيه به من عزل أو عقاب .

أما أمر الشكايات من المظالم فكانت سُنَّتُهُ فيه التحقيق ، ثم الجزاء على شُرْعَةِ المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية ، بغير تفرقة بين السيئة وجزائها ،

(١) الجماعات التى ترصد الأمر ، أى تراقبه ، (المفرد : رصد) .

(٢) مواضع التلاقى المفرد ملقى .

فمن ضَرَبَ ضَرْبَ ، ومن غَضِبَ رَدًّا ما غَضِبَ ، ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه .

قيل أن يُقالَ إن عُمَرَ كان أكبر فاتح في صدر الإسلام ، ينبغي أن يقال : إنه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الإسلام ، وإنه أسسها على الإيمان^(١) ولم يؤسسها على الصَّولجان ، فكان مؤسسًا لها قبل أن يلى الخلافة وينفرد بالكلمة العليا ، وكان من يوم إسلامه آخذًا في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دُولِ العالم في أرسخ بناء .

(١) المراد من هذه الجملة أنه أسسها رغبة في الدين وتأييده مع الخضوع لأصوله وأحكامه ، ولم يؤسسها على قواعد الملك ونظمه المطلقة التي قد يلتمس الملك فيه نفعه الخاص دون اعتبار لرعاياه .

من كلام عمر رضى الله عنه

كتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى ابنه عبد الله : أمّا بعد ، فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لانيّة له ، ولا أجر لمن لا خشية له ، ولا جديد لمن لا خلق له (١) .

ودخل عدى بن حاتم على عمر ، فسلم وعمر مشغول ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا عدى بن حاتم ! فقال : ما أعرفنى بك ! آمنت إذ كفروا ، ووفيت إذ غدّروا ، وعرفت إذ أنكروا ، وأقبلت إذ أدبروا ! .

وقال رجل لعمر : من السيد ؟ قال : الجواد حين يُسأل ، الحليم حين يُستجهل ، الكريم المجالسة لمن جالسه ، الحسن الخلق لمن جاوره .

وقال - رضى الله عنه - : ما كانت الدنيا همّ رجل قطّ إلا لزم قلبه أربع خصال : فقرٌ لا يُدرك غناه ، وهمٌّ لا ينقضى مداه ، وشغلٌ لا ينفد أولاه (٢) ، وأمل لا يبلغ منتهاه .

ومن كلامه - رضى الله عنه - : من كتم سره كان الخیار في يده . أشقى الولاة من شقيت به رعيته . أعقل الناس أعذرهم للناس . ما الخمر صرفاً (٣)

(١) الخلق : القديم البالى .

(٢) أولاه : أوله .

(٣) الخمر الصرف : الخالصة .

بأَذْهَبَ لِعُقُولِ الرِّجَالِ مِنَ الطَّمَعِ . لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلْفًا ، وَلَا بُغْضُكَ تَلْفًا .
مُرْذَوَى الْقَرَابَاتِ أَنْ يَتَزَاوَرُوا ، وَلَا يَتَجَاوَرُوا ، قَلَمًا أَذْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ . أَشْكُو
إِلَى اللَّهِ ضَعْفَ الْأَمِينِ ، وَخِيَانَةَ الْقَوَى .

تَكْثُرُوا مِنَ الْعِيَالِ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ بِمَنْ تَرْزُقُونَ . لَوْ أَنَّ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ بَعِيرَانِ
مَا بَالَيْتَ أَيُّهُمَا أَرْكَبَ . مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ كَانَ أَجْدَرُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ .

وَقَالَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ لَصَعْصَعَةَ بْنِ صَوْجَانَ :
صِفْ لِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ : كَانَ عَالِمًا بِرَعِيَّتِهِ ، عَادِلًا فِي قَضِيَّتِهِ ،
عَارِيًا مِنَ الْكِبَرِ ، قَبُولًا لِلْعَذْرِ ، سَهْلًا الْحِجَابِ ، مَصُونًا الْبَابِ ، مُتَحَرِّيًا
لِلصَّوَابِ ، رَفِيقًا بِالضَّعِيفِ ، غَيْرَ مُتَحَابٍّ لِلْقَرِيبِ ، وَلَا جَافٍ لِلْغَرِيبِ .

وَرَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَجَّ فَلَمَّا كَانَ
بِضَجْنَانَ (١) . قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ، الْمَعْطَى مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ ،
كُنْتُ فِي هَذَا الْوَادِي فِي مَدْرَعَةٍ صُوفٍ أُرْعَى إِبِلَ الْخَطَّابِ ، وَكَانَ فِظًا يُتَعَبَنِي
إِذَا عَمِلْتُ ، وَيُضْرِبُنِي إِذَا قَصُرْتُ . وَقَدْ أَمْسَيْتَ اللَّيْلَةَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ
أَحَدٌ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ :

(١) ضَجْنَانَ : جَبِيلٌ بِنَاحِيَةِ مَكَّةَ .

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الإله ويودى^(١) المال والولد

لم تغن عن هرْمُز^(٢) يوماً خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجرى الرياح له
والجن والإنس فيما بينها تَرْدُ
أين الملوك التي كانت نوافلها
من كل صوب إليها وافد يفد؟

حوض هنالك مورود بلا كدر
لابد من وزده يوماً كما وردوا

وقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يوم فتح مكة :

ألم تر أن الله أظهر دينه
على كل دين قبل ذلك حائد^(٣)

(١) فى العمدة : ويفنى .

(٢) الهرمز : الكبير من ملوك العجم .

(٣) حائد : مائل .

وَأَمَكْنَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بَعْدَمَا
تَدَاَعَوْا إِلَى أَمْرِ مِنَ الْغَىِّ فَاسَدِ
غَدَاةَ أَجَالِ الْخَيْلِ فِي عَرَصَاتِهَا
مَسْوْمَةٌ بَيْنَ الزَّبِيرِ وَخَالِدِ
فَأَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ قَدْ عَزَّ نَصْرُهُ

وَأَمْسَى عِدَاهُ مِنْ قَتِيلٍ وَشَارِدِ
يُرِيدُ الزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَامِ حَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ
سَيْفُ اللَّهِ - تَعَالَى - فِي الْأَرْضِ .

وَلَمَّا قَتَلَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ غَلَامَ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ، قَالَتْ عَاتِكَةُ بِنْتُ زَيْدِ بْنِ
عَمْرِو بْنِ نَفِيلٍ زَوْجَتَهُ تَرْتِيهِ :

عَيْنُ جُودِي بِعَبْرَةٍ وَنَحِيبِ
لَا تَمْلَى عَلَى الْأَمِينِ النَّحِيبِ

فَجَعَتْنِي الْمَنُونُ بِالْفَارِسِ الْمُعِ

لَمْ - يَوْمَ الْهِيَاجِ وَالتَّشْوِيبِ (١)

(١) التَّشْوِيبُ : الدَّعَاءُ .

عُضْمَةُ النَّاسِ وَالْمُعِينُ عَلَى الدَّهْرِ

غَيْثُ الْمَحْرُومِ وَالْمَحْرُوبِ (١)

قُلْ لِأَهْلِ الضَّرَاءِ وَالْبُؤْسِ : مَوْتُوا

قَدْ سَقَتْهُ الْمَنُونُ كَأْسَ شُعُوبِ (٢)

وَقَالَتْ أَيْضًا تَرْتِيهِ :

وَفَجَّعَنِي فَيَرُوزُ لَا دَرَّ دَرُّهُ (٣)

بَأَيُّضٍ تَالِ (٤) لِلْكِتَابِ مَنِيْبِ

رُؤُوفٌ عَلَى الْأَدْنَى غَلِيظٌ عَلَى الْعَدَا

أَخَى ثِقَةٌ فِي النَّائِبَاتِ نَجِيْبِ

مَتَى مَا يَقْلُ لَا يَكْذِبُ الْقَوْلَ فِعْلُهُ

سَرِيعٌ إِلَى الْخَيْرَاتِ غَيْرُ قَطُوبِ

وعاتكة هذه هي أخت سعيد بن زيد أحد العشرة الذين شهد لهم النبي -

صلى الله عليه وسلم - بالجنة ، وكانت تحت عبد الله بن أبي بكر ، فأصابه

(١) المحروب : المسلوب .

(٢) شعوب : هي المنية .

(٣) لادر دره : لا كثر خيره .

(٤) في رواية : قار .

سَهْمٌ فِي غَزْوَةِ الطَّائِفِ فَمَاتَ مِنْهُ ، فَتَزَوَّجَهَا عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقُتِلَ
عَنْهَا ، فَتَزَوَّجَهَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فَقُتِلَ عَنْهَا ، فَكَانَ عَلَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ :
مَنْ أَحَبَّ الشَّهَادَةَ الْحَاضِرَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ بِعَاتِكَةَ .

أبو عمارة حمزة (رضى الله عنه)

هو ابن عبد المطلب عم النبي - صلى الله عليه وسلم - وأخوه من الرضاعة أسد الله وأسود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبو عمارة ، وفتي قريش ، ولد قبل النبي - صلى الله عليه وسلم - بستين ، أسلم في السنة الثالثة من البعثة ، ولازم ، ونصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهاجر معه ، ذكر « ابن إسحاق » في سبب إسلامه أن « أبا جهل » مر برسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند الصفا فنال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، فلم يكلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت مولاة^(١) « لعبد الله بن جدعان » التيمى في سكن لها ، تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه إلى نادى قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، فلم يلبث « حمزة ابن عبد المطلب » - رضى الله عنه - أن أقبل متوشحاً^(٢) قوسه ، راجعاً من قنص^(٣) له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، ثم يمر على نادى قريش ، فيسلم عليهم ، ويتحدث معهم . وكان أعز فتى في قريش ، وأشد شكيمة^(٤) ، فلما مر بالمولاة . وقد رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بيته قالت له : « أبا عمارة » لو رأيت ما لقي ابن أخيك « محمد » من « أبى

(١) مولاة : جارية .

(٢) متوشحاً : يقال : توشح الرجل بثوبه أو بسيفه أى لبسه وتقلده .

(٣) القنص بفتح الحين : الصيد .

(٤) شديد الشكيمة : أى شديد النفس أنفاً أيّاً .

الحكم بن هشام « الآن ؟ وجده جالساً ههنا ، فأذاه ، وبلغ منه ما يكره ، وانصرف عنه ، ولم يكلمه « محمد » - صلى الله عليه وسلم - فاحتمل « حمزة » الغضب ، لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى لم يقف على أحد ، مُعِداً « لأبى جهل » إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد ، نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فضربه بها ، فشجّه (١) شجرة منكرة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه : أقول ما يقول ، فردّ ذلك على إن استطعت ، فقامت رجال من بنى مخزوم إلى « حمزة » لينصروا « أبا جهل » فقال « أبو جهل » : دعوا أبا عماره ، فإننى والله قد سببت (٢) ابن أخيه سباً قبيحاً وصمم - رضى الله عنه - على إسلامه ، فلما أسلم ، عرفت قريش أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد عز ، وامتنع ، وأن « حمزة » سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

شهد « حمزة » بدرًا ، وأبلى فيها . وكان معلماً نفسه بريشة نعام ، وقتل « شيبة بن ربيعة » وطعيمة بن عدى وشارك في « عتبة » وقد فاز هو وعلى ابن أخيه بثلاث قتلى المشركين في ذلك اليوم وعقد له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) شجّه : يقال : شج رأسه أى كسره .

(٢) السب : الشتم والطعن .

عليه وسلم - لواء^(١) ، وأرسله إلى سيف البحر ، من ناحية العيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين فالتقى مع « أبي جهل » في ذلك الساحل في ثلاثمائة من أهل مكة ، فتصافوا^(٢) للقتال ، فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى وكان مسالماً للفريقين ، فانصرف بعضهم عن بعض ، رايته أول راية عقدتها النبى - صل الله عليه وسلم - في الإسلام في قول « المدائنى » ولقبه النبى « أسد الله » .

واستشهد سنة ثلاث من الهجرة بأحد ، فسماه النبى « سيد الشهداء » ، وقد أثخن^(٣) في المشركين في ذلك اليوم .

قتله « وحشى » غلام جبير بن مطعم ، كمن له وراء صخرة . قال وحشى : وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة ، فلما أخطىء بها شيئاً ، فلما التقى الناس ، خرجت أنتظر « حمزة » وأتبصره ، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق^(٤) ، يهذ^(٥) الناس بسيفه هذا ما يقوم له شئ ، فو الله إني لأتھيا له ، فأستتر منه بشجرة أو حجر ، ليدنو

(١) اللواء واحد الألوية وهى دون الأعلام والبنود .

(٢) تصافوا صفوا : وقفوا .

(٣) أثخن في المشركين : بالغ في الجراحة منهم .

(٤) الجمل الأورق : الذى فى لونه بياض إلى سواد .

(٥) يهذ الناس بسيفه : المراد يقضى على كل من يواجهه .

منى ، إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه « حمزة » قال له :
هلم إلى يا ابن مقطعة البظور (١) ، فضربه ، فقتله ، قال : فلم يبق بينى
وبينه أحد ، فهزرت حربتى ، حتى إذا رضيت عنها ، دفعتها عليه ، ف وقعت
فى ثُنَّتِهِ (٢) حتى خرجت من بين رجله وذهب لينوء نحوى ، فغلب ، فتركته
حتى مات ، ثم أتته ، فأخذت حربتى ورجعت إلى مكة ، فأعتقنى سيدى .
ومن شعر « حمزة » - رضى الله عنه - يذكر لقاء أبى جهل وأصحابه
فى قصيدة تركت أكثرها اختصاراً :

عشية ساروا حاشدين وكلنا
مراجله من غيظ أصحابه تغلى
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا
مطايا وعقلنا مدى غرض النبل
وقلنا لهم : حبل الإله نصيرنا
وما لكم إلا الضلالة من حبل
فشار أبو جهل هنالك باغياً
فخاب ورد الله كيد أبى جهل

(١) البظور : البظر : ما بين أسكتى المرأة .

(٢) الثُنَّة : ما بين أسفل البطن إلى العانة .

وما نحن إلا في ثلاثين ركبًا

وهم مائتان بعد واحدة فضل

لما قتل « حمزة » - رضى الله عنه - عم النبي - صلى الله عليه وسلم -

يوم أُحد ، مثلَ المشركون به وبقرؤا بطنه . فلما رأى النبي - صلى الله عليه

وسلم - ما فعل المشركون حزن ، وقال :

« لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك » فنزل قول الله تعالى :

« وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ .

وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ ،

آتَقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » فكفر رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - عن

يمينه ، وكفَّ عما أرادَه ، ولا خلاف في أن الإسلام يُحرِّم المثلة حتى بالكلب

العقور .

طبيب العرب

وَفَدَّ أَعْرَابِي عَلَى كَسْرَى أَنُو شَرَوَان ، فَسَأَلَهُ عَنْ اسْمِهِ وَصَنَاعَتِهِ ، فَأَجَابَهُ ،
أَنَا الْحَارِثُ بْنُ كَلْدَةَ ، طَبِيبُ الْعَرَبِ ، فَقَالَ كَسْرَى : مَا يَصْنَعُ الْعَرَبُ
بِالطَّبِيبِ ، مَعَ سُوءِ أَغْذِيَتِهِمْ ؟ قَالَ : إِنْ كَانَ هَذَا حَالَهُمْ ، فَهَمْ أَجْدَرُ
بِالطَّبِيبِ ، فَقَالَ : وَكَيْفَ يَعْرِفُونَ مَنْ يَسْلُمُونَ إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ ، مَعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ
مِنْ شِدَّةِ الْجَهْلِ ؟ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ - - عَزَّ وَجَلَّ - قَسَمَ الْعُقُولَ بَيْنَ الْعِبَادِ ،
كَمَا قَسَمَ الْأَرْزَاقَ ، وَأَخَذَ الْقَوْمَ نَصِيبَهُمْ ، فَفِيهِمْ مَا فِي غَيْرِهِمْ مِنْ جَاهِلٍ وَعَالِمٍ ،
وَعَاجِزٍ ، وَحَازِمٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَقَالَ : مَا هُوَ الْحَمُودُ مِنْ صِفَاتِهِمْ ؟ قَالَ : هُوَ
أَكْثَرُ مَنْ أَنْ يُحْصَرَ ، فَإِنَّ لَهُمْ أَنْفُسًا سَخِيَّةً ، وَقُلُوبًا جَرِيَّةً ، وَعُقُولًا صَحِيَّةً ،
وَأَنْسَابًا نَقِيَّةً ، لَغَتُهُمْ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ ، وَأَوْسَعُهَا فِي التَّرَاكِبِ وَالْكَلِمَاتِ أَلْسِنَتُهُمْ
طَلِيقَةٌ ، وَعِبَارَاتُهُمْ رَقِيقَةٌ ، يَمُرُّقُ الْكَلَامُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ مَرُوقُ السَّهَامِ مِنْ
أَوْتَارِهِمْ ، أَعَذِبَ مِنَ الْمَاءِ ، وَأَلَيْنَ مِنَ الْهَوَاءِ ، يَطْعَمُونَ الطَّعَامَ ، وَيُوَاسُونَ
الْأَيْتَامَ ، عَزَّهُمْ لَا يَرَامُ ، وَجَارَهُمْ لَا يَضَامُ ، فَاسْتَوَى كَسْرَى عَلَى كَرْسِيهِ ،
وَجَرَى مَاءُ الْحَلَمِ فِي وَجْهِهِ ، وَقَالَ لَجَلَسَائِهِ مُشِيرًا إِلَى ابْنِ كَلْدَةَ : إِنِّي وَجَدْتُهُ
رَاجِحًا ، وَلَقَوْمَهُ مَادِحًا ، وَبِفَضْلِهِمْ نَاطِقًا ، وَلَمَّا يورده من لفظه صادقًا ،
وَكَذَا الْعَاقِلُ مِنْ أَحْكَمَتِهِ التَّجَارِبُ ، وَلَا يَكُونُ حَاطِبًا مَعَ كُلِّ حَاطِبٍ ، ثُمَّ
بَشَّ فِي وَجْهِهِ قَائِلًا ، لِلَّهِ دَرَكٌ مِنْ عَرَبِيٍّ ، لَقَدْ أُعْطِيتَ عِلْمًا ، وَخُصِّصْتَ
فُطْنَةً وَفَهْمًا ، وَأَحْسَنَ صَلَتهُ ، وَقَضَى جَمِيعَ حَوَائِجِهِ .

لم يجاوز الحارث بن كعدة الحقيقة ، ولم يعد الصواب ، حين وصف قومه العرب ، بما وصفهم به ، من جليل الصفات ، وحميد السجايا ، وكريم الخصال ، وفي الحق ، أنا لم نر ولم نقرأ ، عن أمة من أمم الأرض قاطبة ، قديمها وحديثها ، أوفى من العرب بالوعد ، وأرعى منهم للعهد ، وأقرب للضيف وأحمى للذمار ، وأعرف بحق الجار ، وأبعد عن النفاق وأغبر على العرض ، وأمسك بالشرف ، وأسرع إلى النجدة ، مع صفاء الذهن ، وجودة القريحة ، ونقاء السريرة ، كان العرب كذلك ، وما زالوا كذلك ، يُوادُّون من يوادهم ، ويسالمون من يسالمهم لا يبادرون بعدوان ، ولا يقدمون على شر ، إلا أن يعتدى عليهم أو على بعضهم معتدًا ثم ، عند ذلك يهتدون متحدين متساندين ، مؤتلفين ، متآزرين ، يشدّ بعضهم بعضًا ، ليدفعوا عن عروبتهن كيد الكائدين ، وعدوان المعتدين .

يقول كسرى ، وقد عرف صناعة محدثه : ما يصنع العرب بالطبيب ، مع سوء أغذيتهم ؟ فيجيبه الحارث على الفور ، إذن فهم أجدر بالطبيب ، على أنأ نرى أن في قليل الغذاء منجاة من الأمراض ، وانظر إلى قول الحارث يرد على كسرى ما رمى به أمته من الجهل ، إذ يقول : فيهم ما في غيرهم من سائر الأمم ، وكأنه يريد أن يقول لكسرى ، إن في أمتك جهلاً كما في العرب ، ولكنه أثر في الإقناع أسلوب الحكيم ، كما يقول البلاغيون ، تأدباً من جهة ،

وعرفانا بمواقع الكلام من جهة أُخرى ، ولم يزل بكسرى حتى أقرَّ له بالفضل
فحباه وقضى حوائجه ، وهكذا يكون دفاع الرجل عن أمته ، وجهه لأبناء
جلدته ووطنه .

المقامة البشرية لبديع الزمان الهمداني

حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشرُ بْنُ عَوَّانَةَ العَبْدِيُّ صَعْلُوكًا^(١) ،
فَأَغَارَ عَلَى رَكْبٍ فِيهِمْ امْرَأَةً جَمِيلَةً ، فَتَزَوَّجَ بِهَا وَقَالَ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ ،
فَقَالَتْ :

أُعْجِبَ بِشْرًا حَورٌ فِي عَيْنِي
وَسَاعِدٌ أَبْيَضٌ كَاللُّجَيْنِ^(٢)
وَدُونَهُ مَسْرَحٌ طَرْفُ الْعَيْنِ
خَمْصَانَةٌ تَرْفُلُ فِي جِجْلَيْنِ^(٣)
أَحْسَنَ مَنْ يَمْشِي عَلَى رَجْلَيْنِ
لَوْ ضَمَّ بَشَرٌ بَيْنَهَا وَيْنِي
أَدَامَ هَجْرِي وَأَطَالَ يِنِّي
وَلَوْ يَقْسُ زَيْنَهَا بِزَيْنِي
لَأَسْفَرَ الصَّبْحَ لِذِي عَيْنَيْنِ

(١) صَعْلُوكًا : لُصًّا .

(٢) اللُّجَيْنُ : الْفِضَّةُ .

(٣) الْخَمْصَانَةُ : الضَّامِرَةُ الْكَشْحُ : الْحِجْلُ : الْخُلْخَالُ .

قال بشر : وَيَحْكُ مَنْ عَنَيْتِ^(١) ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة ، فقال :

أهَى من الحُسْنِ بَحِثْ وَصَفْتِ ؟ قالت : وأزيد وأكثُر ، فأنشأ يقول :

وَيَحْكُ يَا ذَاتَ الثَّأْيَا الْبَيْضِ

مَا خَلْتُسَى مِنْكَ بِمُسْتَعْرِضِ

فَالآنَ إِذْ لَوَّحْتَ بِالتَّغْرِضِ

خَلَوْتُ جَوًّا فَاصْفِرِي وَبِيضِي^(٢)

لَا ضَمَّ جَفْنَايَ عَلَى تَغْمِيزِ

مَا لَمْ أَشْلُ عِرْضِي مِنَ الْحَضِيضِ^(٣)

(١) عنيت : قصدت .

(٢) لوحت وعرضت بأنه يطلب نساء الأبعد وبنت عمه في مسرح نظره يطلبها الأبعدون ، وربما تزوج بها من هو دونه في البأس والشدة ، وهذا من أقبح العار بمثله ، فصمم على ترك هذه المرأة التي ظن أنها أجمل النساء وقال لها : خلوت جَوًّا أى خلا جوك من القرين ، وأصله قول كليب وائل لما رأى قنبرة اتخذت عشًّا في حماه قال يخاطبها مفتخرًا بحمايته إياها :

يَا لَكَ مِنْ قَنْبَرَةٍ بِمَحْجَرٍ خَلَا لَكَ الْجَوُ فَبِيضِي وَاصْفِرِي

وَنَفْرِي مَا شِئْتُ أَنْ تَنْفَرِي

(٣) مَا لَمْ أَشْلُ عِرْضِي : مَا لَمْ أُرْفِعْ عِرْضِي .

فقلت :

كم خاطب في أمرها ألحاً

وهي إليك ابنة عمّ لحاً^(١)

ثم أرسل إلى عمّه يخطبُ ابنته ، ومنعه العم أميّته ، فألى ألا يُرعى^(٢)
على أحد منهم إن لم يُزوّجه ابنته ، ثم كثرت مضرّاته فيهم ، واتصلت
معرّاته^(٣) إليهم . فاجتمع رجالُ الحيّ إلى عمه ، وقالوا : كُفّ عنا
مجنونك ، فقال : لا تلبّسوني عاراً ، وأمهلوني حتى أُهلكه ببعض الحيل ،
فقالوا : أنت وذاك ، ثم قال له عمه : إني آليت^(٤) ألا أزوّج ابنتي هذه
إلا ممّن يسوق إليها ألفَ ناقةٍ مهراً ، ولا أرضاها إلا من نوق خزاعة ، وغرضُ
العمّ كان أن يسلكَ بشرّ الطريق بينه وبين خزاعة فيفترسه الأسد ، لأن العربَ
قد كانت تحامّت عن ذلك الطريق ، وكان فيه أسدٌ يُسمّى داذا ، وحيّةٌ تُدعى
شجاعاً ، يقول فيهما قائلهم :

(١) ابنة عم لحا : لاصقة النسب .

(٢) لا يرعى على أحد : يقتلهم حيث يجدهم .

(٣) معرّاته : جمع معرة وهي الأذى والشر .

(٤) آليت : حلفت .

أَفْتَكُ مِنْ دَاذَا وَمِنْ شَجَاع

إِنْ يَكُ دَاذَا سَيِّدَ السَّبَاعِ
فَإِنَّهَا سَيِّدَةُ الْأَفَاعِي

ثُمَّ إِنْ بَشَرًا سَلَكَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ ، فَمَا نَصَفَهُ حَتَّى لَقِيَ الْأَسَدَ وَقَمَّصَ
مُهْرَهُ^(١) ، فَنَزَلَ وَعَقَرَهُ^(٢) ثُمَّ اخْتَرَطَ^(٣) سَيْفَهُ إِلَى الْأَسَدِ وَاعْتَرَضَهُ وَقَطَعَهُ^(٤) ، ثُمَّ
كَتَبَ بِدَمِ الْأَسَدِ عَلَى قَمِيصِهِ إِلَى ابْنَةِ عَمِّهِ :

أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدْتَ بَيْطُنَ خَبْتٍ^(٥)

وَقَدْ لَاقَى الْهَزْبِرَ^(٦) أَخَاكَ بَشَرًا

إِذَا لَرَأَيْتَ لَيْثًا^(٧) زَارَ لَيْثًا

هَزْبِرًا أَغْلَبَا^(٨) لَاقَى هَزْبِرًا

(١) قَمَصَ الْفَرَسَ : رَفَعَ يَدَيْهِ مَعًا وَطَرَحَهُمَا مَعًا وَعَجَنَ بِرَجْلَيْهِ .

(٢) عَقَرَهُ : قَطَعَ قَوَائِمَهُ بِالسَّيْفِ .

(٣) اخْتَرَطَ سَيْفَهُ إِلَى الْأَسَدِ : سَلَّهُ إِلَيْهِ .

(٤) قَطَعَهُ : قَطَعَهُ عَرْضًا .

(٥) بَيْطُنَ خَبْتٍ : عَلَمٌ عَلَى مَوْضِعٍ .

(٦) الْهَزْبِرُ : الْأَسَدُ .

(٧) لَيْثًا : أَسَدًا .

(٨) الْأَغْلَبُ : مَنْ أَلْقَابَ الْأَسَدَ .

تَبْهَنْسُ^(١) حِينَ أَحْجَمَ عَنْهُ مُهْرِي
مُحَاذَرَةً فَقُلْتُ عُقِرْتَ^(٢) مُهْرًا
أَنْبِلُ قَدَمَيَّ ظَهَرَ الْأَرْضِ إِنِّي
رَأَيْتُ الْأَرْضَ أَثْبَتَ مِنْكَ ظَهْرًا
وَقُلْتُ لَهُ وَقَدْ أَبْدَى نِصَالًا^(٣)
مُخَدَّدَةً وَوَجْهَهَا مَكْفَهْرًا
يُكْفِكِفُ^(٤) غِيلَةً إِخْدَى يَدَيْهِ
وَيَسِطُ لِلْوُثُوبِ عَلَى أُخْرَى
يَدِلُّ^(٥) بِمِخْلَبٍ وَبِحَدِّ نَابٍ
وَبِاللَّحْظَاتِ تَحْسَبُهُنَّ جَمْرًا
وَفِي يُنْمَايَ مَاضِي الْحَدِّ أَبْقَى
بِمَضْرِبِهِ قِرَاعُ الْمَوْتِ أَثْرًا

(١) تبهنس : تبختر .

(٢) عقرت مهرا : قطعت .

(٣) المراد بالنصال : الأنياب .

(٤) يكفكف : يقبض .

(٥) يدل بمخلب : يثق بأن له من القوة ما تتضاءل عندها قوتي ويجترئ بذلك على .

أَلَمْ يَتْلُغْكَ مَا فَعَلْتُ ظُبَاهُ (١)
بِكَاظِمَةٍ (٢) غَدَاةَ لَقَيْتُ عَمْرًا
وَقَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَخْشَى
مُصَاوَلَةً فَكَيْفَ يَخَافُ ذَعْرًا
أَتَيْتُ تَرُومَ لِلْأَشْبَالِ قُوتًا
وَأَطْلُبُ لَابِنَةِ الْأَعْمَامِ مَهْرًا
فَفَيْمَ تَسُومُ مِثْلِي أَنْ يُوَلَّى
وَيَجْعَلَ فِي يَدَيْكَ النَّفْسَ قَسْرًا
نَصَحْتُكَ فَاتَمَسَّ يَالَيْتُ غَيْرِي
طَعَامًا إِنْ لَحِمِي كَانَ مَرًّا
فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّ الْغِشَّ نُصَحِي
وَخَالَفَنِي كَأَنِّي قَلْتُ هُجْرًا (٣)
مَشَى وَمَشَيْتُ مِنْ أَسْدِينَ رَامَا
مَرَامًا كَانَ إِذْ طَلَبَاهُ وَغَرَا

(١) الظبا : جمع ظبة وهي حد السيف .

(٢) كاظمة : اسم مكان .

(٣) الهجر : الفحش من الكلام أو الهذيان .

سَلَّتُ لَهُ الْحُسَامَ فَخِلْتُ أَنِّي
شَقِيتُ بِهِ لَدَى الظُّلَمَاءِ فَجَرَا
وَجُدْتُ لَهُ بِجَائِشَةٍ (١) أَرْتُهُ
بِأَنَّ كَذِبُهُ مَامَّتُهُ غَذَرَا
وَأَطْلَقْتُ الْمُهَنْدَ (٢) مِنْ يَمِينِي
فَقَدْ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاعِ عَشْرَا
فَخَرَّ مُجَدَّلًا (٣) بَدَمَ كَانِي
هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخْرَا (٤)
وَقُلْتُ لَهُ : يَعْزُ عَلَى أَنِّي
قُلْتُ مُنَاسِبِي (٥) جَلَدًا وَقَهْرَا
وَلَكِنْ رُمْتُ شَيْئًا لَمْ يَرْمُهُ
سِوَاكَ فَلَمْ أَطِقْ يَالَيْثَ صَبْرَا

(١) المراد بالجائشة المعنى الوصفى أى بضربة هائجة .

(٢) المهند : السيف .

(٣) مجدلا : مصروعا .

(٤) مشمخرا : عاليا .

(٥) مناسبى : مشاكل .

تَحَاوَلُ أَنْ تُعَلِّمَنِي فِرَارًا
لَعَمْرُ أَيْيَكْ قَدْ حَاوَلْتُ نَكْرًا
فَلَا تَجْزَعُ فَقَدْ لَاقَيْتُ حُرًّا
يَحْذِرُ أَنْ يُعَابَ فَمِتَّ حُرًّا
فَإِنْ تَكْ قَدْ قُتِلْتَ فَلَيْسَ عَارًا
فَقَدْ لَاقَيْتُ ذَا طَرَفَيْنِ (١) حُرًّا

فلما بلغت الأبيات عمه ، ندم على منعه تزويجها ، وخشى أن تغتاله
الحية ، فقام في أثره ، وبلغه وقد ملكته سورة (٢) الحية ، فلما رأى عمه
أخذته حمية الجاهلية ، فجعل يده في فم الحية وحكم سيفه فيها فقال :

بِشْرٍ إِلَى الْمَجْدِ بَعِيدٌ هُمُّهُ
لَمَّا رَأَاهُ بِالْعَرَاءِ عَمُّهُ
قَدْ ثَكَلَتْهُ نَفْسُهُ وَأُمُّهُ
جَاشَتْ بِهِ جَائِشَةٌ (٣) تَهُمُّهُ

(١) ذو طرفين : أى أبوين معروفين أصيلين .

(٢) سورة الحية : سطوتها .

(٣) الجائشة وصف المخدوف ، أى الحية الهائجة .

قام إلى ابن للفلا (١) يَوْمُهُ

فغاب فيه يده وكمه

وَنَفْسُهُ نَفْسِي وَسَمِي سَمِهِ

فلما قَتَلَ الحية قال عمه : إني عَرَضْتُكَ طَمَعًا في أمر قد ثنى الله
عِناي (٢) عنه ، فارجع لأزواجك ابنتي ، فلما رجع جعل بشرًا يملأُ فمه
فخرًا ، حتى طلع أَمْرُدُ كَشِيقُ القمر على فرسه مدججًا في سلاحه ، فقال
بشر : يا عم ، إني أسمع حِسَّ صَيْدٍ ، وخرج فإذا بغلام على قَيْدٍ (٣) ،
فقال : ثَكِلْتُكَ أُمُّكَ يا بشر ، أَنْ قَتَلْتَ دودة وبهيمة تملأُ ما ضغيك فخرًا ،
أنت في أمان إن سَلَّمْتَ عَمَّكَ ، فقال بشر : من أنت ؟ لا أم لك !

قال : اليوم الأسود والموت الأحمر ، فقال بشر : ثكلتك من سَلَحَتِكَ ،
فقال يابشر : ومن سَلَحَتِكَ (٤) ؟ وكرَّ كل واحد منهما على صاحبه ، فلم
يتمكن بشر منه وأمكن الغلام عشرون طعنة في كُلِّية بشر ، كلما مَسَّهُ
شِبَا (٥) السَّنان ، حماه عن بدنه إِبْقَاءٌ عليه ، ثم قال : يابشر ، كيف ترى ؟
أليس لو أردت لأطعمتكَ أُنْيَابَ الرمح ؟ .

(١) ابن الفلا : الحية .

(٢) ثنيت عِناي عن الشيء : انصرفت عنه .

(٣) على قيد : قريب .

(٤) سَلَحَتِكَ : رمت بك من بطنها .

(٥) شِبا السنان : طرفه .

ثم ألقى رمحه ، واستل سيفه ، فضرب بشرا عشرين ضربة بعرض
السيف ، ولم يتمكن بشر من واحدة ، ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب
في أمان ، قال : نعم ولكن بشرطة أن تقول لي : من أنت ؟ ، فقال أنا ابنك ،
فقال : ياسبحان الله ! ما قارنت عقيلة قط ، فأننى لي هذه المنحة ؟
فقال : أنا ابن المرأة التى دلتك على ابنة عمك .
فقال بشر :

تلك العصا من هذه العُصيّة

هل تلد الحيّة إلا الحيّة

وحلف لا ركب حصاناً ، ولا تزوج حصاناً^(١) ، ثم زوج ابنة عمه
لابنه .

(١) ما قارنت عقيلة : ما تزوجت امرأة كريمة .

(٢) الحصان : كسحاب : المرأة العفيفة .

المناقشة

- كيف احتال عم بشر بن عوانة لإهلاكه ؟
- في المقامة صور متعددة للبطولة ، وضحها ، وبين أبطالها .
- ماالذى تنكره من حوادث هذه القصة ؟ ولماذا ؟
- كيف كان الصراع بين الفتى وبشر ؟ وبم انتهى ؟
- قال الفتى لبشر : قتلت دودة وبهيمة ، فماذاك ؟ وعلام يدل هذا التعبير ؟

- كتب بشر لابنة عمه أبياتا من الشعر ، انثر هذه الأبيات .
- في القصة صور لاتليق إلا بالحياة البدوية ، وضح هذه الصور .
- لوقلت : إن هذه القصة من الخيال لامن الحقيقة ، فما دليلك ؟

بلاء أعظم من بلاء

قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبَسَ ، وَكَانَ ضَرِيرًا مَحْطُومَ الْوَجْهِ ، عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ ، فَقَالَ : بِتُّ لَيْلَةً فِي بَطْنِ وَادٍ وَلَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ عَبْسِيًّا يَزِيدُ مَالَهُ عَلَى مَالِي ، فَطَرَقَنَا سَيْلٌ ، فَذَهَبَ بِمَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلٍ وَإِبِلٍ وَمَالٍ وَوَلَدٍ ، إِلَّا صَبِيًّا وَبَعِيرًا ، فَفَرَّ الْبَعِيرُ ، وَالصَّبِيُّ مَعِيَ ، فَوَضَعْتُهُ وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ ، فَمَا جَاوَزْتُ ابْنِي قَلِيلًا ، إِلَّا وَرَأْسُ الذَّنْبِ فِي بَطْنِهِ يَفْتَرِسُهُ ، فَتَرَكْتُهُ وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ ، فَرَمَحَنِي رِمْحَةٌ حَطَّمَتْ بِهَا وَجْهِي ، وَأَذْهَبَ عَيْنِي ، فَأَصْبَحْتُ لَا مَالَ عِنْدِي وَلَا وَلَدَ ، حَتَّى بَصُرْتُ قَدْ فَقَدْتُهُ كَمَا تَرَى ، فَقَالَ الْوَلِيدُ : أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى عُرْوَةَ بْنِ الزَّبِيرِ ، وَكَانَ قَدْ أَصَابَهُ بِلَاءٌ مُتَتَابِعٌ ، لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ بِلَاءً مِنْهُ .

مِنْ النَّاسِ مَنْ إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ ، أَوْ نَابَتْهُ نَائِبَةٌ ، أَوْ أَلَمَّ بِهِ خُطْبٌ ، جَلَّ أَوْ هَانَ ، أَقَامَ الدُّنْيَا وَأَقْعَدَهَا ، وَجَعَلَ يَسِبُ الزَّمَانَ ، وَيَغْضُ الْحَيَاةَ ، وَيَكْرَهُ الْعَيْشَ ، وَهَذَا لِعَمْرِى ضَعْفٌ فِي الْإِيمَانِ ، وَيَأْسٌ مِنْ رُوحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَبَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ ، إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ .

وَكَأَنِّي بِمَثَلِ هَذَا الرَّجُلِ ، لَمْ يَدْرَ أَنَّ اللَّهَ ، قَدْ يَدْفَعُ مُصِيبَةً عَظْمَى ، بِغَيْرِهَا أَخْفَ حَمَلًا ، وَأَلَيْنَ وَقَعًا ، وَأَنَّ فِي الْمَصَائِبِ ، مَا يَكُونُ تَطْهِيرًا لِلنَّفُوسِ ،

ومغفرة للذنوب ، ومحواً للآثام ، وتكفيراً للخطايا ، فقد روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا غَمٍّ ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » .

فواجب إذن أن نتلقى ابتلاء الله ، راضين صابرين مؤمنين بالقدر كله ، خيره وشره ، وبأن كل مقدور ، لا محالة واقع ، ولا ينفع حذر من قدر . قال تعالى :

« وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » . وقال جلَّ شأنه : « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا » . وقال الرسول الأمين ، فيما يرويه عن ربه : « مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي وَقَدَرِي ، فَلْيَطْلُبْ رَبًّا سِوَايَ » .

وبعد ، فماذا فعل الوليد ؟ وقد جاءه الرجل يطلب في أغلب الظن غوثه ، ولعله يكون قد أغاثه ، فيكون قد أرضى ربه ، وأرضى نبيه وأرضى دينه ، وأرضى بعد ذلك المروءة .

في فتح بيت المقدس

لما تكامل للمسلمين فتوح الشام ، وأقاموا على دمشق شهراً ، جمع قائدهم « أبو عبيدة » أمراء المسلمين واستشارهم في المسير إلى قيسارية^(١) أو إلى بيت المقدس فقال « معاذ بن جبل » : أيها الأمير ، اكتب إلى أمير المؤمنين « عمر » فحيث أمرك فامتثله . فقال له : أصبت الرأي « يا معاذ » . ثم كتب إلى أمير المؤمنين « عمر » يعلمه بذلك وأرسل الكتاب مع « عرفجة بن ناصح النخعي »^(٢) فسار حتى وصل إلى المدينة ، فسلم الكتاب إلى « عمر » فقرأه على المسلمين واستشارهم فقال على بن أبى طالب : (يا أمير المؤمنين ، مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس . فإذا فتح الله بيت المقدس صرف وجهه إلى قيسارية ، فإنها تفتح بعدها إن شاء الله . فدعا « عمر » بدواة وكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . من « عمر » إلى عامله بالشام « أبى عبيدة » أما بعد ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى على نبيه . وقد وصل إلى كتابك ، تستشيرنى إلى أى ناحية

(١) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام ، تعد من أعمال فلسطين .

(٢) النخعي : نسبة إلى نخع . وهى قبيلة باليمن .

توجه ؟ وقد أشار ابن عم رسول الله - ﷺ - بالسير إلى بيت المقدس
فإن الله يفتحها على يديك ، والسلام) .

فلما وصل الكتاب إلى « أبى عبيدة » قرأه على المسلمين ففرحوا بالسير
إلى بيت المقدس ، وتقدمه الجيش إليها وأقام المسلمون فى القتال عشرة أيام ،
وأهل بيت المقدس ، يظهرون الفرح وعدم الخوف . فلما كان اليوم الحادى
عشر أشرفت عليهم راية « أبى عبيدة » و « خالد » عن يمينه و « عبدالرحمن
ابن أبى بكر » عن يساره ، فضج الناس بالتهليل والتكبير ، ووقع الرعب فى
أهل بيت المقدس فاجتمعوا بقيامة . وهى البيعة^(١) المعظمة عندهم .

فلما وقفوا بين يدى البطرك قال^(٢) لهم : ما هذه الضجة التى أسمع ؟
قالوا : قد قدم أمير المؤمنين ببقية المسلمين .

فلما سمع ذلك تَرَبَّدَ^(٣) وجهه ، وقال : إنا وجدنا فى علمنا الذى
ورثناه ، أن من يفتح الأرض هو الرجل الأحمر ، صاحب نبهم « محمد » .
فإن كان قدم عليكم فلا سبيل إلى قتاله ، ولا بد أن أشرف عليه ، وأنظر إلى
صفته فإن كان هو أجبته إلى ما يريد ، وإن كان غيره فلا بأس عليكم .

(١) البيعة : متعبد النصارى ، وقيامه . كانت كنيسة للنصارى بدمشق ، ولهم فيها مقبرة
يسمونها القيامة ويرون أن المسيح قيامته فيها .

(٢) البطرك : مقدم النصارى .

(٣) ترَبَّد : تغير .

ثم وثب قائمًا والقسيسون والرهبان من حوله ، وقد رفعوا الصليبان على رأسه ، فصعدوا إلى السور ، إلى أن ورد « أبو عبيدة » ، فناداهم رجل من الروم : يا معشر المسلمين كفوا عن القتال حتى نسألكم . فأمسك المسلمون عنهم فناداهم بلسان عربى : اعلموا أن الرجل الذى يفتح بلدتنا هذه صفته عندنا . فإن كانت فى أميركم لم نقاتلكم ، بل نسلم إليكم ، وإن لم تكن هذه صفته فلا نسلم إليكم أبدًا .

فأعلم المسلمون « أبا عبيدة » بذلك ، فخرج « أبو عبيدة » إليهم إلى أن حاذاهم ، فنظر إليه البطرك مليًا . ثم قال : ليس هو الرجل ، فأبشروا وقاتلوا عن دينكم وحریمكم .

وكان نزول المسلمين على بيت المقدس فى فصل الشتاء والبرد ، فأقاموا أربعة أشهر فى أشد القتال .

فلما نظر أهل بيت المقدس إلى شدة الحصار ، ورأوا ما حل بهم من المسلمين ، وقفوا بين يدى البطرك ، وقالوا : قد عظم الأمر ، ونريد منك أن تشرف على القوم ، وتسأل : ما الذى يريدون ؟ فإن كان أمرا صعبا فتحنا الأبواب ، وخرجنا إليهم ، فإما أن نقتل عن آخرنا أو نهزمهم عنا .

فأجابهم البطرك إلى ذلك ، وصعد في السور ، واجتمع القسيسون
والرهبان حوله ، ونادى رجل : يا معشر الفرسان ، عمدة دين النصرانية قد
أقبل يخاطبكم ، فليدن منا أميركم .

فقام أبو عبيدة يمشى ، ومعه جماعة من أصحاب رسول الله ، فلما وقف
بإزائهم قال : ما الذى تريدون ؟ . قال البطرك : إنكم لو أقمتم علينا عشرين
سنة لم تصلوا إلى فتح بلدتنا ، وإنما يفتحها رجل ليس معكم . قال « أبو
عبيدة » : وما صفة من يفتح بلدكم ؟ قال : لا نخبركم بصفته . ولكن قرأنا
أن هذا البلد يفتحه صاحب لمحمد يعرف بالفاروق لا تأخذه في الله لومة لائم ،
ولسنا نرى صفته فيكم . فلما سمع « أبو عبيدة » كلام البطرك تبسم وقال :
فتحنا البلد ورب الكعبة . ثم أقبل على البطرك وقال : إن رأيت الرجل تعرفه
قال : نعم ، وكيف لا أعرفه ؟ .

قال « أبو عبيدة » : هو والله خليفتنا وصاحب نبينا ، قال : فإذا كان
الأمر على ما ذكرت فاحقن الدماء ، وابعث إلى صاحبك ، فإذا رأيناه وتبيننا
نعته فتحنا له البلد ، وأعطيناه الجزية .

فانصرف « أبو عبيدة » وأمر الناس بالكف عن القتال ، وكتب إلى
« عمر » يعلمه الخبر .

فلما وصل إليه الكتاب قرأه على المسلمين ، وقال : ما ترون - رحمكم الله - فيما كتب إلينا أمين^(١) الأمة ؟ فكان أول من تكلم « عثمان بن عفان » فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أذل الروم ، فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم علموا أنك بأمرهم مستخف فلا يثبتون إلا يسيرًا .

فلما سمع « عمر » ذلك من « عثمان » جزاه خيراً ، وقال : هل عند أحد منكم رأى غير هذا ؟ فقال . « على بن أبى طالب » : نعم عندي غير هذا الرأي ، وأنا أبديه إليك فقال له (عمر) : وما هو يا (أبا الحسن) ؟ قال : إن القوم قد سألوك ، وفي سؤاها ذل ، وهو على المسلمين فتح ، وقد أصابهم جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام ، وإن سرت إليهم فتح الله على يدك هذه المدينة ، وكان لك فى مسيرك الأجر العظيم ، ولست آمن منهم أنهم إذا يئسوا منك أن يأتهم المدد من طاغيهم فيحصل للمسلمين بذلك الضرر فالرأى أن تسير إليهم .

فقال (عمر) : لقد أحسن (عثمان) النظر فى المكيدة للعدو ، وأحسن (على) النظر للمسلمين ، جزاهما الله خيراً ، ولست آخذ إلا بمشورة على ، فما عرفناه إلا محمود المشورة ، ميمون الطلعة .

(١) هو أبو عبيدة .

ثم إن (عمر) أمر الناس أن يأخذوا الأهبة للمسير معه ، واستخلف على المدينة (على بن أبى طالب) ، وخرج على بعير له أحمر ، عليه غرارتان^(١) فى إحداهما سويق ، وفى الأخرى تمر ، وبين يديه قرية . وخلفه جفنة للزاد .

وسار إلى أن أقبل على بيت المقدس ، فتلقيه « أبو عبيدة » فلما رآه أناخ قلوصله^(٢) وأناخ عمر بعيره ، وترجلا . ومد أبو عبيدة يده وصافح عمر ، وأقبل المسلمون على عمر ، ثم ركبوا جميعا إلى أن نزلوا ، فصلى (عمر) بالمسلمين صلاة الفجر ، ثم خطبهم ، فلما فرغ من خطبته جلس (وأبو عبيدة) يتحدث بهما لقى من الروم إلى أن حضرت صلاة الظهر ، فأذن بلال فى ذلك اليوم ، فلما قال : الله أكبر . خشعت جوارحهم ، واقشعرت أبدانهم ، وحينما : قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . بكى الناس بكاءً شديداً عند ذكر الله وذكر رسوله ، فلما فرغ الأذان صلى (عمر) ، وجلس ، ثم أمرهم بالركوب .

وركب هو - وكانت عليه مرقعة الصوف - فقال المسلمون : يا أمير المؤمنين ، لو ركبت غير بعيرك هذا جواداً ولبست ثياباً لكان ذلك أعظم

(١) الفرارة : الجوالق .

(٢) القلوصل من الإبل : الشابة .

لهيبتك في قلوب أعدائك . وأقبلوا يسألونه ، ويتلطفون له إلى أن أجابهم إلى ذلك ونزع مرقعته ، ولبس ثياباً بيضاء ، وطرح على كتفيه منديلاً من الكتان ، دفعه إليه (أبو عبيدة) ، وقدم له برذونا^(١) أشهب من براذين الروم . فلما صار « عمر » فوقه جعل البرذون يهملج^(٢) به فلما نظر عمر إلى ذلك نزل مسرعاً ، وقال : أقبلوني أقال الله عثراتكم يوم القيامة ، لقد كاد أميركم يهلك مما داخله من الكبر .

ثم إنه نزع ثيابه وعاد إلى لبس مرقعته ، وركوب بعيره ، فعلت ضجة المسلمين ، فقال البطرك لقومه : انظروا ما شأن العرب ؟ فأشرف رجل منهم فقال : يا معاشر العرب ما شأنكم ؟ قالوا : إن « عمر بن الخطاب » قد قدم إلينا . فرجع هذا وأعلم البطرك ، فأطرق ولم يتكلم ، فلما كان الغد صلى « عمر » بالمسلمين ، ثم قال (لأبي عبيدة) : تقدم إلى القوم وأعلمهم أني قد أتيت .

فخرج « أبو عبيدة » وصاح بهم : إن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » قد أتى ، فما تصنعون ؟ قال البطرك : قل له يدنو مني ، فإننا نعرفه بصفاته ونعته ، وأفردوه من بينكم حتى نراه .

(١) البرذون : الدابة ، والبراذين من الخيل ما كان من غير نتاج العرب .

(٢) الهملجة : حسن سير الدابة في سرعة .

فرجع «أبو عبيدة» إلى «عمر»، فأخبره بما قال، فهمم «عمر» بالقيام، فقال له بعض أصحابه: يخشى عليك من الانفراد بلا عدة. فقال «عمر»: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ثم لبس مرقعته وركب بعيره «وأبو عبيدة» سائر بين يديه إلى أن أتى بازاء البطرك قرياً من الحصن.

فقال «أبو عبيدة»: هذا أمير المؤمنين. فمد البطرك عنقه ونظر إليه فزعى، وقال: هذا والله الذى صفته فى كتبنا. ثم قال: يا أهل بيت المقدس، انزلوا إليه، وخذوا منه الأمان والذمة، فهذا والله صاحب (محمد). فنزلوا مسرعين، وكانت أنفسهم قد ضاقت من شدة الحصار، وفتحوا الباب، وخرجوا إلى «عمر» يسألونه العهد. فلما رآهم «عمر» على تلك الحالة خر لله ساجداً على قتب^(١) بعيره، ثم أقبل عليهم، وقال ارجعوا إلى بلدكم ولكم العهد.

رجع القوم إلى البلد، ولم يغلقوا الأبواب، ورجع «عمر».

فلما كان الغد دخل «عمر» إليها، وخط بها محراباً وأقر أهلها على عهدهم، وأداء الجزية.

(١) القتب: البردعة على قدر سنام البعير.

بل تأتينا أنت

اعْتَزَمَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ ، أمير البصرة في أوائل حكم بنى العباس ، أن يميّزَ أَحَدَ ابنيه بوصية يوصي بها في ماله ، وكان عن ولده هذا أرضى ، وقبل أن يفعل ، بعث بكتاب منه إلى حماد بن سلمة ، يستفدُ منه إليه بدار الإمارة يستفتيه .

وَقَبْلَ أَنْ نَأْتِيَ عَلَى مَا كَانَ بَيْنَهُمَا ، نَذْكُرُ تَعْرِيفًا مُوجِزًا عَنْ الرَّجُلَيْنِ فنقول : كَانَ حَمَّادُ فَكِيهِ الْبَصْرَةِ وَعَالِمُهَا ، وَزَاهِدُهَا وَنَاسِكُهَا ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ جَلِيلُ الْقَدْرِ ، عَظِيمُ الصَّلَاحِ ، وَكَانَ يَقْضِي أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ فِي بَيْتِهِ ، فَإِذَا خَرَجَ لَصَلَاةٍ أَوْ حَاجَةٍ ، تَبَعْتَهُ الْعَيُونُ ، وَقَبْلَتَهُ الْقُلُوبُ ، وَكَانَتْ لَهُ هَيْبَةٌ ، وَكَانَ فِيهِ وَقَارٌ ، وَكَانَ أَبْيَا مَتَقَشْفًا قَانِعًا بِالْيَسِيرِ وَقَدْ بَيَّيْتُ جَائِعًا ، وَهُوَ عَنْ ذَلِكَ رَاضٍ . مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ ، سَنَةَ سَبْعٍ وَسِتِينَ بَعْدَ الْمِائَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ ، فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَهْدِيِّ ، ثَالِثِ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ .

وَأَمَّا عَنْ وَالِي الْبَصْرَةِ ، مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ فَكَانَ مِنْ رَجَالَاتِ قُرَيْشٍ وَشَجْعَانِهِمْ ، وَلِحَسَنِ بِلَائِهِ جَمَعَ لَهُ الْخُلَيفَةُ الْمَنْصُورُ ، بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ ، وَزَوَّجَهُ الْمَهْدِيُّ ابْنَتَهُ الْعَبَّاسَةَ ، وَكَانَ ذَا ثَرَاءٍ وَاسِعٍ ، بَلَغَ دَخْلُهُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

وركب محمد بن سليمان يوماً بالبصرة ، وسوّار القاضي يسايره في جنازة ابن عم له ، فاعترضه مجنون يعرف برأس النعجة ، وخاطبه بما أغضبه ، فبادر إليه غلماناه ، فكفّهم عنه ، وأمر له بمائة درهم ، فلما انصرف محمد وسوّار اعترضهما رأس النعجة وقال مادحاً : لقد أكرم الله منصبك ، وشرف أبوتك ، وحسّن وجهك وعظّم قدرك ، وأرجو أن يكون ذلك لخير يريد الله أن يجمع لك فيه خير الدارين ، فدنا منه سوّار وقال له : يا خبيث ، ما كان هذا قولك في البداءة ! فقال له : سألتك بحق الله وبحق الأمير إلا ما أخبرتنى ، في أى سورة هذه الآية : (ومنهم من يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) ؟ ^(١) قال : في سورة براءة . قال : صدقت ، فبريء الله ورسوله منك . فضحك محمد بن سليمان ، حتى كاد يسقط عن دابته . وكانت وفاته سنة ثلاث وسبعين ومائة للهجرة .

ويروى مقاتل بن سليمان ، ما كان بين الأمير والفقير فيقول : دَخَلْتُ على حماد بن سلمة ، فإذا ليس في البيت إلا حصيرة ، ومطهرة يتوضأ منها ، وجراب فيه علمه ، وهو جالس ، وفي يده مصحف يقرأ فيه ، فبينما أنا جالس

(١) سورة التوبة الآية ٨٥ .

دَقَّ الباب ، فقال : يا حبيبة ، اخرجي فانظري من هذا ؟ فخرجت وعادت فقالت : رسول محمد بن سليمان إلى حماد بن سلمة ، فأذن له فدخل ، ودفع إليه بكتاب من محمد بن سليمان ، قال فيه : أَمَّا بَعْدُ . فَصَبِّحْكَ اللَّهُ بِمَا صَبَحَ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ ، وَأَهْلَ طَاعَتِهِ ، وَقَعْتَ مَسْأَلَةً ، فَأَتْنَا نَسْأَلُكَ عَنْهَا ، وَالسَّلَامُ .

فقال : يا حبيبة ، هَلُمَّ الدَّوَاةَ ، ثُمَّ قَالَ لِي : أَقْلِبِ الْكِتَابَ وَاكْتُبْ : أَمَّا بَعْدُ ، فَأَنْتَ صَبِّحْتَ اللَّهَ بِمَا صَبَحَ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ . إِنَّا أَدْرَكْنَا الْعُلَمَاءَ وَهُمْ لَا يَأْتُونَ أَحَدًا ، فَإِنْ وَقَعَتْ لَكَ مَسْأَلَةٌ ، فَأَتْنَا وَسَلْ مَا بَدَا لَكَ . وَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَأْتِنِي بِخَيْلِكَ ، وَرَجْلِكَ ، فَلَا أَنْصَحْ لَكَ ، وَإِنَّمَا أَنْصَحْ لِنَفْسِي !

وَالسَّلَامُ .

فبينما أنا جالس ، إذ دق الباب ، فقال : يا حبيبة اخرجي فانظري من هذا ؟ فخرجت وعادت فقالت : محمد بن سليمان ، قال : قولي له : يدخل وحده . فدخل وجلس بين يديه ، ثم ابتداء فقال : مالي إذا نظرتُ إليك ، امتلأت منك رعباً ! . قال حماد : حدثني ثابت البناني قال : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إِنْ الْعَالَمَ إِذَا أَرَادَ بَعْلَمَهُ وَجْهَ اللَّهِ ، هَابَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَإِذَا أَرَادَ بَعْلَمَهُ أَنْ يَكُنْزَ الْكُنُوزِ ، هَابَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » ! فقال : ما تقول - رحمك الله - في رجل له ابنان ،

وهو عن أحدهما أرضى ، فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله ؟ قال :
لا تفعل - رحمك الله - فأني سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إذا أراد الله أن يعذب عبداً من عباده
في حياته ، وفقه لوصية جائزة » قال : فعرض عليه مالا ، فلم يقبل حماد !! .
هذان موقفان كريمان ، مدلولهما تكريم العلم ، وكلاهما يستحق صاحبه
الإعجاب والتقدير .

في أمثال العرب (*)

(١)

قَطَعْتُ جَهِيْزَةً قَوْلَ كُلِّ خَطِيْبٍ

أصل هذا المثل أن قوماً اجتمعوا يخطبون في صلح بين حَيَيْن قتل أحدهما للآخر قتيلاً ، ويسألون أن يَرْضَى أهل القتل بالدية ، فبينما هم في ذلك إذ جاءت جارية يقال لها : جهيزة ، فقالت : إن القاتل قد ظفر به بعض أولياء المقتول فَقَتَّلُوهُ ، فقال قائل منهم عند ذلك :

« قَطَعْتُ جَهِيْزَةً قَوْلَ كُلِّ خَطِيْبٍ » .

ويُضْرَب هذا المثل لمن يأتي بالقول الفضل عند اختلاف الرأي .

(٢)

كَيْفَ أَعَاوِدُكَ وَهَذَا أَثَرُ فَأْسِكَ ؟

أصل هذا المثل قصة رمزية شاعت بين العرب ، وهى :
أن أخوين أُجْدِبْتَ أرضهما ، وكان بالقرب منهما واد خصيب فيه حَيَّة تحميه ، فهبط أحدهما الوادى ليرعى فيه ، فنهشته الحية .

(*) المثل : قول موجز على الألسنة وارد في حادثة ، أو مستمد من ملاحظة في البيئة ، أو مرتبط بأشخاص اشتهروا بصفات محبوبة ، أو مكروهة ويضرب المثل في موقف يشبه الحالة التى ورد بها مع المحافظة على لفظ المثل وضبطه ويكون في هذه الحالة استعارة تمثيلية .

وَأَرَادَ أَخُوهُ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنَ الْحَيَّةِ ، فَتَوَسَّلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَهَا ، عَلَى أَنْ تَدَعَهُ
يَنْعَمُ بِخَيْرِ الْوَادِي الَّذِي تَعِيشُ فِيهِ ، وَتَعَاقِدَا عَلَى ذَلِكَ .

وَمَرَّتْ بِهِ ذِكْرَى اعْتِدَائِهَا عَلَى أَخِيهِ فَهَاجَتْ نَفْسُهُ ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهَا بِفَأْسِهِ
لِيَقْتُلَهَا ، وَلَكِنَّ الْفَأْسَ أَخْطَأَتْهَا ، وَتَرَكْتَ أَثْرًا فِي جُحْرِهَا وَأَرَادَتْ الْحَيَّةُ أَنْ
تَنْتَقِمَ مِنْهُ ، فَأَخَذَ يَرْجُوهَا أَنْ تَتْرَكَهُ عَلَى أَنْ يَعُودَ الْعَهْدَ بَيْنَهُمَا كَمَا كَانَ ، فَقَالَتْ
لَهُ :

كَيْفَ أَعَاوِدُكَ وَهَذَا أَثْرُ فَأْسِكَ ؟

وَيَضْرِبُ لِمَنْ يَحْذَرُ شَرَّ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ .

(٣)

إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهَنْ

أَصْلُ هَذَا الْمَثَلِ أَنَّ هَذَا بَنَ هُبَيْرَةَ التَّغْلِبِيَّ كَانَ قَدْ أَغَارَ عَلَى بَنِي ضَبَّةَ ،
فَغَنِمَ مِنْهُمْ ، وَأَقْبَلَ بِالْغَنَائِمِ عَلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ : « اقْسِمْهَا بَيْنَنَا » ،
فَخَشِيَ أَنْ يَتَشَاغَلَ بِالْقِسْمَةِ ، فَيَدْرِكُهُ مِنْ أَغَارِ عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ أَصْحَابُهُ الْخُؤَا
عَلَيْهِ ، فَقَالَ هَذَا الْمَثَلُ :

« إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهَنْ » .

وَمَعْنَاهُ إِذَا تَشَدَّدَ صَاحِبُكَ فَاحْرَصْ عَلَى عِلَاقَتِكَ بِهِ بِاللَّيْنِ مِنْ جَانِبِكَ ،
وَيُضْرَبُ هَذَا الْمَثَلُ فِي التَّسَامُحِ وَلَيْنِ الْجَانِبِ .

(٤)

مَا يَوْمَ حَلِيمَةَ بِسَرٍّ

سَبَقَ هَذَا الْمَثَلُ فِي يَوْمِ انْتَصَرُ فِيهِ الْغَسَّاسَةُ عَلَى الْمَنَازِرَةِ .
وَحَلِيمَةُ هَذِهِ ابْنَةُ الْحَارِثِ الْغَسَّانِي مِنْ أُمَرَاءِ الْغَسَّاسَةِ ، لَقِيَتْ جَنْدَ أَبِيهَا
عِنْدَ عَوْدَتِهِمْ مَنْتَصِرِينَ ، فَضَمَخْتَهُمْ بِالطِّيبِ ، وَذَاعَ هَذَا الْيَوْمُ ، وَذَاعَ مَوْقِفُ
حَلِيمَةَ فِيهِ ، وَقِيلَ : « مَا يَوْمَ حَلِيمَةَ بِسَرٍّ » .

وَيُضْرَبُ هَذَا الْمَثَلُ فِي الْأَمْرِ الَّذِي اشْتَهَرَ ، وَأَصْبَحَ مَعْرُوفًا .
وَفِيمَا يَلِي طَائِفَةً أُخْرَى مِنَ الْأَمْثَالِ الْجَاهِلِيَّةِ .

١ - سَبَقَ السَّيْفَ الْعَدْلَ^(١) (وَيُضْرَبُ لِمَنْ فَاتَتْهُ الْفُرْصَةُ الَّتِي كَانَ يَرْجُو
تَحْقِيقَهَا) .

٢ - إِنْ الْبُغَاثُ^(٢) بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ (وَيُضْرَبُ لِلضَّعِيفِ يَصِيرُ قَوِيًّا ،
وَالذَّلِيلِ يَعْزُ بَعْدَ الْهَوَانِ) .

(١) الْعَدْلُ : الْمَلَامَةُ .

(٢) الْبُغَاثُ : ضِعَافُ الطَّيْرِ وَصَفَارُهَا ، وَيَسْتَنْسِرُ ، يَصِيرُ نَسْرًا .

- ٣ - بلغ السَّيْلُ الزُّبَى^(١) (وَيُضْرَبُ لِلأَمْرِ الذِي يَجَاوِزُ الحَدَ) .
- ٤ - يَدَاكَ أَوْ كَتَا^(٢) ، وَفُوكَ نَفَخَ (وَيُضْرَبُ لِمَنْ يَقَعُ فِي سَوْءِ عَمَلِهِ) .
- ٥ - قَبَلَ الرَّمَاءِ^(٣) تَمَلُّ الْكِنَائِنَ (وَيُضْرَبُ لِلإِسْتِعْدَادِ لِلأَمْرِ قَبْلَ الإِقْدَامِ عَلَيْهِ) .
- ٦ - مَكْرَةً أَخَاكَ لَا بَطْلَ (وَيُضْرَبُ لِمَنْ يُحْمَلُ عَلَى مَا يَكْرَهُ) .
- ٧ - إِنْ أَعْوَانَ^(٤) لَا تُعَلِّمِ الخَمْرَةَ (وَيُضْرَبُ لِلخَبِيرِ بِالأَمْرِ - العَارِفِ بِهِ) .
- ٨ - إِنْ غَدَا لِنَاظِرِهِ قَرِيبٌ (وَيُضْرَبُ لِلتَّرِيثِ وَالإِنْتَظَارِ وَقَرَبِ المَأْمُولِ) .
- ٩ - عِنْدَ جُهَيْنَةَ الخَبَرِ اليَقِينُ (وَيُضْرَبُ فِي مَعْرِفَةِ الشَّيْءِ مِنْ مَصْدَرِهِ الحَقِيقِيِّ) .

(١) الزبى : جمع زبية وهى حفرة تحفر للأسد فى مكان عال إذا أرادوا صيده لا يبلغها السيل عادة ، فإن بلغها كان قوياً جارفاً .

(٢) أوكى : ربط ، يقال ، فى أصل هذا المثل : أن رجلاً نفخ زقاً ، وركبه فى النهر فانغل الرباط ، وفرغ الزق من الهواء ، وغرق الرجل ، فاستغاث بأعرأى فقال له هذا المثل .

(٣) الرماء : الرمى . الكنائن . جمع كنانة ، وهى وعاء السهام .

(٤) العوان : التى كان لها زوج . الخمرة . لبس الخمار وهو غطاء الرأس والوجه .

١٠ - أن ترد الماء بماء أكيس^(١) ويضرب في عدم التفريط مما في اليد انتظاراً لغيره .

١١ - إن الحديد بالحديد يفلح^(٢) ويضرب في مواجهة القوة بالقوة .

١٢ - إن أخاك من وأساك « ويضرب للصديق المخلص » .

١٣ - ومن أمثالهم التي استمدوها من ملاحظتهم لما في البيئة من مظاهر الطبيعة : (أَظْمَأْمِنْ رَمْلٍ) « أَهْدَى مِنْ قِطَاةٍ^(٣) » « أَعْقُدْ مِنْ ذَنْبِ الضَّبِّ » .

١٤ - ومن الأمثال التي ارتبطت بأشخاص اشتهروا في صفات أحبها العرب أو كرهوها ، قولهم : « أَجُودُ مِنْ حَاتِمٍ » - « أَوْفَى مِنْ الْحَارِثِ بْنِ عِبَادٍ » - « أَبْلَغُ مِنْ قُسٍّ » « أَبْجَلُ مِنْ مَادِرٍ » « أَخْلَفُ مِنْ عَرْقُوبٍ » .

قَالَ الْمُبَرِّدُ^(٤) مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ : « لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ » يَقُولُ : إِذَا ذَهَبَ مِنْ مَالِكَ شَيْءٌ فَحَذَّرَكَ أَنْ يَحُلَّ بِكَ مِثْلُهُ فَتَأْذِيهِ إِيَّاكَ عِوَضٌ

(١) أكيس : أحسن وأفضل

(٢) يفلح : يشق ويقطع .

(٣) القِطَاة : نوع من الحمام البرى .

(٤) المبرد هو أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي : ولد في البصرة وانتقل إلى بغداد كان قوى الذاكرة سريع الحفظ يعد من شيوخ النحو والأدب له جملة مصنفات منها كتاب الكامل الذي يمزج الأدب باللغة والتاريخ ويعد من أمهات الكتب الأدبية . وقد مات المبرد سنة ٢٨٦ هـ .

مِنْ ذَهَابِهِ . وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : « رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا » وَتَأْوِيلُهُ أَنَّ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ فَلَا يُحْكِمُهُ لِلأَسْتِعْجَالِ بِهِ ، فَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَعُودَ فَيُنْقِضُهُ ، ثُمَّ يَسْتَأْنَفُ . وَالرَّيْثُ : الإِبْطَاءُ ، وَرِاثَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ : إِذَا تَأَخَّرَ . وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ : « عَشَّ وَلَا تَعْتَزَّ » وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ يَمُرَّ صَاحِبُ الْإِبِلِ بِالْأَرْضِ الْمُكَلَّئَةِ (١) فَيَقُولُ : أَدْعُ أَنْ أَعْشِيَ إِبِلِي مِنْهَا حَتَّى أَرُدَّ عَلَى أُخْرَى ، وَلَا يَذَرِي مَا الَّذِي يَرُدُّ عَلَيْهِ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : « أَنْ تَرَدَّ الْمَاءُ بِمَاءٍ (٢) أَكَيْسُ » وَتَأْوِيلُهُ أَنَّ يَمُرَّ الرَّجُلُ بِالْمَاءِ فَلَا يَحْمِلُ مِنْهُ اتِّكَالًا عَلَى مَاءٍ آخَرَ يَصِيرُ إِلَيْهِ ، فَيَقَالُ أَنَّ تَحْمِلَ مَعَكَ مَاءً أَحْزَمَ لَكَ ، فَإِنْ أَصَبْتَ مَاءً آخَرَ لَمْ يَضُرَّكَ ، فَإِنْ لَمْ تَحْمِلْ فَخَفَّفْتَ مِنَ الْمَاءِ عَطَبْتَ (٣) وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : « قَدْ أَحْزَمْتُ لَوْ أَغْزِمُ » يَقُولُ : أَغْرِفُ وَجْهَ الْحَزْمِ فَإِنْ عَزَمْتُ فَأَمْضَيْتُ الرَّأْيَ فَأَنَا حَازِمٌ ، وَإِنْ تَرَكْتُ الصَّوَابَ وَأَنَا أَرَاهُ وَضِيعْتُ الْعَزْمَ لَمْ يَنْفَعْنِي حَزْمِي . وَمِثْلُهُ قَوْلُ النَّابِغَةِ الْجَعْدِي :

أَبَى لِي الْبَلَاءُ وَأَنَّى أَمْرُ

إِذَا مَا تَبَيَّنْتُ لَمْ أَرْتَبْ

(١) أَكَلَاتِ الْأَرْضَ : مَلَأَهَا الْكَلَأَ : وَهُوَ الْعُشْبُ رَطْبًا وَيَابِسًا .

(٢) بِمَاءٍ : أَيْ مَعَ مَاءِ الْكِيَاةِ : الْفَطَانَةُ رَجُلٌ كَيْسٌ فَطِنٌ ، وَالْأَكَيْسُ اسْمُ تَفْضِيلٍ مِنْهُ .

(٣) عَطَبْتُ : هَلَكْتُ .

وقال أعرابى يمدح سوارَ بن عبد الله :

وأوقف^(١) عند الأمر مالم يضح له

وأمضى إذا ما شك من كان ماضيا

فالذى يُحمد إمضاء ما تبين رُشدُه ، فأمّا الإقدام على الغرر^(٢) ،

وركوب الأمر على الخطر ، فليس بمحمود عند ذوى الألباب .

وهناك لون آخر من النثر شبيه بالأمثال : هو الحكم - مثل :

« رَبَّ عَجَلَة تهبُ ريثًا » .

« مصارعُ الرجال تحت بُروق الطمع » .

« آفة الرأى الهوى » .

« من شدّد نَفَر ، ومن أرخى تألف » .

« خيرُ الموت تحت ظلال السيوف »

« رضا الناس غاية لا تدرك » .

« حسبك من شر سماعه » .

(١) أوقف اسم تفضيل من الوقوف ، ووضح الأمر يضح : انكشف وبان . مضى على

الأمر : أتمه . يقول : إنه أشدّ تحرجا من المضاء فى الأمر إذا ما لم يتبين له وجه الصواب فيه ، على أن له من الفطنة والألمعية ما يبعثه على المضاء راشدا فى حين يمضى غيره مخطئا .

(٢) الغرر بفتح الغين والراء : التعريض للهلاك .

والحكمة - كما ترى - قول موجز ، صائبُ الفكرة دَقِيقُ التعبير ،
يحمل توجيهًا إلى جوانب السلوك ويتحرى فيه قائله غالبًا - الخير والسداد .
وهي تختلف عن المثل في أنها تصدر - أكثر ما تصدر عن طائفة خاصة
من الناس ، لها خبرتها وتجاربها وثقافتها ، كما أنها ترتبط في أساسها بمحادثة
أو قصة .

مائدة الرسول في رمضان

يقرر القرآن الكريم مبدءاً الأسوة الحسنة والقُدوة الطيبة ، لخاتم الأنبياء محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فيقول الله تبارك وتعالى :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) .

فكل لحظة من لحظات الرسول الكريم ، في جميع حياته التي عاشها على هذه الأرض : تعتبر أسوة حسنة ومثالاً بالغ الكمال في العفة ، والطهر ، وسلامة الفطرة واستقامة المنهج ، ذلك لأن الله - تبارك وتعالى - صنعه على عينه ، وأعدده لحمل الرسالة الخاتمة التي تعيش عليها البشرية على امتداد تاريخها الطويل (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) .

ولم يظفر إنسان في هذا الوجود ، قائداً أو رائداً أو مصلحاً ، بما ظفر به محمد - صلى الله عليه وسلم - من حفاوة بحياته ، واستيعاب لتاريخه ، وتفصيل عميم لسيرته ، ووضوح كامل ، وتسجيل دقيق أمين ، لحركاته وسكناته ، فكل كلمة قالها ، وكل خطوة مشاها ، وكل إشارة أبدأها ، وكل بسملة افتر عنها ثغره ، وكل وقائعه في حياته ، المشية ، والضجعة ، والجلسة ، واللقمة ، حتى ما كان منها من خاصة أمره ، وأسرار

بيته وأهله ، كلّ ذلك وعاه التاريخ ، وكتبه بحروف كبيرة مضيئة ، ثم تحوّل كل ذلك إلى نور تألّق في أرجاء الدنيا ، وإلى عطر طابت به أنفاس الحياة ، وإلى أسوة حسنة تجد فيها الإنسانية نورها وهداها .

ولنتقرب الآن من مائدة رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - وهو يتناول طعامه في رمضان ، إفطاره وسحوره ، وليكن لنا شرف الجلوس معه ، على هذه المائدة الكريمة السمحة ، فماذا نرى ؟ وماذا نسمع ؟

كان - صلى الله عليه وسلّم - يفطر قبل أن يصلي ، وكان فطره على رطبات إن وجدها ، فإن لم يجدها فعلى تمرات ، فإن لم يجد فعلى حسوات من ماء ، يقول ابن القيم في كتابه - زاد المعاد - : « وكان النبي - صلوات الله وسلامه عليه - يعجل الفطر ويحث عليه ، ويحث على السحور ، ويؤخره ، ويرغب في تأخيره ، وكان يحض على الفطر بالتمر ، فإن لم يجد فعلى الماء ، وهذا من كمال شففته على أمته ، ونصحهم ، فإن إعطاء الطبيعة الشئ الحلو مع خلو المعدة ، أدعى إلى قبوله ، وانتفاع القوى به ، ولا سيما القوة الباصرة ، فإنها تقوى به ، وحلاوة المدينة التمر ، ومرباهم عليه ، وهو عندهم قوت وأدم ، ورطبه فاكهة ، وأمّا الماء فإن الكبد يحصل لها بالصوم نوع يسّس فإذا أرطبت بالماء كمل انتفاعها بالغذاء بعده ، ولهذا كان الأولى بالظمان

الجائع ، أن يبدأ قبل الأكل بشرب قليل من الماء ثم يأكل بعده ، هذا مع ما في التمر والماء من الخاصية التي لها تأثير في صلاح القلب ، لا يعلمها إلا أطباء القلوب » .

وفي السنة المطهرة أحاديث صحيحة تدل على هذا ، فمن سليمان بن عامر - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :
« إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة ، فمن لم يجد فليفطر على ماء فإنه طهور » .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : « كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يفطر على رطبات قبل أن يصلى ، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات ، فإن لم تكن حسا حسوات من ماء » .

وعن أبى عطية - رضى الله عنه - قال : « دخلت أنا ومسروق على عائشة فقلت : يا أم المؤمنين : رجلان من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - كلاهما لا يألو عن الخير ، أحدهما يعجل الإفطار والصلاة ، والآخر يؤخر الإفطار والصلاة ، قالت : أيهما الذى يعجل الإفطار والصلاة ؟ قلنا عبد الله بن مسعود ، قالت : كذلك كان يصنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والآخر أبو موسى » .

ومن سنن الرسول الكريم في رمضان ، السحور ، وهو تناول الطعام والشراب قبل الفجر ، ليستعين الصائم به على صوم النهار ، ويجد عنده من القوة ما يستطيع به تحمل أعباء الصوم ، والجمع بينه وبين العمل ، حتى لا يتعطل الإنتاج ، ويتوقف السعي في شئون الحياة ، ومن هنا سمى الرسول الكريم طعام السحور بركة ، وبين أنه من خصائص الأمة المحمدية .

فعن أنس - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « تسحروا فإن في السحور بركة » .

وفي رواية : « تسحروا ولو بشربة من ماء » ، وبركة السحور أن فيه قوة على الصيام ، وأجرًا عظيمًا ، لأن الصائم تناوله بنية العبادة كما قال - صلى الله عليه وسلم - : « استعينوا بطعام السحر على صيام النهار ، وبالْقِيلُولَةِ على قيام الليل » .

والسحور من خصائص هذه الأمة ، فإن أهل الكتاب قبلنا كانوا لا يتسحرون ، لحزمة الأكل عليهم إذا ناموا ، فعن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب ، أكلة السحر » .

وكان سحور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريباً من الفجر فكان يفرغ منه وقد بقي على الفجر نحو عشرين دقيقة ! .

فعن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - قال : « تسحرنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم قام إلى الصلاة ، قلت : كم كان بين الأذان والسحور ؟ قال : قدر خمسين آية) .

وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول عند فطره : « ذَهَبَ الظَّمْأُ ، وابْتَلَّتْ العُرُوقُ ، وَثَبَّتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ » وكان - صلى الله عليه وسلم - إذا أفطر قال : (اللَّهُمَّ لَكَ صُمتٌ وَعَلَى رِزْقِكَ أَفْطَرْتُ) . رواه أبو داود والطبراني ولفظه « بِسْمِ اللهِ : اللَّهُمَّ لَكَ صُمتٌ وَعَلَى رِزْقِكَ أَفْطَرْتُ » .

وقد وضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للمائدة آداباً عامّة ، كلها تنم عن ذوق رفيع ، وأدب عال ، وتتصل بالإيمان بالله اتصالاً وثيقاً ، وبذلك يصبح المؤمن موصولاً بالله فى كل شأن من شئونه ، وفى جميع أوقاته وأحواله ...

فكان - صلوات الله وسلامه عليه - لا يعيب طعاماً قط ، إن اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه وسكت ، وربما قال : أجدنى أعافه ، وكان لا يجمع على مائدته ألواناً من الطعام ، فما جمع بين طعامين قط ، ويكتفى بالقدر القليل ، ويأكل الطعام الخشن ، تقول عائشة - رضى الله عنها - : « ما شبع

آل محمد - ﷺ - من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض ؛ وقد سأل أهل بيته يوماً : هل عندكم من آدم ؟ فقالوا : ما عندنا إلا خلّ ، فجعل يأكل منه وهو يقول : « نَعَمْ الإِدام الخَلّ » وكان يغسل يديه قبل الطعام وبعده ، وهو القائل - ﷺ - : « بركةُ الطعام الوضوءُ قبله ، والوضوءُ بعده » والمراد بالوضوءِ المعنى اللُّغوي أى غسل اليدين ، لا المعنى الشرعى وهو الوضوءُ الكامل ، وكان إذا وضع يده فى الطعام قال : بِسْمِ اللَّهِ ، ويأمر الآكل بالتَّسمية ويقول : (إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى ، فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى فى أوله ، فليقل : بِسْمِ اللَّهِ أوله وآخره » وتارك التسمية يشاركه الشيطان فى طعامه وشرابه ، وإذا كان الآكلون جماعة فسمّى أحدهم ، يقول الشافعى : تجزىء التَّسمية من الواحد عن الباقي ، وجعله أصحابه كردّ السَّلام ، وتَشْمِيثُ العاطس ، وقال بعض العلماء : لا ترتفع مشاركة الشيطان ، إلا بتسمية كل آكل .

وكان الرّسول الكريم يدعو لمن قرب إليه الطعام ، وكان إذا دعى إلى طعام وتبعه أحد أعلم به ربّ المنزل وقال :

« إِنَّ هَذَا اتَّبَعْنَا ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذِنَ لَهُ ، وَإِنْ شِئْتَ رَجِعْ ، قَالَ : بَلْ أْذِنْ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . »

وكان يتحدث على طعامه ويعلم الجالسين معه على المائدة آداب الطعام ،
فعن ، عمر بن أبى سلمة - رضى الله عنهما - قال : « كنتُ غلاماً فى حِجر
رسول الله - ﷺ - وكانت يدي تطيش فى الصفحة - أى تتناول الطعام
من نواحيها - فقال لى رسول الله - ﷺ - : « يا غلام ، سمّ الله - تعالى -
وكلْ بيمينك ، وكلْ مما يليك » .

وكان يكرّر على أضيافه عرض الأكل مراراً كما يفعله أهل الكرم ، وهو
فى هذا أجود الناس ، فقد قال مرّة لأبى هريرة وهو فى ضيافته مع أهل الصفة
على قدح من لبن : « اشرب » وما زال يقول له : « اشرب » حتى قال أبو هريرة :
والذى بعثك بالحق نبياً لا أجِدُ له مسلکاً . وكان إذا أكل عند قوم ، لم يخرج
حتى يدعو لهم ، وقد دعا فى منزل عبد الله بن بسر فقال : « اللَّهُمَّ بارِكْ
لهم فيما رَزَقْتهم ، واغفرْ لهم ، وارْحَمهم » . ودعا فى منزل سعد بن عبادة
فقال : « أَفْطِرْ عندكم الصَّائِمون ، وأَكُلْ طعامكم الأبرار ، وصَلِّتْ عليكم
الملائكة » . وكان يأكل بيمينه ، ويشرب بيمينه ، وينهى عن مخالفة ذلك
ويقول : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلْ بِشِمَالِهِ ، ويشرب بِشِمَالِهِ » .

كان إذا فرغ من طعامه قال : « الحمدُ لله الذى أَطْعَمَنَا ، وَسَقَانَا ،
وجَعَلَنَا مسلمين » ، وإذا رفعت المائدة من بين يديه قال : « الحمدُ لله حمداً
كثيراً طيباً مباركاً فيه » .

وبعد : ففي هذه اللحظات المترعة بالخير ، التي عشناها مع رسولنا الكريم على مائدته المباركة في إفطاره وسحوره ، وعلى موائده في سائر أيامه ، في ساحة بيته ، وحين يدعى فيقبل دعوة أصحابه ، نلمح الأسوة الكريمة ، والمثل الطيب ، وقد أمر المؤمنون أن يقتدوا بنبيهم الكريم في سنته ، وأن يأخذوا عنه ما آتاهم بعزم وقوة ، ففي ذلك الخير ، والفوز والعزة ، والنصر (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) .

ويقول - عليه الصلاة والسلام - : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » .

الأعياد والمواسم الإسلامية

كل يوم يُحتفل فيه بذكرى كريمة عظيمة يُسمى عيداً ، إما لأنه يعود فيثير الشعور بالابتهاج والسرور ، أو لأنه تكثر فيه العوائد والفوائد .

وقيل في تعليل تسمية الأوقات التي تتميز بالخير عن غيرها مواسم : إنها ذات سمات خاصة بها ، وفيها من البر والخير ما يدل عليها أو يُشير إليها ، فالموسم هو الوقت الذي يظهر فيه الخير ، أو يعرف بأنه خير ، فيحتفل الناس له ، ويهتمون به ، ويروون فيه فرصة يحرصون على اغتنامها والانتفاع بها .

وقد فضّل الله بعض الأيام ، والليالي ، والأشهر على بعض ، وجعل بعضها أعياداً ، وبعضها مواسم ، يتجدّد فيها الشعور بالأمل والجدل ، وتعظم فيها الرغبة في الثواب ، والإحسان في العمل، فتوج صوم رمضان بعيد الفطر ، وحج بيته الحرام بعيد الأضحى ، وأيام الأسبوع بيوم الجمعة ، وجعل هذه الأيام أعياداً إسلامية ، اليوم الأول من شهر شوال ، واليوم العاشر من شهر ذي الحجة ، ويوم الجمعة من كل أسبوع فقد اعتبره الشارع من الأعياد التي ينبغي أن يحياها المؤمن بما شاء من ألوان العبادة ، كالذكر ، وقراءة القرآن ، والصلاة على النبي ، والدعاء ، والاغتسال ، والسواك والطيب ، وإزالة الشعر ، وتقليم الظفر ، ولبس أحسن الثياب ، والتبكير إلى المساجد ، فقد

قال - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ هَذَا الْيَوْمَ عِيدٌ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ ،
فَمَنْ جَاءَ إِلَى جُمُعَةٍ فَلْيَغْتَسِلْ ، وَإِنْ كَانَ طَيِّبٌ فَلْيَمْسَسْ مِنْهُ ، وَعَلَيْكُمْ
بِالسَّوَاكِ » .

أما المواسم الإسلامية ، فقد ذكر منها القرآن الأشهر الحرم ، وشهر
رمضان ، وليلة القدر منه ، وأيام التشريق ، ووردت أحاديث ببعضها ، كيوم
عرفة ، ويوم عاشوراء ، والعشر الأواخر من شهر رمضان ، والعشر الأول
من شهر ذى الحجة ، وأول المحرم .

وهذه الأعياد والمواسم معالم يتميز بها طابع المجتمع الإسلامي عن غيره
من المجتمعات ، وهى من الشعائر الدينية التى تؤكد إيمان المؤمنين بوجودهم ،
واستقلالهم واعتزازهم بربهم ، فإذا كان فيها ما يتفق غير المسلمين مع المسلمين
على تعظيمه ، فينبغى ألاَّ يجوز ذلك على الشخصية الإسلامية ، فلا تنمأغ
تقاليد المسلمين فى تقاليد غيرهم ، ولهذا أمر النبى - صلى الله عليه وسلم -
أن يصوم المسلمون التاسع مع العاشر فى يوم عاشوراء ، حتى لا يختلط عملهم
بعمل اليهود فقال - عليه السلام - : « صُومُوا التَّاسِعَ وَالْعَاشَرَ وَلَا تَشْبِهُوا
بِالْيَهُودِ » ذلك لأن اليهود كانوا يفردون العاشر بالصوم فأمر - صلى الله عليه
وسلم - بمخالفتهم فى ذلك لتبقى لهم شخصيتهم المتميزة وطابعهم الخاص ،

وجودهم المستقل ، وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم » ولما قدم - عليه السلام - المدينة وجد لأهلها يومين يلعبون فيهما . فقال : ما هذان اليومان . . ؟ قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية ، فقال : قد أبدلكم الله خيراً منهما ، يوم الأضحى ، ويوم الفطر ، وذلك يفهم منه أن هذين اليومين ينبغي أن يفعل فيهما ما لم يكن يفعل في الجاهلية من ألوان اللهو ، واللعب ، وضروب التسلية أو التسرية إلا أن يكون بما يبيحه الإسلام ، لبراءته وطهارته واتفاقه مع ما يدعو إليه من خير وبر .

ولا شك أن الأعياد والمواسم واحات في الزمن ، يفيء إلى ظلها الناس ، ليشعروا بالراحة ، والمتعة ، والاستجمام ، ثم يستأنفوا سيرهم وعملهم ، وقد استردوا صحة النفس ، وراحة البال ، وحب العمل ولكن الأعياد في الإسلام لها شأنها ووزنها في حياة الفرد والمجتمع ، فهي أيام فرح وبشر ، وخير ، مما يشيعه توزيع زكاة الفطر ، ويوم الأضحى من الشعور بالبشر والسرور عند الفقراء ، وبما يشعر به الجميع من غبطة لأداء فريضة الصيام وفريضة الحج ، وبما يتطلع إليه الجميع من أمل في الثواب ، وخير في الدنيا والآخرة ، فقد قال تعالى : « من عَمِلْ صَالِحاً من ذَكَرٍ أَوْ أنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال جل شأنه : « الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَب » .

بصيرة العباس

كان بين العباس^(١) بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب مباحدة ، فلقى ابن عباس عليا ، فقال : إن كان لك في النظر إلى عمك حاجة فأته ، وما أراك تلقاه بعدها ، فقال علي : تقدمني واستأذن ، فتقدم ابن عباس واستأذن لعل ، فأذن له ودخل ، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه ، وأقبل عليٌّ على يد العباس ورجله يقبلهما ، ويقول : يا عم ، ارض عني - رضى الله عنك ، قال : قد رضيت عنك ، ثم قال : يا بن أخي ، قد أشرت عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبل ، ورأيت في عاقبتها ما كرهت ، وهأنذا أشير عليك برأى رابع ، فإن قبلته ، وإلا نالك مانالك ممّا كان قبله ، قال : وما ذاك يا عم ؟ قال : أشرت عليك في مرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن تسأله ، فإن كان الأمر فينا أعطانا ، وإن كان في غيرنا أوصى بنا ، فقلت : أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد فمضت تلك .

فلما قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة ، فدعوناك إلى أن نبايعك ، وقلت : ابسط يدك أبايعك وبيايعك هذا الشيخ ، فإننا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف ، وإذا

(١) كان من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام ، كان شديد الرأي واسع العقل ، أسلم قبل الهجرة وكم إسلامه ، ثم هاجر إلى المدينة وشهد موقعة حنين وفتح مكة ، توفى سنة ٣٢ هـ .

بايعك بنو عبد مناف لم تختلف عليك قريش ، وإذا بايعتك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب ، فقلت : لنا بجهاز رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شغل ، وهذا الأمر فليس نخشى عليه ، فلم نلبث أن سمعنا التكبير من سقيفة^(١) بنى ساعدة ، فقلت : ياعم ، ماهذا ؟ قلت : ما دعوناك إليه . فأبيت ، وقلت : سبحان الله أو يكون هذا ؟ قلت : نعم ، قلت : أفلا يرد ؟ قلت لك : وهل رد مثل هذا قط ؟ ثم أشرت عليك حين طعن عمر ، فقلت : لا تدخل نفسك في الشورى ، فإنك إن اعتزلتهم قدموك ، وإن ساويتهم تقدموك ، فدخلت معهم ، فكان مارأيت .

ثم أنا الآن أشير عليك برأى رابع ، فإن قبلته ، وإلا نالك مما كان قبله ، إني أرى أن هذا الرجل يعنى عثمان - قد أخذ في أمور ، والله لكأني بالعرب قد سارت إليه حتى ينحر في بيته كما ينحر الجمل . والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة لزمك الناس به ، فإذا كان ذلك لم تنل من الأمر شيئاً إلا من بعد شر لا خير معه .

قال ابن عباس : فلما كان يوم الجمل عرضت لعلی ، وقد قتل طلحة ، وقد أكثر أهل الكوفة في سبه وغمصه^(٢) فقال علی : أما والله لئن قالوا ذلك لقد كان كما قال القائل :

(١) السقيفة : هو المكان المظلل ، واسمها الصفة .

(٢) غمصه : احتقره ، وعابه ، وتهاون بحقه .

فتی کان یدنیہ الغنی من صدیقہ

إذا ما هو استغنى ويعده الفقر

ثم قال : لكأن عمي ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، والله ما نلت

من هذا الأمر شيئاً إلا بعد شر لا خير معه .

المناقشة

- ماذا كان بين علي والعباس ؟ وكيف زال ما بينهما ؟
- لخص بأسلوبك ما دار بين العباس وعلي من حديث ؟
- أشار العباس على (علي) بأمور ، فما هي ؟ وماذا كان يبغي (العباس) من ورائها ؟
- متى ولماذا زار أبو سفيان بن حرب بنى هاشم ؟ وماذا طلب العباس من علي في أثناء تلك الزيارة ؟ وماذا كان رد (علي) ؟
- (لنا بجهاز النبي - ﷺ - شغل) علي لسان من جرث هذه العبارة ؟ وما مناسبتها ؟
- بم أشار العباس على (علي) بعد طعن عمر ؟ وبماذا علل مشورته ؟
- قال العباس ، ثم أنا الآن أشير عليك برأى رابع فإن قبلته وإلا نالك ما نالك :
- ما مضمون هذا الرأي الرابع ؟ ومتى حدث ذلك ؟ وما الذي يعنيه (العباس) بقوله : وإلا نالك ما نالك ؟
- لكأن عمى ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ؟ متى قال (علي) هذه العبارة ؟ وعلام تدل في شخصية كل من :

تسألنا
« أ » العباس .

« ب » على ؟

- إذ أردت أن تحدد معالم الشخصية لكل من (العباس) و (على) في ضوء

هذا الموضوع فماذا تقول ؟

تسألنا ؟

تسألنا ؟

« ب » ؟

تسألنا ؟

تسألنا ؟

تسألنا ؟

تسألنا ؟

تسألنا ؟

تسألنا ؟

تسألنا ؟

تسألنا ؟

تسألنا ؟

العلاج النفسى فى الإسلام

المقصود الأول من بعثة الرسل إلى الخلق هو طبُّ قلوبهم من الشُّرك والوثنيَّة ، والاعتقادات الفاسدة فى وجود الله ، وقدرته وعلمه ، وإرادته ، وفى وجود الخلق ، وفى الحساب والجزاء فى اليوم الآخر ، وغير ذلك من المصالح الدينيَّة ، وإذا برئت قلوبهم من تلك العلل وصحت عقائدهم ، استقام لهم أمر الدنيا والآخرة ، ففساد القلوب بالاعتقادات الضَّالة يجعلها مرتعًا للأهواء المطغية ، والشهوات المردية ..

وللرُّسل إلى جانب ذلك المقصد مَقْصِدٌ آخر يكمله ، وهو طبُّ الأبدان ، والإنسان جسم ، وروح ، ولكل منهما طِبُّه ، وعلاجه ، عرف ذلك الأطباء ، والعلماء ، وأقروهُ ومارسُوهُ على اختلاف الأجيال والعصور ، ومارسه الأنبياء بالقدر الذى تسمح به مهمَّتُهُم وظروفهم وأزماتهم وبيئاتهم ، وبالقدر الذى يفتح الباب لمن ندب لهذا الشأن من الناس ، حتى لا يظنوا أن ذلك الباب مغلق دونهم وليس لهم أن يطرقوه .

وفى هذا المعنى يقول العلامة ابن القيم : « فالرسول - ﷺ - إنما بعث هاديًا ، وداعيًا إلى الله وإلى جنَّته ، ومعرفًا بالله ، ومبينًا للأمة مواقع رضاه ، وآمرًا لهم بها ، ومواقع سخطه ، وناهيًا لهم عنها ، ومخبرهم أخبار الأنبياء

والرسل ، وأحوالهم مع أمهم ، وأخبار تخليق العباد ، وأمر المبدأ والمعاد ،
وكيفية شقاوة النفوس وسعادتها ، وأسباب ذلك . وأما طِبُّ الأبدان ، فجاء
من تكميل شريعته ، ومقصوداً لغيره بحيث إنَّما يستعمل عند الحاجة إليه فإذا
قدر الاستغناء عنه كان صرف الهمم والقوى إلى علاج القلوب والأرواح ،
وحفظ صحتها ودفع أسقامها ، وحمتها مما يفسدها ، هو المقصود بالقصد
الأول ، وإصلاح البدن بدون إصلاح القلوب لا ينفع ، وفساد البدن
مع إصلاح القلوب مضرته يسيرة وهى مضرة زائلة يعقبها المنفعة الدائمة التامة .

وطِبُّ الأبدان يكون بالعلاج بأنواع من الأدوية أحدها الأدوية الطَّبِيعِيَّةُ ،
والثانى : الأدوية الإلهيَّةُ ، والثالث : المركَّبُ منهما ، وبكل ذلك عالج النبى
محمد - ﷺ - كما وردت به الأحاديث الصحيحة ، وقد أقرَّ الأطباءُ علاجاته
الطَّبِيعِيَّةُ ، ولم ينازعوا إلاَّ فى قليل منها أنكَروه أولاً ثم عادوا يعترفون به بعد
أن كشف لهم العلم عن صدقه وصحَّته ، والذى مازال مَثَارَ الجَدَلِ والنِّقَاشِ
هو العلاج بالأدوية الإلهيَّةُ ، أعنى العلاج بالقرآن ، والدُّعَاءِ ، والذِّكْرِ
والتَّسْبِيحِ ، فالناس بين مُعْتَرِفٍ به ، وجاحدٍ له ، وممَّا يُثِيرُ العَجَبَ من هؤلاءِ
الجاحدين أنهم يؤمنون بما يشبهه ، بل بما هو دونه ، ثم يجحدونه ، والعلاج
الإلهى ما هو إلاَّ العلاج النَّفْسَى الذى انتحله العصر ، ونسبه إلى نفسه ، وملاً

الدُّنْيَا ضَجِيجًا بالدُّعَايةِ لَهُ ، وتعدادِ مزاياه ، وأنشأَ لَهُ المعاهد ، والعيادات
المختصة بِهِ .

والعلاج النفسى هو بَعَثُ الرَّجَاءِ والطُّمَأْنِينَةِ فى نَفْسِ المريضِ وتقْوِيتهِ
بإِحْيَاءِ الأَمَلِ فى شَفَائِهِ بالكلام اللطيف الموحى بالشفاءِ ، والعافيةِ ، ذلك هو
العلاج النفسى وهو بعينه غاية العلاج الإلهى ، فليس هناك كلام أَرْجَى
للشفاءِ ، ولا أبلغ تأثيرًا فى نفس المريض من كلام الله ، وذكره ، والتفَرُّغُ
إليه ، واستنزال الشفاءِ من لدنه .

وقد عالج النَّبِيُّ - صلواتُ الله وسلامه عليه - بالأدوية الطبيعية ،
والأدوية الإلهية لكنه لم يستعمل كلاً منهما فى جميع الحالات ، بل استعمل
فى كل حالة ما يناسبها بحسب المرض ، واستعداد المريض ، ونفسيته وتقبله
لكل من العلاجين ، وقد نَجَحَتْ تلك العلاجات وبرىءَ المرضى بإِذْنِ الله ،
والعلاج بالأدوية الإلهية ، أعنى العلاج بالقرآن ، والذِّكْرُ قد يُثير حيوية
المريض ، وينشط طبيعته ، ويزيد قوَّةَ مقاومته ، فيتغلب على المرض ، وحذَّاقُ
الأطباء يحرصون الآن على إنعاش المريض ، ورفع روحه المعنوية ، ويرونَ أنَّ
ذلك هو الجانب المهمُّ فى العلاج .

ويختلف استعداد المريض لِتَقَبُّلِ العلاج الإلهى ، فمنهم من يستكفى به
عَمَّا سِوَاهُ ، لشفاءِ نفسه واعتقاد نَفْعِهِ ، وقوَّةَ اعتياده على رَبِّهِ ، وإيمانه

ببركته ، وفائدته ، ومنهم من ليس على تلك الشاكلة ، فلا يغنيهم شيئاً ، لكثافة نفوسهم ، وظلام قلوبهم ، وهذا سرُّ اختلاف الرسول في استعمال الأدوية .

وقد وضع النبي - ﷺ - أساس العلاج النفسى في قوله : « إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى الْمَرِيضِ فَتَنَّفِسُوا لَهُ فِي الْأَجْلِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَرُدُّ شَيْئاً ، وَهُوَ تَطْيِيبُ نَفْسِ الْمَرِيضِ » فتطيب نفس المريض ، وهو إنعاشه ، وتطيب خاطره بالكلام اللين اللطيف الموحى بتفريج الكرب ، وانفِتاح العمر ، وطول الأجل ممّا ينفس كربهُ ، وَيَنْعَثُ فِيهِ الْأَمَلُ فِي الشِّفَاءِ ، وامتداد الحياة ، ويضاعف من قُوَّة مقاومته للتغلب على المرض ، ولا شك أن العلاج النَّفْسِيَّ بسائر فروعه ، وتفصيلاته ، إنما يقوم على ذلك الأساس الذى وضعه الحديث ، والحديث كما أنه تأسيس لأصول العلاج النَّفْسِيَّ ، فيه إرشاد إلى آداب عيادة المريض ، فهو يطلب من عوادِ المَرْضَى ألاَّ يحدِّثُوهُمْ أو يتحدَّثُوا إلاَّ بما يخفف من عللهم ، ويوجي بالأمَل في شِفائهم ، وليس من آداب العيادة أن تحدث المريض بمضاعفة مرضه وأخطاره وبما تعرّض له أمثاله من مخاطر . كما أنه ليس من آدابها تطويل وقتها ، لأن في ذلك إثقَالاً عليه لا تخفيفاً عنه .

وإن لسلفنا العلماء - رضى الله عنهم - أحاديث في العلاج النفسى الإلهي وفي القمة منهم ابن القيم ، فقد تصدى لذلك في كتابه - زاد المعاد -

فقال بعد ما أورد الحديث السابق : « في هذا الحديث نوع شريف من أشرف أنواع العلاج هو الإرشاد إلى تطيب نفس العليل ، بالكلام الذى تقوى به الطبيعة ، وتنتعش به القوة ، وقد شاهد الناس كثيراً من المرضى تنتعش قواهم بعبادة من يحبونهم ويعظمونهم ، ورؤيتهم لهم ، ولطفهم بهم ومكالمتهم إياهم ، وهذا أحد فوائد عبادة المرضى . »

ومن قبيل العلاج النفسى ، العلاج بالرقى فى بعض الأمراض ، كما ورد فى الأحاديث الصحيحة ، والرقى كل كلام استشفى به من مَرَضٍ ، أو وَجَعٍ ، أو خَوْفٍ أو سِحْرٍ فقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - رقى فى بعض العلل ، وأمر بالاسترقاء منها ، وفى الرقية إلى جانب بركتها وما أودع الله فيها من أسرار لا نعلمها تطيب لِنَفْسِ المريض المؤمن ، يبعث الأمل فى شفائه بقدر اعتقاده فيها ، وتقبله لها ، وهى أخذ بأسباب الشفاء ، وليس فيها رفض للأسباب كما زعم بعض الناس ، فذهب إلى رفضها ، ففى المسند والسنن عن أبى خزيمة قال : قلت : يا رسول الله ، أرايت رقى نسترقىها ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقىها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : هى من قدر الله .

والرقية سبب يقوى ويضعف باختلاف النفوس وتقبلها ، وتأثيرها يكون بحسب ذلك ، فقد يراها بعض الناس سبباً قوياً للشفاء فيشتد تأثيره بها ، وتأثيرها عليه بما تبعته من قوة المقاومة ، فيكون فيها البرء بسبب ذلك ، وقد

يضعف تأثيرها فلا تستقل به فيحتاج المريض معها إلى دواء طبي فيتظاهر الأمران على مقاومة العلة ويتم الشفاء ، ونحن نعلم أن أطباء العلل النفسية لا يستعملون في علاجهم الآن الأدوية في أكثر الأحيان ، وعلاجهم وأدويتهم هو الكلام اللين الرقيق المناسب للعلة ، وكثير من الناس يؤمنون بهذا النوع من العلاج ويثقون في جدواه ، فكيف ننكر جدوى الرق ، وما هي إلا نوع منه ؟ على أن الرقية هي دعاء لدفع المرض ، والمرض شر من الشرور التي أمرنا الله بالاستعاذة منها ، فقال جل شأنه : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ .)

وينبغي التنبيه إلى أن الرقية يجب أن تكون بما يفهم من الكلام العربي كالقرآن وما يلحق به من الدعاء الماثور وما يشبهه على نهج ما ورد في السنة مما كان يقوله النبي ﷺ - فقد روى البخاري عن ابن عباس عن أنس - رضى الله عنهم - أنه قال لثابت رضى الله عنه : أَلَا أُرْقِيكَ بِرُقِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - ؟ قال : بلى . قال : اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ مذهب الباس ، اشف وأنت الشافي ، لا شافي إلا أنت شفاء لا يُغادر سُقْمًا .

ولا يجوز الاسترقاء بالألفاظ لا يفهم معناها . وذهب بعض العلماء إلى كراهيته ومنعه ، وما يُمارسُه بعض المشعوذين من الاسترقاء بمثل هذه الألفاظ هو عمل لا خير فيه ولا طائل تحته . وهو ضرب من الهذيان .

بدر الكبرى وبدر الحاضرة

جَوْلَتَانِ مَيْمُونَتَانِ ، وَمَعْرَكَتَانِ فَاصِلَتَانِ ، وَغُرَّتَانِ مَضِيئَتَانِ فِي تَارِيخِ
العروبة والإسلام ، يَذْكُرُنَا بِهِمَا شَهْرُ الصِّيَامِ ، شَهْرُ التَّقْوَى ، وَالصَّبْرِ ،
وَالْإِخْلَاصِ ، وَالتَّقْوَى أَقْوَى سَبَبٌ إِلَى الْقَبُولِ كَمَا يَقُولُ رَبُّ الْعِزَّةِ : « إِنَّمَا
يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » . وَالصَّبْرُ يَنْتَهِي إِلَى الظَّفَرِ ، وَالْإِخْلَاصُ سِرُّ النِّجَاحِ ،
وَتَحْقِيقُ الْأَمَالِ ، شَهْرٌ يَتَجَهُّ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَبِّهِمْ بِأَجْسَامِ خَفَافٍ ، وَأَرْوَاحٍ
مُشْحُونَةٍ بِالْخَيْرِ وَالْقَرَبِ مِنَ اللَّهِ ، يَنَادُونَ رَبَّهُمْ فَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ ، وَلَقَدْ عَوَدْنَا
هَذَا الشَّهْرَ الْكَرِيمَ أَنْ يَمِدَّنَا بِالنَّصْرِ الْمُبِينِ فِيمَا يَنْشُبُ فِي أَيَّامِهِ مِنْ قِتَالٍ ، وَأَبْرَزَ
مَعَارِكِهِ الْمَظْفَرَةَ غَزْوَةَ بَدْرِ الْكُبْرَى ، وَفَتَحَ مَكَّةَ بِلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَتَطَهَّرَهَا
مِنَ الْكُفْرِ وَالْأَوْثَانِ ، وَمَا شَاهَدْنَاهُ فِي حَرْبِ الْقُنَالِ ، وَمَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ .

لَقَدْ سُمِّيَتْ غَزْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِاسْمِ الْمَكَانِ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ
« بَدْر » وَأَخَذَتْ مَعْرَكَتَنَا الْمَعَاوِرَةَ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ تَيْمَنًا بِأُخْتِهَا وَاعْتِرَافًا بِمَا
بَيْنَهُمَا مِنْ مِثَابَهَاتٍ ، فَرَّقَتْ الْغَزْوَةَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَأَحْرَزَتْ أَوَّلَ نَصْرِ
لِلْمُسْلِمِينَ ، فَسُمِّيَتْ غَزْوَةُ الْفِرْقَانِ ، وَفَرَّقَتْ مَعْرَكَةَ أُكْتُوبَرٍ بَيْنَ الْعِزَّةِ
وَالْهَوَانِ ، وَالْقِيَاسِ لَا يَأْتِي أَنْ تَسْمَى مَعْرَكَةُ الْفِرْقَانِ ، لَقَدْ انْخَازَتْ كَثِيرٌ مِنَ
الدُّوَلِ إِلَى جَانِبِ إِسْرَائِيلَ فِي مَجَالِ الْخِدْمَاتِ ، تَقْدِمُ لَهَا السِّلَاحَ ، وَالرِّجَالَ ،

وتمدُّها بالأموال ، انقياداً لما ملأ أسماعهم من دعايات واسعة ماكرة ، تحاول
الخط من قدرات العرب ، وتصورُ إسرائيل في أبرع ما يصل إليه المغنون من
الخيال ، مما أسكر القوم ، فحسبوا أن هذا الدعي صاحب الكلمة النافذة ،
والعلم والسُّلطان في تلك المنطقة من العالم ، ولم يوقظهم من سكرتهم إلا
صوت الصرِيخ ، وزئير الأسود ، فوق الحصون والسدود ، فحقَّ الحق ،
وزهق الباطل ، وأدرك الجميع أن هذه الدِّيار حُماة كُما يصبرون ولا يفرطون ،
يصنعون المعجزات ، ولا يدعون ولا يثرثرون ، وعندئذ نفض كل أليف
خدعه البهتان يده من هذا المغالى في وضع نفسه فوق قدرها ، خاطباً ودَّ من
كشفت الأيام عن قدرته على المنع والعطاء ، وأصبحت تعرف أنه صاحب
البلاد وسيدها ، وتخلَّى عن هذه الدولة السليطة الشرهة كل من زين لها

غرورها ، وزخرف لها أطماعها ، كما تخلَّى إبليس اللعين عن مشركى مكة
بيدر ، بعد أن وعدهم بالنصر والجوار في وقت علِم فيه أن الخلل وتخوُّف
المفاجآت يتطرق إلى صفوفهم ، فجاءهم في جند من الشياطين على صورة
سراقه المدلجى ، ومعه قومه قائلًا : « لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ
لَكُمْ » ، حتى التحم الصفان ، ورأى إبليس جبريل - عليه السلام - فتحوف
منه ، ويده في يد الحارث ابن هشام ، فنزع يده من يده ، ونكص بجنبه ،

فقال له الحارث : يا سراقه أترعّم أنّك لنا جار ؟ فقال : « إِنِّي بَرِيٌّ مِنْكُمْ
إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » . وهنا يبرز الصّلف
اليهودى المتهور على لسان أبى جهل زعيم المشركين فيقول : يا معشر النّاس ،
لا يهمنكم خذلان سراقه ، ولا قتل فلان وفلان ، واللات والعزى لا نرجع
حتى نقرن محمداً وأصحابه بالحبال ، وليس يذرى أنّه بهذا الغرور يحفر قبره
وقبور جمهرة من أبطال قريش وفرسانها ، وإن كان لموقعة أكتوبر تدبير جعلها
بارعة السرعة والمفاجأة ، فقد كان ذلك تأسيّاً بما صنعه رسول الله من عزم ،
وسرعة مبادرة ، حينما قال - عليه الصلاة والسلام - : مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ (١)
حاضراً فليركب معنا ، ولم ينتظر من كان ظهْره غائباً ، فخرجوا ومعهم
سبعون بعيراً يتعاقبون عليها ، الثلاثة والأربعة يتعاقبون على بغير واحد ، وقائد
الجيش رسول الله - ﷺ - يعاقب عليّاً ومرثداً على بغير واحد ، فإذا جاءت
عقبته - عليه الصلاة والسلام - قال له رفيقه : اركب حتى نمشى معك .
فيقول ، ما أنتم أقوى مِنِّي على المشى ؛ وما أنا بأغنى عن الأجر منكما .
وفي الجانب الآخر يزهو المشركون بكثرتهم ، وقوة بأسهم فينحرون الجزر ،
ويركبون منها ويسوقون ، ويموجون في العدة والسلاح وما أقرب هذه الصورة
من حاضرنّا حيث نرى إسرائيل تنهال عليها الأسلحة والعتاد حتى تضيق رقعتها
(١) ظهره : ما يركبه من فرس أو بغير .

عن احتمال ما حشد فيها ، في الوقت الذي تضيق فيه حلقة التسليح حولنا ، من مُبالغٍ في التقدير ، ومُحاذِرٍ في المدد ، أو مغلق بابهِ دوننا بالغاً الثمن ما بلغ ، الميزان يميل في الأسلحة ميلاً شديداً ، ولكن البسالة والبطولة لا تقف حبيسة ما في أيديها من سلاح ، فنحن سلالة من كانوا إذا قصرت سيوفهم ورماحهم عن نيل العدو ، وصلوها بخطوات يتقدمونها نحو الأعداء ، فتظهر علائم النصر ، ويعبر رجالنا على جثث الأعداء في الحاضر والغابر ، يُردّدون هذا النداء الجميل « الله أكبر » ، « الله أكبر » فيرتج به المكان ، وترجف قلوب الخصوم .

رأينا في معركة القنال التعاطف ، والتعاون ، والتقدير في أعلى درجاته يسود بين الجند والقادة ، عجل ، وتفهم ، وطاعة من قبل الجنود ، وعطف وإخاء وتشجيع من جانب القواد ، وفي جوّ الحب والتفاني التقى الجميع على تسديد الضربات ، ودحر الأعداء ، وكسب النصر ، ولم تكن هذه المزايا والفضائل غريبة على طبائعنا وتقاليدنا ، ولكنها صور مما التزمه المسلمون في الماضي البعيد ، تحت قيادة رسول الله - ﷺ - ووفق ما طبعه الله عليه من التحلي بالشورى وأدق موازين العدالة ، فقد روى : أن المسلمين سبقوا قريشاً على النزول بيدٍ حتى بلغوا أول ماءٍ منها ، فنزل به رسول الله ﷺ فقال له الحباب بن المنذر : يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل ؟ أمّنزل

بالحق والعدل ، فأقْدِنِي من نفسك ، فكشف رسول الله - ﷺ - عن بطنه وقال : استقد (خذ حَقَّك) فيعتنقه ، ويقبل بطنه الشريف ، فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟ فيقول : يا رسول الله حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمَسَّ جِلْدِي جِلْدَكَ . فدعا له رسول الله - ﷺ - عليه الصلاة والسلام - بخير .

لقد عشنا بين إخواننا المصريين ، وعهدنا فيهم شعباً مرهف الإحساس ، رقيق الشعور ، جارف العاطفة ، يألف ويؤلف ، يؤرقه فراق صديق أو رفيق ، يحرق قلبه فقدان الوالد أو الولد ، ويحرم على جفنيه الكرى رحيل أخ أو عم أو قريب ، فما باله يتخلَّى عن سجاياه ، ويخرج عن طبيعته فلا يحرك أشجانه ، ويثير عبراته ما طرق سمعه من أنباء من استشهد في معركة العزة والشرف ، واسترداد الكرامة ، من أخ كريم ، أو ولد عزيز ، أو زوج عرف فيه الودَّ ، والإخلاص ، والحب العميق وكان يمتعه كثيراً ما يسمعه من ضروب البسالة ، وصنوف الشجاعة والإقدام ، وما سجله وسطره في كتاب النصر ، ضارباً صفحاً عمّا يصيب القلوب من فراق الأعزَّة ، وما يوسوس به الشيطان عند استقبال الأجساد الهامدة ، أو الأشلاء الممزقة ، أو اختفاء الأشباح بين ضحايا الصدام ، هل حَدَّثَ هذا لأنَّه أطربه النصر . فاسترخص الثمن ؟ أم أنَّه الإيمان العميق بقدر الله ، وترقب الجزاء الكبير

لشهداء والمجاهدين ، كما فعل الرجال والنساء من أصحاب محمد ، وقد كان لا يعينهم من أمر شهدائهم إلا الاستباق من نواهم ماثبة الاستشهاد ، فقد كان أبطالهم يتسابقون إلى كأس الموت في سبيل الله ، ومن حُرِم منه ظن أنه وقع في ربة الخسران والخيبة ، ووراءهم مؤمنون لا يسألون إلا عن سلامة صاحب الرسالة ونتيجة القتال ، وإن عرضوا للسؤال عن عزيز لديهم لم يتجهوا إلى الحرمان من قربه أو منافعه أو مزاياه ، وإنما يسألون عن منزلته عند الله وتروى السير : أن واحدة من الثكالى قتل ولدها وأملها : حارثة بن قيس الأنصاري بسهم لم يعرف راميهِ يوم بدر فجاءت رسول الله - ﷺ - تقول : يا رسول الله حدثني عن حارثة ، إن يكن في الجنة صبرت ، وإن يكن غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء . فقال — ﷺ — : يا أم حارثة ، إنها ليست بجنة ، ولكنها جنات ، وحارثة في الفردوس الأعلى ، فرجعت وهي تضحك وتقول : بخ بخ لك يا حارثة ، يملؤها السرور والإعجاب ، وتعلن المدح ، والرضا بما فعله ابنها وما وصل إليه في تلك العبارة « بخ بخ » التي اعتاد العرب استعمالها في هذه المعاني .

لقد خلص الإيمان إلى القلوب أولاً وأخيراً فأحدث الأعاجيب وأتى بما كانت توحى كل الظروف أنه من قبيل المعجزات ، فبالأمس كان المؤمنون يخفون برسول الله ، يستمعون أقواله ويقتدون بأفعاله ، ويقتبسون من مكارمه

وآدابه ، ويرون فيه أسرار النبوة ، ولطف العناية الربانية ، فامتلات قلوبهم بالإيمان ، ونشطت جوارحهم في الطاعات ، وسمت أرواحهم في ملكوت الأنوار ، واليوم أدرك المؤمنون أن الرجوع إلى الله هو عصمة أمرهم ، وملاك مسيرتهم ، وأن ما أصابهم لم يكن إلا لانفصالهم عن تاريخهم ، وتباعدهم عن دينهم ، فرجعوا إلى قرآنهم يتلونه ويتدبرونه ، وتاريخ سلفهم يقبلون صفحاته ، ويتلمسون طريقهم من خلاله ، فاستحقوا تأييد الله ونصره في الحالين ، فكم سمعنا من أبطالنا في المعركة والمشرفين عليها أحاديث تصور ما وصلوا إليه من إنجازات عظيمة ، وانتصارات باهرة ، رأوها فوق ما تتحمله قدراتهم ، أو تصل إليه أيديهم وما فيها من إمكانات ، فقالوا : إن هذا لم يكن إلا بجند من الله « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وهو القادر على أن يمد من شاء من عباده المخلصين بما شاء من أسباب التغلب والنصر ، بل إن الله سبحانه يبين لرسوله والمصطفى من خلقه أن الأمر كله بيده ، وأن فعل الإنسان مهما بلغ هذا الإنسان لا أثر له ، إن لم تدركه عناية الله فيقول : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » والقرآن الكريم يحدثنا عن المدد الملائكي في هذه الغزوة المباركة فيقول : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُدِّدُكُمْ بِأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ » وأحاديث أصحاب رسول الله كثيرة وحافلة بما رأوا في ذلك

اليوم من الملائكة ، وملابسهم وشاراتهم وتمييز آثار ضرباتهم في أعناق المشركين وعلى كل بنان ، حتى من حضر المعركة من المشركين لم تمتنع عليه هذه الرؤية .

[illegible]

الإسلام برىء من صراع الطبقات

إن الله - تعالى - حدد الصلة بين المسلم والمسلم فقال : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وهذه الأخوة بدأ ينفذها رسول الله - ﷺ - لأول عهده بالرسالة الإسلامية ، واستمر يتحدث عنها كلما سنحت الفرصة طيلة حياته . ومن أحاديثه الشريفة التي تعتبر دُررًا في المعاني السامية للأخلاق قوله - ﷺ - فيما رواه الشيخان - رضى الله عنهما - عن أنس رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) .

وفيمَا رواه الشيخان عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلّمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة) .

وفيمَا رواه الترمذى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :

(المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه ، التقوى هاهنا - وأشار إلى صدره - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) .

ويستفيض رسول الله - ﷺ - فيما ينبثق عن معاني (الأخوة)
فيقول : فيما رواه الشيخان عن أبي موسى رضى الله عنه : - (المؤمن للمؤمن
كالبنيان يشد بعضه بعضاً) ويقول فيما رواه الشيخان عن النعمان بن بشير -
رضى الله عنهما - : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد
إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) إن صلة المسلمين
صلة حب ومودة ورحمة وتعاطف ، وليس فيها من قرب أو من بعد صراع
طبقات ، أو حث على صراع . إنها رسالة رحمة في أسبابها وأسسها ، وهى
رسالة رحمة في أهدافها وغاياتها ، فهل ترى في جو الرحمة موضعاً لصراع
الطبقات ؟ إنَّ مبدأ صراع الطبقات يتعارض تعارضاً تاماً مع مبادئ
الإسلام ، وإن المذهب الذى يقوم على بعث الحقد والكراهية في نفوس العمال
ضد أصحاب المشاريع ، وفي نفوس الأميين ضد المثقفين ، وفي نفس كل
خامل ضد النابهن وفي نفوس العاطلين ضد العاملين ، والمذهب الذى يثير
اضطراباً في جو العمل ، وفي جو الطلبة ، وفي جو النقابات ، إنما هو مذهب
يتعارض جذرياً مع الجو الإسلامى ، ويتعارض جذرياً مع مصلحة الوطن .

ومع هذه البدهيات في الجو الإسلامى فإنه لابد من بيان حقيقة سافرة
هى حقيقة الجهاد من أجل الرقى بالمجتمع ، يقول الله - تعالى - : « كُنْمْ
خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » .

ومن أوصاف المؤمنين أنهم : « الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ،
والحافظون لحدود الله » وأحاديث رسول الله - ﷺ - في ذلك كثيرة
موفورة ، نكتفى منها بالحديث الشريف التالى : عن ابن مسعود - رضى الله
عنه - فيما أخرجه الإمام مسلم ، أن رسول الله - ﷺ - قال :

(ما من نبي بعثه الله في أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون
وأصحاب ، يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنه تخلف من بعدهم
خلوف ، يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيبه
فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو
مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) .

هذا الجهاد هو جهاد الحق في مواجهة الباطل ، وهو جهاد الخير في
مواجهة الشر ، وهو جهاد الفضيلة في مواجهة الرذيلة إنه جهاد في مجال
العقيدة ، وهو جهاد في مجال الأخلاق ، وهو جهاد في مجال التشريع ، وهو
جهاد في مجال نظام المجتمع ، وهو جهاد لتنفيذ الإسلام جملة وتفصيلاً .

إنه جهاد يعبر رسول الله - ﷺ - عن التمسك به بقوله الخالد :
(والله لو وَضَعُوا الشَّمْسَ في يميني والقَمَرَ في يسارى على أن أترك هذا الأمرَ

ما تركته حتى يُظهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ . وهذا الجهاد إنما يقوم به على مرَّ الزمان طائفةٌ يعبرُ عنها رسول الله - ﷺ - بقوله فيما رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه :-

(لا تزال طائفةٌ من أمتى ظاهرين على الحقِّ حتَّى تقوم الساعة) ، وفي رواية أخرى عن جابر - رضى الله عنه - فيما أخرجه مسلم : (لا تزال طائفةٌ من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة) ، وفي رواية ثالثة . فيما أخرجه البخارى ومسلم عن المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - :

(لا تزال طائفةٌ من أمتى ظاهرين حتى يأتهم أمرُ الله وهم ظاهرون) وهذه الأقوال بمعنى واحد : إن جهادهم لله وفى سبيل الله ، يستمدون مبادئه من القرآن الكريم ومن أقوال الرسول - ﷺ - : إنهم يستمدونها من إيمانهم بما أنزل الله تعالى على لسان خيرِ الرسل فى هذه الرسالة الخالدة الخاتمة . وَهُمْ يَصَارِعُونَ الْبَاطِلَ أَيْنَا وَجَدُوهُ . يَصَارِعُونَهُ فى العقيدة ، وفى مذهب كلِّ مذهبٍ مُنْحَرِفٍ عن عقيدة الإسلام ، تمثل فى « ماركس أو فى لينين » المنكرين لوجود الله تعالى ، ويصارعون الباطل فى كل المذاهب الأخلاقية التى تتنافى مع الإسلام ، سواءً وجدت هذه المذاهب فى الشرق أو فى الغرب ، وهم

يصارعون الباطل ممثلاً في كل المذاهب الاقتصادية التي تهجم على المجتمع ،
فتجرّد جميع أفرادها من كل ما يملكون . عقاراً ومالاً . . وكل ما اكتسبه الفرد
بجهده وعرقه ، ولا تسمح له بمزاولة أى نشاط مالى حر .

وهم يستمسكون بالحق في وجه كلّ مُنحرفٍ عن التشريع الإسلامى :
مدنيّاً كان هذا التشريع أو جنائياً . وهذه الطائفة التي تقوم على الحق فيها
الأثرياء والفقراء ، وفيها المثقفون في أى مكان كانوا والكتاب من مختلف
الطبقات . إنّ سمة هذه الطائفة الأصلية أن نضالها في سبيل الحق ، وما كانت
ثورة مولانا الإمام الحسين - رضى الله عنه - إلا ثورة العدالة في وجه الظلم ،
وثورة الحق في وجه الباطل ، وما كانت قطّ صراع طبقات ، وكان في جيش
الحسين - رضى الله عنه - جنّد من كل الطبقات ، وكان في جيش المحاربين
له جنّد من كل الطبقات ، وبعد : فيقول رسول الله - ﷺ - :

(والله لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعاً لما جئت به) .

ويقول الله تعالى : « وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

رابع أربعة

اركب يا أخى إلى هذا الوادى من مكة ، والى هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي^١ يأتيه الخبر من السماء ، واستمع إليه واحفظ ما تسمع ، واثنى بخبر ذلك - ومضى الأخ ، ولقى محمداً - صلى الله عليه وسلم - ثم رجع ، فسأله أخوه أبو ذر الغفارى : ما عندك من الخبر ؟ فقال : رأيت رجلاً يأمر بالخير ، وينهى عن الشر ، أو قال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، ويتحدث بكلام ما هو بالشعر ، ولكن ذلك لم يشف ما فى نفس أبى ذر ، ولم يشبع رغبته ، فأخذ زاداً فى جراب ، وعصاً يتوكأ عليها ، وبادر يلتمس محمداً بمكة ، ولما بلغها ، كره أن يسأل عن موضعه ذاك الذى كان ينشر منه دعوته فى سر وكتمان ، إذ كان لم يؤمر بالجهر بها بعد .

وأوى أبو ذر إلى المسجد ، منتدى قريش ، وأقام به كاتماً أمره ، ولكن علياً بن أبى طالب يمر به ، ويأخذه بعينه ، ثم يقول له : كأن الرجل غريب ، قال أبو ذر^٢ - واسمه جندب بن جنادة بن سفيان ، وينتهى نسبه إلى إلياس بن مضر - قال : نعم ، قال على : فهياً معى ، وانطلق به إلى منزله ، لا يسأل أحدهما صاحبه شيئاً ، وأصبح أبو ذر^٣ ، فقصد المسجد ليسأل ، ولكن أحداً لم يخبره ، فيمر به على ويقول : أما آن للرجل أن يعرف

منزله بعد ؟ ثم أخذ بيده وانطلق وسأله : ما أمرك ؟ وما الذى جاء بك إلى هذه البلدة ؟ قال أبو ذر : إن كنت على أخبرتكَ . قال على : أفعل ، قال أبو ذر : بلغنى أنه خرج ههنا رجل يزعم أنه نبي ، فأرسلت أخى ليكلمه ، فرجع ولم يشفنى ، فأردت أن ألقاه . قال على : أما إنك قد رشدت ، هذا وجهى إليه فاتبعنى وادخل حيث أدخل ، فإن رأيت أحداً أخافه عليك ، قمت إلى الحائط . كأنى أصلح نعلى ، وامض أنت ، ولم ير على ما يخافه عليه ، فدخل أبو ذر ، وطلب أن يعرض عليه الرسول الإسلام ، فعرضه عليه وأسلم ، فكان رابع أربعة سبقوا إلى الإسلام والرسول بمكة ، يقول له النبي - عليه الصلاة والسلام - : يا أبا ذر ، اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل ، فقال : والذى بعثك بالحق ، لأصرخن بها بين أظهرهم ! فجاء إلى المسجد ، فقال : يا معشر قريش ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابىء ، فقاموا إليه وضربوه ليموت ، فأدركه العباس وأكب عليه ، وأقبل عليهم فقال : ويلكم ، تقتلون رجلاً من « غفار » ، ومتجركم وممركم على غفار ! فأقلعوا عنه ، ولما أصبح رجع فقال مثل ما قال بالأمس ، فقاموا إليه ، وصنعوا به مثل صنيعهم بالأمس ، وأدركه العباس ، فأكب عليه وخلّصه .

عاد « أبو ذر » إلى بلده بعد أن عاهد النبي وباعه على أن يقول الحق مهما كان مرأً ، وعلى ألا تأخذه في الحق لومة لائم ، وعاش ما عاش وفيًا بعهد ذاك أكمل وفاءً ، وأقام في بلده ما أقام ، ثم أتى المدينة بعد الهجرة ، وبعد غزوات « بدر » ، و « أحد » ، و « الخندق » ولازم النبي إلى أن لحق - صلوات الله وسلامه عليه - بربه ولم يصرف « أبا ذر » عن قول الحق ما كان يلاقيه من عنت وإيذاء ، وذلك هو الذي شئت شمله ، وهو الذي جعل أمير المؤمنين عثمان - رضى الله عنه - يضيق به ، حتى كره أن يساكنه بالمدينة ، فأبعده عنها مرة هنا ، ومرة هناك ، وكان آخر ما أبعد إليه مكان يسمى (الرُبْذة) يستريح فيه الحاج بين العراق والحجاز غير مأهول ، وبه مات ، وفيه دفن .

ولما حضرته الوفاة ، بكت ابنته ، وقبل امرأته ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : أبكى أنه لا بد لنا من تكفينك وليس عندنا ثوب يسعك ، فقال : لا تبك ، فأني سمعت رسول الله وأنا عنده ذات يوم في نفر يقول : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض ، تشهد عصابة من المؤمنين » ثم قال : فكل من كان معي في ذلك المجلس مات في جماعة وقرية ، ولم يبق غيري ، وقد

أصبحت بالفلاة أموت ، فراقبى الطريق ، فإنك سترين ما أقول ، وإني والله ما كذبت ! قالت وأنى ذلك وقد انقطع الحاج ؟ قال : راقبى الطريق هل ترين أحدا ؟ قالت : لا . قال فما جاءت ساعتي بعد ! ثم أمرها أن تعد طعاماً وقال لها : إذا جاءك الذين سيكفنوننى ويواروننى ، فإنه سيشهدنى قوم صالحون ، فقولى لهم : يقسم عليكم أبو ذر ألا تركبوا حتى تأكلوا . فلما أعدت الطعام قال : انظرى هل ترين أحدا ؟ قالت : نعم ، هؤلاء قوم مقبلون . فقال : استقبلى بى الكعبة ، ففعلت ، فقال : بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم خرجت ابنته ، فأقبلوا حتى وقفوا عليها ، فقالت : رحمكم الله امرؤ من المؤمنين تكفنونه ، قالوا : ومن هو ؟ قالت أبو ذر . قالوا : نعم ونعمة عين ، لقد أكرمنا الله بذلك بآبائنا وأمهاتنا أنت يا أبا ذر ! وكان فيهم عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - فقال : صدق رسول الله قال : « يموت وحده ويبعث وحده » فلما رآهم قال : أبشروا فأنتم النفر الصالحون من المؤمنين ، قال فيكم رسول الله ذلك ، ثم قال : أصبحت اليوم حيث ترون ، ولو أن ثوباً يسعنى لم أكفن إلا فيه ، فأنشدكم الله لا يكفننى رجل كان أميراً أو عريقاً أو بريدًا ، فكل القوم نال من ذلك شيئاً إلا فتى من الأنصار كان مع القوم قال : أنا صاحبه ، الثوبان معى من غزل أمى ، أحدهما الذى على ، والآخر فى متاعى . قال أبو ذر : أنت صاحبى ، ثم قال : بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم مات ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ، فقالت ابنته : إن

أبا ذر يقرأ عليكم السلام ، وأقسم عليكم ألا تركبوا حتى تأكلوا ، ففعلوا ،
وحمل عبد الله بن مسعود أهله إلى عثمان - رضى الله عنه - فضم ابنته إلى
عياله وقال : يرحم الله أبا ذر ، ويغفر له نزوله الربة .

معاوية

هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان كَانَ من عظماء الرجال ،
وهو مِمَّنْ كتب الوحى بين يَدَي رَسول الله - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكان
أَمِينُهُ على وَحى رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا .

وَكَانَ من أَكابرِ العربِ نَسَبًا وَقُرْبًا منه - صَلَّى الله عليه وسلم - حاز
شَرَفَ الإسلام ، وشَرَفَ الصُّحْبَةِ ، وشَرَفَ النَّسَب ، وشَرَفَ الجِلم ،
وشَرَفَ العِلْم ، وسُوِّدَدَ الإمارة والخِلافة .

كان عاقلًا لَبِيًّا ، عالِمًا حَكِيمًا ، دَاهِيَةً فى السِّيَاسة والكيَاسة ، وهُو
الَّذى قال : « لو كان بينى وبين النَّاسِ شَعْرَةٌ ما انْقَطَعَتْ أَبَدًا » . قالوا له :
« وكيف ذلك يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنين ؟ » قال : « كنت إذا جَذَبوها أُرْخِيتُها ، وإنْ
أُرْخَوْها جَذَبْتُها » .

وَكَانَ حَسَنَ التَّدْبِير ، حَكِيمًا فَصِيحًا بَلِيغًا ، يَحْلُمُ فى مَوْضِعِ الجِلم ،
وَيَشْتَدُّ فى مَوْضِعِ الشَّدَّة ، وَالْحِلْمُ عنْدَهُ أَغْلَبُ . كَرِيمًا ، باذِلًا لِلْمَالِ يَكْرُم
الْوَفادين ، وَيُخْسِنُ القَرى وَيَقْضِى الحَوَائِج ، اِخْتَلَفَتِ النَّاسُ فى حَبِّهِ ، ولم
تَخْتَلِفْ فى فَضْلِهِ .

نَظَرَ أبو سفيانَ إلى وَلَدِهِ مُعاويةَ وهُو غُلَامٌ ، فقال : « إِنَّ ابْنى هذا لعَظِيمُ
الرَّأْس ، وإنَّه لَخَلِيقٌ أَنْ يَسودَ قَوْمَهُ . فقالت أُمُّهُ : « قَوْمَهُ ؟ تُكَلِّتُهُ إِنْ لم يَسُدْ
العَرَبَ قاطِبَةً » .

ووصفه عبد الملك بن مروان ، عندما مرَّ بقبره ، فقال : « إنه كان ينطق
عن علم ، ويسكت عن حلم ، وكان إذا أعطى أغنى ، وإذا حارب أفنى » .
نعم ! لقد كان سائس أمم ، ومربى دول ، ورأى ممالك ، قال عمر
ابن الخطاب لجلسائه يوماً : « تذكرون كسرى وقنصر ودهاءهما ، وعندكم
معاوية ؟ » .

ومن عجائب فراسته أنه قال : « إن أهل مكة أخرجوا رسول الله ،
فلا تكون الخلافة فيهم أبداً ، وإن أهل المدينة قتلوا عثمان ، فلا تعود الخلافة
إليهم أبداً » .

تخيّل - إذا شئت معرفة فضل سياسته - الموقف الذى صارت إليه الأمة
الإسلامية بعد فتح الشام وثغوره ، وبعد فتح مصر التى أقلّ وصف لها ما قاله
الإسكندر المقدوني : « إن مصر مركز للعالم بأسره ، إذا انبثت منها أنصاف أقطار ،
فإنها تمر بجميع الأمصار ، فيسهل على القابض عليها أن يصل منها إلى حيث
يريد ويختار » لا أشك في أنك تدرك مركز الشرق الإسلامى إزاء هذه
الحال ، ومركز الغرب إزاءه أيضاً ، وتعتقد أنه من أعسر المواقع وأخرجها

أنظر لعمله - رضى الله عنه - في فتح هذه الجزر - وهى جزيرة
إقريطش « كريد » ، وجزيرة « كومس » وجزيرة « رودس » وجزيرة
« أرود » - تجده أدرك ببصيرته المعنى الذى لاحظته دول أوروبا فيها الآن

وَأَصْبَحَتْ تَتَرَاخَمُ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِهِ ، وَإِنَّ عَمَلَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ عَمَلُ الْحَكِيمِ
الْحَلِيمِ ، الْعَاقِلِ الْحَازِمِ الَّذِي قِيلَ فِيهِ :

الْبَسَ لِكُلِّ حَالَةٍ لُبُوسَهَا إِمَّا نَعِيمَهَا وَإِمَّا بُؤْسَهَا
صَانَ كُرْسِيَّ الْمُلْكِ بِالْأُبْهَةِ وَالْعِظْمَةِ ، وَجَذَبَ إِلَيْهِ الْقُلُوبَ بِحُسْنِ
الْمَجَامَلَةِ ، وَمَلَكَهَا بِجَمِيلِ الْمُعَامَلَةِ ، فَهَابَهُ الْعَدُوُّ ، وَطَمَعَ فِي كَرَمِهِ
الصَّدِيقُ (١) .

(١) من كتاب حماة الإسلام ، تأليف المرحوم مصطفى نجيب بك .

من أدب العباسيين

(١)

أصاب أهل مكة سيلٌ شارفٌ الجِجر ، ومات تحته خلق كثير ، وكان
« عبد الله بن الحسين » العلوي والى الحرمين « للمأمون » فكتب إليه :
« إن أهل حرم الله ، وجيران بيته ، وألأف مسجده ، وعمرّة بلاده ،
قد استجاروا بعزٍّ معروفك من سيل تراكمت أخرياته في هدم البنيان ، وقتل
الرجال والنسوان ، واجتياح الأصول ، وجرف الأثقال ، حتى ما ترك طارفاً
ولا تالداً للراجع إليهما في مطعم ولا ملبس ، وقد شغلهم طلب الغذاء عن
الاستراحة إلى البكاء على الأمهات والأولاد ، والآباء والأجداد ، فأجرهم
يا أمير المؤمنين بعطفك عليهم ، وإحسانك إليهم ، تجد الله مكافئاً عنهم ،
ومُثيبك عن الشكر منهم » .

فوجّه « المأمون » بالأموال الكثيرة ، وكتب إلى « عبد الله » :
« أمّا بعد ، فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله أمير المؤمنين ، فبكاهم
بعين رحمته ، وأنجدهم بسبب نعمته ، فهو مُتبع ما أسلف إليهم بما يخلف عليهم
عاجلاً ، إن أذن الله في تثبيت عزمه على صحة نيته » فصار كتابه أنس لأهل
مكة من الأموال التي أنفذها إليهم .

(٢)

وكتب « يحيى بن أكرم » إلى « المأمون » ، وكان قاضيه بالبصرة ، يذكره بقضاء حاجة له ، كان وعده قضاءها ثم أغفله :

«أنت يا أمير المؤمنين أكرم من أن نعرض لك بالإنجاز ، ونقابلك بالادِّكار ، وأنت شاهدي على وعدك لا تأمر بشيء لم تتقدَّم أيامه ، ولم يقدَّر زمانه ، ونحن أضعف من أن يستولى علينا صبرٌ انتظار نعمتك ، وأنت الذي لا يثوده إحسان ، ولا يعجزه كرم ، فعجل لنا يا أمير المؤمنين ما يزيدك كرماً ، وتزداد به نعماً ، وتلقاه بالشكر الدائم » .

وقال « المأمون » يوماً ليحيى : صف لي حالي عند الناس ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، قد انقادت لك الأمور بأزمَّتْها ، وملكتك الأمة فضول أعنتها ، بالرغبة إليك ، والمحبة لك ، والرفق منك ، والعياذ بك ، بعدلك فيهم ، ومنك عليهم ، حتى لقد أنسيَتهم سلفك ، وآيسَتهم خلفك ، فالحمد لله الذي جَمَعنا بك بعد التقاطع ، ورفعنا في دولتك بعد التواضع » فقال المأمون : « يا يحيى أتخبراً أم ارتجالاً » ؟ قال : وهل يمتنع فيك وصف ؟ أو يتعذر على مادحك قول ؟ أو يُفحَم فيك شاعر ؟ أو يتلجلج فيك خطيب ؟ .

(٣)

لما قُتِلَ « الأمين » كتبت أمه السيدة « زبيدة » إلى « المأمون » تستعطفه : « كل ذنب يا أمير المؤمنين وإن عظم صغير في جنب عطفك ، وكل إساءة وإن جَلَّتْ يسيرة لدى حلمك وصفحك ، وذلك الذى عودك الله ، أطال مدتك ، وتمم نعمتك ، وأدام بك الخير ، ودفع بك الشر . وبعد : فهذه رقعة الولهى ، التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجزيل الذكر ، فإن رأيت أن ترحم ضعفى واستكانتى ، وقلة حيلتى ، وأن تصل رَحْمى ، وتحتسب ذلك فيما جعلك الله له طالباً ، وفيه رغباً فافعل .. وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعى إليك » .

فأجابها « المأمون » :

« وصلت رقعتك يا أمّاه - حاطك الله وتولاك بالرعاية - ووقعت عليها ، وسأئنى - شهد الله - جميع ما أوضحت فيها ، ولكن الأقدار نافذة ، والأحكام جارية ، والأمور متصرفة ، والمخلوقون فى قبضتها ، لا يقدرّون على دفاعها . والدنيا كلها إلى شتات ، وكل حى إلى الممات ، والغدر والبغى حتفُ الإنسان ، والمكر راجع إلى صاحبه ، وقد أمرت برّد جميع ما أخذ منك ، وهأنذا قد أعدتُك إلى حالتك الأولى ، ولم تفقدى ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه ، وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين ، والسلام » .

وتنازع « إبراهيم بن المهدي » عم « المأمون » ، و « ابن بختيشوع الطبيب » ، بين يدي القاضي « أحمد بن أبي دؤاد » في مجلس الحكم ، في عقار بناحية السواد ، فأرَبى عليه « إبراهيم » ، وأغلظ له فأحفظ (١) ذلك ابن « أبي دؤاد » فقال : « يا إبراهيم ، إذا نازعتك في مجلس الحكم بحضرتنا امرؤ ، فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً ، ولا أشرت بيد ، وليكن قَصْدُكَ أَمَّاماً (٢) ، وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلاً . ووفِّ مجالس الحكومة حقوقها من التعظيم والتوقير ، والاستكانة والتوجه إلى الواجب ، فإن ذلك أشكلُ بك ، وأشمل لمذهبك في محتدك ، وعظيم خطرك ، ولا تعجلن ، فرب عجلة تَهَبُ رَيْثاً ، والله يعصمك من خَطَلِ القول والعمل ، ويُمِ نِعْمته عليك ، كما أتمها على أبويك من قبل . إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » . فقال إبراهيم : « أصلحك الله تعالى ، أمرت بسداد ، وحَضَضْتُ على رشاد ، ولست عائداً لما يثلم مروءتي عندك ، ويُسْقِطُنِي من عينك ، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مُقَرَّرٌ بذنبه . معترف بجُرمه ، ولا يزال الغَضَبُ يستفزني بمواده ، فيردني مثلك بحلمه ، وتلك عادة الله عندك وعندنا منك .

(١) أحفظه : أغضبه .

(٢) الأَمُّ : البين من الأمر . والقصد : الوسط .

وقد جعلتُ حقى من هذا العقار لابن بختيشوع ، فليت ذلك يكون وافيًا بأرْش^(١) الجناية عليه ، ولم يتلف مال أفاد موعظة وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(٥)

كثر طلاب الصلوات بباب « المأمون » فكتب إليه « أحمد بن يوسف » يستنجد به لهم : « إن داعى نذاك يا أمير المؤمنين ، ومنادى جَدَاكَ ، قد جَمَعَا ببابك الوفود ، يرجون نائلك المعهود ، فمنهم من يُمْتُ إليك بعظيم حرمة ، ومنهم من يُدِل بسالف خدمة ، وقد أجحف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيئه ، ويحقق ظنهم بطوله ، فَعَل ، إن شاء الله تعالى » .

فوقع « المأمون » فى عرض كتابه : « الخير متبع ، وأبوابنا مغان لطالبي الحاجات ، ومواطن لهم ، ولذلك قال الشاعر :

يسقط الطير حيث ينتشر الحـ

ب وتغشى منازل الكرماء

(١) الأرض : الدية .

فاكتب أسماء من بيأنا منهم ، وبين مراتبهم ، ليصل إلى كل رجل قدر
استحقاقه ، ولا تكدرن معروفنا عندهم بطول الحجاب ، وتأخير الثواب ،
فقد قال الشاعر :

وإنك لن ترى طرّداً حر
كالصاق به طرف الهوان
ولم تجلب مودة ذى وفاء
بمثل البشر أو بذل اللسان

(٦)

أهدت جارية من جوارى « المأمون » إليه تفاحة وكتبت إليه :
« إني لما رأيت الرعية تتنافس في الهدايا إليك ، وتواتر أطفاهم عليك ،
فكرت في هدية تخف معونتها ، وتهون كلفتها ، ويعظم خطرها ، ويجل
موقعها ، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت ، ويكمل فيه هذا الوصف ، إلا
التفاح ، فأهديت إليك منه واحدة في العدد ، كثيرة في التقرب ، وأحببت
يا أمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها ، وأكشف لك عن محاسنها وأشرح
لك لطيف معانيها . وما قالت الأطباء فيها ، وتفنن الشعراء في أوصافها ، حتى

ترمقها بعين الجلالة ، وتلحظها بمُقَلَّة الصيانة ، فقد قال الرشيد أبوك - رضى
الله عنه - : أحسنُ الفاكهة التفاح ، اجتمع فيه الصفرة الدُرِّيَّة ، والحمرة
الخَمْرِيَّة ، والقشرة الذهبِيَّة ، وبياض الفِضَّة ، ولون التَّبرِّ ، يلذ من الحواسِّ
العينُ ببهجتها ، والأنف بريحها ، والفم بطعمها » .

الناقشة

- كان كتاب المأمون آنس لأهل مكة من الأموال التي أنفذها إليهم .
ما موضوع هذا الكتاب ؟ ولم كان له هذا التأثير ؟

- قال المأمون : « يا يحيى ، أتجبراً أم ارتجالاً » ؟ عم يسأل المأمون ؟ وما
سبب سؤاله ؟ وبم أجابه يحيى ؟

- بم تعلق على رسالة السيدة زبيدة إلى المأمون ؟ وما رأيك في رده عليها ؟
كيف احتفظ القاضي أحمد بن أبى دؤاد بهيئة القضاء وقداسته ؟

- وردت الكلمات الآتية في هذه النماذج التي قرأتها ، اشرح معناها ، ووجه
صلتها بموضعها :

اجتياح الأصول - أنجدهم بسبب نعمته - آيستهم من خلفك - هذه
رقعة الوهى - ليكن قصدك أمّا - أرش الجناية - يدل بسالف خدمة .

- استنبط من هذه النصوص ما توضح به سياسة المأمون في رعيته ، وبين
رأيك في هذه السياسة .

رباطة الجأش

قال أحمد بن أبي دؤاد :

« ما رأيت رجلاً نزل به الموتُ فما شَغَلَهُ ذلك ولا أَذْهَلَهُ عما كان يجب أن يفعله إلا تميمَ بن جَمِيل . فإنه كان قد تَغَلَّبَ على شاطئِ الفراتِ فظَفِرَ به ، ووافى به الرسول باب المعتصم في يوم الموكب حين جلوسه للعادة فأدخِلَ عليه ، فلما مثلَ بين يَدَيْهِ ، دعا بالنُّطع والسَّيفِ فأخضرا ، وجعل تميم بن جَمِيل يُصَعِّدُ النظرَ إلى ذلك ، ولا يقول شيئاً ، والمعتصم يُصَعِّدُ النظرَ فيه ويصوبُهُ ، وكان جميلٌ جسيماً وسيماً ، فرأى المعتصم أن يَسْتَنْطِقَهُ ليرى أين جَنَانُهُ وَلِسَانُهُ من جسمه ومنظَرِهِ ، فقال : « يا تميم ، إن كان لك عُذْرٌ فَأْتِ به ، أو حُجَّةٌ فَأَدِلْ بها » . فقال : « أَمَا إِذْ قَدْ أَذِنْتَ لِي يا أمير المؤمنين بالكلام فإني أقول : الحمد لله الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وبدأ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . يا أمير المؤمنين .

جَبَرَ اللَّهُ بِكَ صَدْعَ الدِّينِ ، وَلَأَمَّ بِكَ شَعَثَ الْأُمَةِ ، وَأَخْمَدَ شَهَابَ الْبَاطِلِ ، وَأَوْضَحَ سِرَاجَ الْحَقِّ . يا أمير المؤمنين ، إِنَّ الذُّنُوبَ تُخْرِسُ الْأَلْسِنَةَ ، وَتَصْدَعُ الْأَفْئِدَةَ ، وَلَقَدْ عَظُمَتِ الْجَرِيرَةُ ، وَكَبُرَ الذَّنْبُ ، وَسَاءَ الظَّنُّ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَفْوُكَ أَوْ انتِقَامُكَ ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَقْرَبُهُمَا مِنْكَ وَأَسْرَعُهُمَا إِلَيْكَ أَوْلَاهُمَا بِأَمَانَتِكَ ، وَأَشَبَّهُهُمَا بِخِلَافَتِكَ ، ثُمَّ أَنشُد :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً

يلاحظنى من حيثاً أتلفت

وأكبر ظننى أنك اليوم قاتلى

وأى امرئ ممّا قضى الله يفلى؟

ومن ذا الذى يذلى بعذر وحجة

وسيف المنايا بين عينيه مضلت

يعزّز على أبناء تغلب موقف

يسلّ على السيف فيه وأسكت

وما جزعى من أن أموت، وإننى

لأعلم أن الموت شئ مؤقت

ولكن خلفى صبية قد تركتهم

وأكبأدهم من حشرة تتفتت

كأنى أراهم حين أنعى إليهم

وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا

فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة

أذود الردى عنهم وإن مت موتوا

وكم قائل : لا يُعِدُّ الله داره !

وآخر جذلان يُسَرُّ وَيَشْمَتُ

فَتَبَسُّمُ الْمُعْتَصِمِ وَقَالَ : « إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لِسِحْرًا » .

« كاذ - والله يا تميم - أن يسبق السيفُ العذل ، اذهب فقد غَفَرْتُ لَكَ

الْهَفْوَةَ ، وَوَهَبْتُكَ لِلَّهِ وَلِلصَّبِيَّةِ » . . وَأَعْطَاهُ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ .

مناجاة (*)

إلهى ، أنا الفقيرُ فى غنى ، فكيفَ لا أكونَ فقيراً فى فقرى ؟
إلهى ، أنا الجهولُ فى علمى ، فكيفَ لا أكونَ جهولاً فى جهلى ؟
إلهى ، إنَّ اختلافَ تدبيرك ، وسُرعةَ حُلُولِ مقاديرك ، منعا عبادك
العارفين بك من السكون إلى عطاءٍ ، واليأس منك فى بلاءٍ .
إلهى ، منى ما يليق بلؤمى ، ومنك ما يليق بكرمك !
إلهى ، وصفتَ نفسك باللطف والرفاة بى قبل وجود ضغفى ، أفتمنعنى
منهما بعد وجود ضغفى ؟
إلهى ، إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ، ولك المنة على ، وإن ظهرت
المساوى منى فبِعَدْلِكَ ولك الحجة على .

إلهى ، كيف تكلنى إلى نفس وقد توكلت بى ؟ وكيف أضام ، وأنت
النصير لى ؟ أم كيف أخيب وأنت الحفى بى ؟ هاأنذا أتوسل إليك بفقرى
إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ؟ أم كيف أشكو

(*) من كتاب لطائف المنن تأليف العارف بالله : ابن عطاء الله السكندرى تحقيق
الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر .

إليك حالى وهى لا تخفى عليك ؟ أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز
إليك ؟ أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدت إليك ؟ أم كيف لا تحسن أحوالى
وبك قامت إليك ؟

إلهى ، ما اللطفك بى مع عظيم جهلى ، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى !
إلهى ، ما أقربك منى ، وما أبعدنى عنك .

إلهى ، ما أرفك بى ، فما الذى يحجبنى عنك ؟
إلهى ، قد علمت باختلاف الآثار ، وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن
تتعرف إلى فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء .

إلهى ، كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك ، وكلما أياستنى أوصافى
أطمعتنى منك .

إلهى ، من كانت محاسنه مساوىء فكيف لا تكون مساوئه مساوىء ؟
ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى ؟
إلهى ، حكمك النافذ ، ومشيتك القاهرة لم يتركها لذى مقال مقالاً ،
ولا لذى حال حالاً .

إلهى ، كم من طاعة بنيتها ، وحالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدلك ،
بل أقالنى منها فضلك .

إلهى ، إِنَّكَ تعلم وإن لم تدم الطاعة مِنِّى فعلاً جزماً فقد دامت محبةً وعزماً .

إلهى ، كيف أعزم ، وأنت القاهر ، وكيف لا أعزم وأنت الأمر .

إلهى ، ترددى إليك فى الآثار يوجب بعد الزار ، فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك .

إلهى ، كيف يُستدلّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ أَيْكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟ إلهى ، عَمِيتْ عين لا تراك عليها رقيباً ، وخسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبك نصيباً .

إلهى ، أُمِرْتُ بالرجوع إلى الآثار ، فارجعنى إليها بكسوة الأنوار ، وهداية الاستبصار ، حتى أرجع إليك منها كما دخلتُ إليك منها مَصُونُ السِّرِّ عن النظر إليها ، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، إِنَّكَ على كل شئ قدير . إلهى ، هذا ذُلٌّ ظاهرٌ بين يَدَيْكَ ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، منك أطلب الوصول إليك ، وبك أَسْتَدِلُّ عليك ، اهْدِنِى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك .

إِلَهِي ، عَلَّمَنِي مِنْ عِلْمِكَ الْخَزُون ، وَصُنِّي بِسِرِّ اسْمِكَ الْمَصُون .
إِلَهِي ، حَقَّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقَرَب ، وَاسْلُكْ بِي مَسَالِكَ أَهْلِ الْجَذَب .
إِلَهِي ، أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ عَنْ تَدْبِيرِي ، وَبِاخْتِيَارِكَ لِي عَنْ اخْتِيَارِي ،
وَأَوْقِفْنِي عَلَى مَرَائِزِ اضْطِرَارِي .

إِلَهِي ، أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي ، وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشُرْكِي قَبْلَ حُلُولِ
رَمْسِي ، بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَاَنْصُرْنِي ، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكْلَنِي ، وَلِجَنَابِكَ أَنْتَسِبُ
فَلَا تَبْعُدْنِي ، وَبِبَابِكَ أَقِفْ فَلَا تَطْرُدْنِي ، وَإِيَّاكَ أَسَالُ فَلَا تُخَيِّبْنِي ، وَفِي فَضْلِكَ
أَرْغَبُ فَلَا تَحْرَمْنِي .

إِلَهِي ، تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ ، فَكَيْفَ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي ؟
أَنْتَ الْغَنَى بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ النَّفْعُ مِنْكَ ، فَكَيْفَ لَا تَكُونَ غَنِيًّا عَنِّي ؟
إِلَهِي ، إِنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ غَلِبْنِي ، وَإِنْ الْهَوَى بَوثَاقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي ،
فَكُنْ أَنْتَ النَّصِيرُ لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي فِي نَفْسِي ، وَتَنْصُرْ بِي ، وَأَغْنِنِي بِجُودِكَ
حَتَّى أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلْبِي ، أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقَتْ الْأَنْوَارُ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ
حَتَّى عَرَفُوكَ ، وَوَحَدُوكَ ، وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ مِنْ قُلُوبِ أَحِبَّابِكَ حَتَّى
لَمْ يَجْبُوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ ، أَنْتَ الْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشْتَهُمْ
الْعَوَالِمَ ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى اسْتَبَانَتْ لَهُمُ الْمَعَالِمُ ، مَاذَا وَجَدَ مِنْ فَقْدِكَ ،
وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟ لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلًا ، وَلَقَدْ خَسِرَ
مَنْ بَغَى عَنْكَ حَوْلًا .

إلهى ، كيف يرْجى سِواك وأنت الذى ما قطعت الإحسان ؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان ؟ يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين ، ويا من ألبس أوليائه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين ، أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين ، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين ، وأنت الجواد بالعطايا من قبل طلب الطالبين ، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين .

إلهى ، اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك ، واجذبنى بمنتك حتى أقبل عليك .

إلهى ، إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك ، كما أن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك .

إلهى ، قد دفعتنى العوالم ، وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك .

إلهى ، كيف أخيب وأنت أملى ؟ أم كيف أهان وعليك متكى ؟

إلهى ، كيف أستعز وفى الذلة أركزتنى ؟ أم كيف لا أستعز وإليك نسبتنى ؟

إلهى ، كيف لا أفقر وأنت الذى فى الفقر أقمتنى ؟ أم كيف أفقر وأنت الذى بجُودك أغنيتنى ؟ أنت الذى لا إله غيرك ، تعرفت لكل شىء فما جهلك

فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم (للجاحظ)

« كَلَامُهُ ﷺ هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي قَلَّ عَدَدُ حُرُوفِهِ ، وَكَثُرَ عَدَدُ مَعَانِيهِ ، وَجَلَّ عَنِ الصَّنْعَةِ ، وَنَزَهُ عَنِ التَّكْلِيفِ ، وَكَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ : (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) فَكَيْفَ وَقَدْ عَابَ التَّشْدِيقَ ، وَجَانِبَ أَصْحَابَ التَّقْيِيرِ ، وَاسْتَعْمَلَ الْمَبْسُوطَ فِي مَوْضِعِ الْبَسْطِ ، وَالْمَقْصُورَ فِي مَوْضِعِ الْقَصْرِ ، وَهَجَرَ الْغَرِيبَ الْوَحْشَى ، وَرَغِبَ عَنِ الْهَجِينِ النَّسَوِيِّ ، فَلَمْ يَنْطِقْ إِلَّا عَنْ مِيرَاثِ حِكْمَةٍ ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ إِلَّا بِكَلَامٍ قَدْ حُفَّ بِالْعَصْمَةِ ، وَشِيدَ بِالتَّأْيِيدِ ، وَيُسَّرُّ بِالتَّوْفِيقِ ، وَأُلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْمَحَبَّةَ ، وَغَشَّاهُ بِالْقَبُولِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ الْمَهَابَةِ وَالْحَلَاوَةِ ، وَبَيْنَ حَسَنِ الْإِفْهَامِ وَقِلَّةِ عَدَدِ الْكَلَامِ ، وَمَعَ اسْتِغْنَائِهِ عَنْ إِعَادَتِهِ ، وَقِلَّةِ حَاجَةِ السَّامِعِ إِلَى مَعَاوَدَتِهِ ، لَمْ تَسْقُطْ لَهُ كَلِمَةٌ ، وَلَا زَلَّتْ بِهِ قَدَمٌ ، وَلَا بَارَتْ لَهُ حُجَّةٌ ، وَلَمْ يَقَمْ لَهُ خَصْمٌ ، وَلَا أَفْحَمَهُ خَطِيبٌ ؛ بَلْ يَبْذُ الْخُطْبُ الطَّوَالَ بِالْكَلَامِ الْقَصِيرِ ، وَلَا يَلْتَمِسُ إِسْكَاتِ الْخَصْمِ إِلَّا بِمَا يَعْرِفُهُ الْخَصْمُ ، وَلَا يَحْتَجُّ إِلَّا بِالْصِّدْقِ ، وَلَا يَطْلُبُ الْفَلَجَ ^(١) إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَسْتَعِينُ بِالْخَلَابَةِ ^(٢) ، وَلَا يَسْتَعْمَلُ الْمَوَارِبَةَ ^(٣) ، وَلَا يَهْمِزُ وَلَا يَلْمِزُ ، وَلَا يُطَيِّئُ وَلَا يَعْجَلُ ، وَلَا يُسْهَبُ وَلَا يَحْصُرُ ^(٤) وَمَا سَمِعَ كَلَامٌ قَطُّ أَعَمَّ نَفْعًا وَلَا أَصْدَقَ لَفْظًا ، وَلَا أَعْدَلَ وَزْنَ ، وَلَا أَجْمَلَ مَذْهَبًا ، وَلَا أَكْرَمَ مَطْلَبًا ، وَلَا أَحْسَنَ مَوْقِعًا ، وَلَا أَسْهَلَ مَخْرَجًا ، وَلَا أَفْصَحَ عَنْ مَعْنَاهُ ، وَلَا أَبْيَنَ فِي فُحْوَاهُ ، مِنْ كَلَامِهِ ﷺ » .

(١) الْفَلَجُ : الظُّفْرُ عَلَى الْخَصْمِ .

(٢) الْخَلَابَةُ : الْخِدَاعَةُ بِبَرِيقِ الْحَدِيثِ .

(٣) الْمَوَارِبَةُ : الْخِدَاعُ .

(٤) يَحْصُرُ : يَعْجِزُ عَنِ الْكَلَامِ .

ومن خطبه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم قوله : « إِنْ الرَّائِدُ ^(١) لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، وَاللَّهُ لَوْ كَذَبَ النَّاسُ مَا كَذَبْتُمْ ، وَلَوْ غَرَّرْتُ ^(٢) النَّاسَ مَا غَرَّرْتُكُمْ ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ حَقًّا ، وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، وَاللَّهُ لَتَمُوتَنَّ كَمَا تَنَامُونَ ، وَلَتَبْعُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ ، وَلَتَحَاسِبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلَتَجْزُونَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا ، وَبِالسُّوءِ سُوءًا ، وَإِنَّمَا لِلْجَنَّةِ أَبَدًا أَوْ النَّارِ أَبَدًا ، وَإِنْكُمْ لِأَوَّلٍ مِنْ أَنْذَرٍ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ ^(٣) » .

وقوله أيضا :

« كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ عَلَى غَيْرِنَا وَجِبَ ، وَكَأَنَّ الَّذِينَ نُشِيعُ مِنَ الْأَمْوَاتِ ^(٤) سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ، نَبِوُّهُمْ أَجْدَائِهِمْ ، وَنَأْكُلُ تَرَاثِهِمْ ^(٥) لِأَنَّا مَخْلُدُونَ بَعْدَهُمْ ، قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ ، وَأَمْنًا كُلَّ جَائِحَةٍ ^(٦) ، طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ ، وَأَنْفَقَ مِنْ مَالٍ اكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذِّلِّ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفَقْهِ وَالْحِكْمَةِ ، طُوبَى ^(٧) لِمَنْ أَذَلَّ نَفْسَهُ ، وَحُسِّنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَصَحَّتْ سَرِيرَتُهُ ، وَعُزِلَ عَنِ النَّاسِ شَرًّا ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ ^(٨) مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَوَسَّعَتْهُ السَّنَةُ ، وَلَمْ يَعْذُهَا إِلَى الْبَدْعَةِ » .

(١) الرائد : الذى يرسل فى التماس النجعة وطلب الكلا .

(٢) غره غروراً : خدعه .

(٣) أول من أنذر بين يدي عذاب شديد : أى أنكم أول من أنذر قريباً من يوم القيامة الذى يكون فيه العذاب الشديد .

(٤) سفر : مسافرون .

(٥) التراث : الميراث .

(٦) الجائحة : المصيبة تحمل بالرجل فى ماله فتجتاحه كله .

(٧) طوبى : خير وجسن .

(٨) الفضل من ماله : ما زاد عن حاجته .

من البيان والتبيين للجاحظ (★)

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل^(١)
ونعوذ بك من التكلّف لما لا نُحسّن ، كما نعوذ بك من العُجب بما نحسن ،
ونعوذ بك من السّلاطة والهُذر^(٢) ، كما نعوذ بك من العي والحصر^(٣) ،
وقديماً ما تعوذوا بالله من شرهما ، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما .

وقد قال النمر بن تولب^(٤) :

أَعِذْنِي رَبِّ مِنْ حَصْرٍ وَعِيٍّ ومن نفس أَعَالِجُهَا علاجاً

وقال مكّي بن سودة (البرجمي) :

حَصْرٌ مُسْنَبٌ جَرَى جَبَان خَيْرٌ عِيٍّ الرِّجَالِ عِيٌّ سَكُوتٌ^(٥)

(★) هو أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى ، ولد بمدينة البصرة وتربى ،
بها ودرس هناك كل ما كان ذاتعاً من العلوم والفنون فى أيامه ، ولازم إبراهيم بن يسار النظام ، المتكلم
المعتزلى ، ومات وأخذ عنه حتى صار زعيم فرقة تنسب إليه ، وعرف كثيراً من كبار الكتاب والمترجمين
والفرس وغيرهم ، وقرأ كل ما ترجم فى زمانه ، ووقع عليه نظره ، فكان من كبار العلماء والكتاب بالبصرة
سنة ٢٢٥ هـ .

(١) يستعِذ من فتنة القول والعمل ؛ لأن المرء إذا فتنه شيء من قوله أو عمله جن به جنوناً ، وملك
عليه حواسه ، فيصبح فى حالة لا يستطيع معها أن يميز خبيثه من طيبه ، ولا خطأه من صوابه .

(٢) السلاطة : البذاءة . والهذر : الإكثار من فضول الكلام الذى لا خير فيه .

(٣) العي : فقدان الإبانة عما يخالف النفس . والحصر : محاولة التعبير وانعقاد اللسان عن المراد .

(٤) هو النمر بن تولب العكلى ، شاعر جواد مخضرم ، نشأ فى الجاهلية وأدرك الإسلام ، ووفد على
النبي ﷺ ، وأسلم ، وهو من المعدودين فى الصحابة ، وكان من أجود العرب المذكورين وفرسانهم
المشهورين ، وكان شاعراً فصيحاً وشجاعاً بأسلاً ، وكان أبو عمرو بن العلاء يلقبه (الكيس) لجودة شعره
وسلامة عباراته .

(٥) يعنى أن أحسن ما يكون عليه الرجل العي أن يكتر من صمته وسكوته ، ففى ذلك سلامته وأمنه ،
ويروى : عي السكوت .

وقال الآخر :

مَلَىءُ يُّبْهَرُ وَالتِّفَاتِ وَسَعْلَةٌ

ومما ذموا به العيَّ قوله :

وما بى من عىّ ولا أنطق الخنّا

وقال الراجز وهو يمتح بدلكوه (٣) :

عَلِقَتْ يَا حَادِثَ عِنْدَ الْوَرْدِ بَجَابِيءٍ لَا رِفْلَ التَّرْدِي (٤)

ولا عيى بابتناء المجد

وهذا كقول بشار الأعمى (٥) :

وعِى الْفِعَالِ كَعِى الْمَقَالِ وفى الصمّت عىّ كَعِى الْكَلَمِ

وهذا المذهب شبيه بما ذهب إليه شُثَيْمُ بن خُوَيْلِدُ الفزارى فى قوله :

ولا يشعَبون الصَّدْعَ بعد تَفَاقَمِ (٦)

وفى رِفْقِ أَيْدِيكُمْ لِذِي الصَّدْعِ شَاعِبِ

(١) البهر : تنابع للنفس ، وهو الربو . والالتفات : يراد به الاستنجاد والاستعانة ، وهو لما به كثير للسعال ، لا يفتر عن مسح لحيته بيده ، ولا عن قتل أصابعه .

(٢) لا ينطق الخنّا : لا يقول الفحش . الخطب : الأمر العظيم والحادث الجلل .

(٣) يمتح : يستقى بدلكوه .

(٤) الجبابىء : القادم المفاجئ ، لا رفل التردى : لا يجر ذيل ثوبه خيلاء . والتردى : الاشتغال بالرداء ، وقيل غير جاهل بخطر السقوط .

(٥) هو بشار بن برد ، ومحلّه فى الشعر وتقدمه فى الإبداع أشهر من أن يدل عليه ، وهو زعيم للشعراء المحدثين بلا منازع ، شاع ذكره وذاع أمره فى الدولتين الأموية والعباسية ، وأخذ سنّى الجوائز من خلفائهما ، وكان مرهوب الجانب مخشى اللسان ، ولد سنة ٧٦ هـ - ٦٩٥ م ومات تحت سياط المهدي سنة ١٦٨ هـ - ٧٨٤ م .

(٦) شعب الصدع : لأمه . وتفاقم الأمر : جل الخطر واتسع الخرق على الرافق . يقول إن أعداءكم لا يصلحون فاسداً ، أما أنتم ففى أيديكم صلاح كل فاسد ، ورأب كل متصدع .

وهذا كقول زيان بن سيَّار^(١) :

وَلَسْنَا كَأَقْوَامٍ أَجَدُّوا رِيَّاسَةً
يُرِغُونَ فِي الْخِصْبِ الْأُمُورِ وَنَفْعُهُمْ
وَقَلْنَا بِلَا عِيٍّ وَسُسْنًا بِطَاقَةٍ
إِنْهُمْ يَجْعَلُونَ الْعَجْزَ وَالْعِيَّ مِنَ الْخُرْقِ ، كَانَا فِي الْجَوَارِحِ أَمْ فِي الْأَلْسَنَةِ ،
وَقَالَ ابْنُ أَحْمَرَ الْبَاهِلِيُّ^(٤) :

لَوْ كُنْتُ ذَا عِلْمٍ عَلِمْتُ وَكَيْفَ لِي
بِالْعِلْمِ بَعْدَ تَدَبُّرِ الْأَمْرِ^(٥)
وَقَالُوا فِي الصَّمْتِ كَقَوْلِهِمْ فِي النُّطْقِ . قَالَ أَحْيَحَةُ بْنُ الْجُلَّاحِ^(٦) :
وَالصَّمْتُ أَحْسَنُ بِالْفَتَى
وَالْقَوْلُ ذُو خَطْلٍ إِذَا
وَقَالَ آخَرُ :

جَمَعْتُ صُنُوفَ الْعِيِّ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ
وَكُنْتُ حَرِيًّا بِالْبَلَاغَةِ مِنْ كُتُبِ

(١) هو زيان بن سيَّار بن عمرو بن جابر أحد بني مازن بن فزارة شاعر جاهلي ، كانت بينه وبين الحادرة الذيباني وعيينة بن حصين ، منافرات .

(٢) أجدوا رياسة : استحدثوا لأنفسهم مجدداً ، أو رفعتهم الأقدار من الخضيض إلى مقام الأمرين الناهين ، فهم يدلون على الناس بوفرة أموالهم ، دون أن يكون لهم في البر والخير وإسداء المعروف يد .

(٣) يريغون : يطلبون خلصة . الأموال هنا : الإبل .

(٤) هو عمرو بن أحمر بن العمر الباهلي . قال محمد بن سلام : كان صحيح الكلام كثير الغريب .

(٥) بعد تدبر الأمر : بعد فواته يقال : عرف الأمر تدبراً أي بآخره . قال أكتثم بن صيفي لبنيه : لا تتدبروا أعجاز أمور قد ولت صدورها .

(٦) هو أبو عمرو أحيحَة بن الجلاح بن الحريش بن حجبى ، سيد الأوس وأعز أهل يثرب في الجاهلية ، وكان من فرسان العرب وقرومهم وأجوادهم . وكان شاعراً مفوهاً ، وله أحداث وخطوب مع تبع بن حسان ملك اليمن . ومع الحرث بن ظالم المزي . بما هو معروف مشهور . ويروى : والمصمت أجمل بالفتى . وكلاهما حسن .

أَبُوكَ مُعِمٌّ فِي الْكَلَامِ وَمُخُولٌ وَخَالِكَ وَثَّابُ الْجَرَائِمِ فِي الْخُطْبِ^(١)
وَقَالَ حُمَيْدُ الْأَرْقَطِ^(٢) :

أَتَانَا وَلَمْ يَغْدِلْهُ سَحْبَانُ وَائِلٍ بَيَانًا وَعِلْمًا بِالَّذِي هُوَ قَائِلٌ^(٣)
فَمَا زَالَ عَنْهُ اللَّقْمُ حَتَّى كَانَهُ مِنْ الْعِيِّ لَمَّا أَنْ تَكَلَّمَ بِاقِلٍ^(٤)
(يَقُولُ وَقَدْ أَلْقَى الْمَرْسِيَّ لِلْقِرَى أَبْنُ لِي مَا الْحَجَّاجُ بِالنَّاسِ فَاعِلٌ)^(٥)
وَقَالَ آخَرُ :

مَاذَا رُزِّنَا مِنْكَ أُمَّ الْأَسْوَدِ مِنْ رَحَبِ الصَّدْرِ وَعَقْلٍ مُتَدِ
وَهِيَ صَنَاعٌ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ^(٦)

(١) يقول : كان المنتظر منك أن تكون بليغاً مفوهاً ، وأن تثبت إرثك لأبيك الذي كان بليغاً ، والذي ورث البلاغة في الكلام عن عمه وخاله ، فكان يجب عليك أن تثبت أنك من سلالة هؤلاء البلغاء ، ولا سيما وأن خالك قد شهر باستنباط أصول الخطب ، وإبانة بلاغتها في براعة وإحسان .

(٢) هو حميد بن مالك ، أحد بني كعب ربعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وإنما لقب بالأرقط لأنار كانت بوجهه ، كان من الشعراء والبلغاء ، والرجاز الأبناء ، عاصر العجاج الراجز في عهد عبد الملك وولاية الحجاج للعراقين .

(٣) هو سحبان بن زفر إياس الوائلي ، كان من ألسنة العرب في الجاهلية ، وخطباء الناس في الإسلام ، وكان يضرب بلسانه وفصاحته المثل ، فيقال : (أخطب من سحبان وائل) قال الجاحظ : سحبان وائل مثل في البيان . قيل إنه خطب بين يدي معاوية في وفود خراسان من صلاة الظهر إلى صلاة العصر ، ما توقف ، ولانحنج ، ولا سعل ، مات سنة ٥٤ هـ - ٦٧٣ م .

(٤) اللقم : تتابع الأكل ، وملء الفم باللقم عند الطعام ، وياقل : وهو ابن عمرو بن ثعلبة الإباضي ، قال الجاحظ : ياقل مثل في العي . وقال أبو عبيدة : بلغ من عي ياقل أنه اشترى ظلياً بأحد عشر درهماً ، فلقبه شخص فقال له : بكم اشتريته ؟ ففتح كفيه وفرق أصابعه وأخرج لسانه ، يشير بذلك إلى أحد عشر نوذب الظبي وافلت من يده ، فضرب به المثل في العي .

(٥) أضفنا هذا البيت إلى أخويه ليتم به الكلام ، وهو لحميد من قصيدته التي منها البيتان .

(٦) يصف هذه المرأة بالحذق والمهارة في كثير من الصفات الجيدة .

قال : وقيل لبزر جَمَهْرُ بن البَخْتِكَانِ الفارسيّ^(١) أى شىءٍ أَسْتَرُ للعى ؟
قال : عقل يُجَمِّلُهُ ، قيل : فإن لم يكن له عقل ؟ قال : فمالٌ يَسْتَرُهُ ،
قيل :

فإن لم يكن له مال ؟ قال : فإخوانٌ يُعْبِرُونَ عنه ، قيل : فإن لم يكن له
إخوان يعبرون عنه ؟ قال : فيكون ذا صمت ، قيل : فإن لم يكن ذا صمت ؟
قال : فموتٌ وحىٌ خيرٌ له من أن يكون فى دار الحياة^(٢) .

وسأل الله موسى بن عمران - عليه السلام - حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ
رسالته ، والإبانة عن حجته ، والإفصاح عن أدلته ، فقال حين ذكر العقدة
التي كانت فى لسانه ، والحُبْسة^(٣) التي كانت فى بيانه :

(وَأَحْلَلْتُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٣٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي) .

وأنبأنا الله تبارك وتعالى عن تعلق فرعون بكل سبب ، واستراحته إلى
كل شغب ، ونبهنا بذلك على مذهب كل جاحد معاند ، وعلى كل محتال
مكايد ، حين خبرنا بقوله : (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) .

(١) هو بزر جمهر بن البختكان حكيم الفرس المشهور ووزير الملك العادل فيهم كسرى أنو شروان ،
كان فيما قيل راجع العقل ، شديد الرأي ، قوي الطبع ، وقد روى عنه كلام كثير تراه منشوراً فى شتى
الكتب والأسفار . وأرى أن أكثر ما نسب إليه منحول ، وقد أخذ المبرد هذه الجملة فمسحها ورواها هكذا
وقال بعض الملوك لبعض وزرائه وأراد محنته . ما خير ما يرزقه العبد ؟ قال : عقل يعيش به . قال : فإن
عدمه ؟ قال : فأدب يتحلى به . قال : فإن عدمه ؟ قال فمال يستره قال : فإن عدمه ؟ فصاعقة تحرقه فتريح
منه العباد والبلاد .

(٢) وحى : سريع عاجل .

(٣) الحبسة : هى توقف اللسان عن الانطلاق فى الكلام .

وقال موسى عليه السلام : (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي)
وقال : (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي) رغبة منه في غاية الإفصاح
بالحجة ، والمبالغة في وضوح الدلالة ، لتكون الأعناق إليه أميل ، والعقول
عنه أفهم ، والنفوس إليه أسرع ، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة ، ويبلغ
أفهامهم على بعض المشقة .

ولله عز وجل أن يمتحن عباده بما يشاء من التخفيف والتثقيل ، ويبلو
أخبارهم كيف أحب من المكروه والمحبوب ، ولكل زمان ضرب من
المصلحة ، ونوع من المحنة ، وشكل من العبادة .

ومن الدليل على أن الله عز وجل حل تلك العقدة ، وأطلق ذلك
التعقيد ، والحُبسة ، قوله : (رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي)
(٣٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٣٨) وَاجْعَلْ لِّي زَيْرًا مِّنْ أَهْلِي (٣٩) هَارُونُ أَخِي (٤٠) اسْتَدْبَيْتُهُ أَزْرَى (٤١) وَأَسْرَفْتُ فِي أَمْرِي (٤٢)
إلى قوله : (قَدْ أُوْتِيتَ سؤْلُكَ يَٰمُوسَىٰ) فلم تقع الاستجابة على شيء
من دعائه دون شيءٍ لعموم الخبر .

وذكر الله تبارك وتعالى جميل بلائه في تعليم البيان ، وعظيم نعمته في
تقويم اللسان ، فقال : (أَلرَّحْمَنُ ۖ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) وقال :
(هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ) ومدح القرآن بالبيان والإفصاح ، وبحسن التفصيل ،
والإيضاح ، وبجودة الإفهام ، وحكمة الإِبلاغ ، وسماه فرقاناً ، كما سماه
قرآنًا ، وقال : (عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) ، وقال : (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)
وقال : (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) ، وقال : (وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَيْنَاهُ
تَفْصِيلًا) .

وذكر الله تعالى لنبيه حال قريش فى بلاغة المنطق ، ورجاحة الأحلام ،
وصحة العقول وذكر العرب وما فيها من الدهاء ، والذكاء ، والمكر ،
ومن بلاغة الألسنة ، واللّد عند الخصومة ، فقال تعالى :
(فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ) وقال : (لِيَتَذَكَّرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا)
وقال : (وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) ، وقال :
(أَلَيْهِنَّ خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خِصْمُونَ) ، ثم ذكر خلافة
الستهم ، واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم ، فقال : (إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ) ،
ثم قال : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) مع قوله : (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ
لِيفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ) .

وقال الشاعر فى قوم يحسنون فى القول ويسيثون فى العمل ، قال أبو حفص
(عمر بن عثمان الشمرى) : أنشدنى الأصمعى للمكعب الضبى (١) .

(١) المكعب الضبى اسمه حديث ، روى أن هذا البيت من قصيدة قالها مجز بن المكعب
الضبى وهو جاهلى وكان قد نزل يمينى عدى بن جندب فأغار على إبله بنو عمرو بن كلاب فاستغاث ببنى
عدى فتباطؤوا عنه وأغاثه مخارق ومساحق ابنا شهاب المازنى فردا عليه إبله ، فقال يهجو بنى عدى ويمدح
بنى مازن :

أبلغ عديا حيث شطت بها التوى	فليس لدهر للطالبين فناء
أخير من لاقيت أن قد وفيتم	ولو شئت قال المخبرون أساءوا
لهم ريثة تعلوا صريحة أمرهم	وللأمر يوماً راحة فقضاء
كسالى إذا لاقيتهم غير منطق	يلهى به الحروب وهو عناء
ولانى لأرجوكم على بطاء سعيكم	كما فى بطون الحاملات رجاء
فهلا سعيتم سعى أسرة مازن	وهل كفلانى فى الوفاء سواء
كان دنائيرى على قسماهم	وإن كان قد شف الوجوه لقاء
لهم أذرع باد نواشر لحمها	وبعض الرجال فى الحروب غشاء

كُسَالَى إِذَا لَا قَيْتَهُمْ غَيْرَ مَنْطِقٍ يُلْهَى بِهِ الْمَخْرُوبُ وَهُوَ عَنَاءٌ
وقيل لذوهمان : ما تقول فى خزاعة ؟ قال : جوعٌ وأحاديث .

وفى شبيهه بهذا المعنى قال أفنون بن صريم التغلبى^(١)

لَوْ أَنَّنَى كُنْتُ مِنْ عَادٍ وَمِنْ إِرَمٍ غَذَى قَيْلٍ وَلُقْمَانٍ وَذَى جَدَنٍ
لَمَّا وَقَوْا بِأَخِيهِمْ مِنْ مُهَوَّلَةٍ أَخَا السُّكُونِ وَلَا حَادُوا عَنِ السُّنَنِ
أَنْنَى جَزَوْا عَامِرًا سُوءًا بِفَعْلِهِمْ أَمْ كَيْفَ يَجْزُونَنى السُّوَاىَ مِنَ الْحَسَنِ
أَمْ كَيْفَ يَنْفَعُ مَا نَعْطِى الْعُلُوقَ بِهِ رَثْمَانِ أَنْفٍ إِذَا مَا ضَنَّ بِاللَّبَنِ^(٢)

ولأن العرب تجعل الحديث والبسط، والتأنيس بالبشر، من حقوق القرى
ومن تمام الإكرام . قالوا : « من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة
الحديث عند المؤاكلة » ، وقال شاعرهم وهو عروة بن الورد :

سلى الجائع الغرثان يا أُمَّ مُنْذَرٍ^(٣) إِذَا مَا أَتَانِى بَيْنَ نَارِى وَمَجْزَرِى
هل أبسط وجهى ، إِنَّهُ أَوَّلُ الْقَرَى وَأَبْذَلُ مَعْرِوفِى لَهُ دُونَ مُنْكَرِى ؟

(١) أفنون ، هو صريم بن معشر وهو شاعر جاهلى قديم ، زعموا أنه لقي بعض الكهان فأنذره بأن
ملاكه سيكون من لدغة تصيبه ، فكان لا ينام إلا على ظهر راحلته ، فبينما هو ذات ليلة على ناقته وهى
ترعى تعلقت حية بمشفرها فإضطربت ورمت بها إليه فلدغته فلما أحس الموت قال :

لعمرك ما يدرى الفتى كيف يتقى إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهَ وَاقِيًا
ثم خر صريعاً لساعته ، وذلك حوالى سنة ٥٦٧م .

(٢) قال الجاحظ : رثمان أصله الرقة والرحمة ، والرءوم أرق من الرءوف ، فقال (رثمان أنف) كأنها
تبر ولدها بأنفها وتمنعه اللبن . قلت : والبيت مثل يضرب لمن يعد بالجميل وهو مضمّر عدم الوفاء .

(٣) أم منذر : هى زوج عروة بن الورد .

وقال الآخر^(١) .

لِحافِي لِحافِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مَقْنَعٌ
أَحَدْتُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقِرَى وَتَعْلَمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ
ولذلك قال عمرو بن الأهتم^(٢) .

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا ميت صالح وصديق
وقال آخر (وهو إسحاق بن حسان الخزيمى) :

أُضاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ أَنْزَالِ رَحْلِهِ وَيَخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلَّ جَدِيدُ
وما الخصب للأضياف أن يكثُر القِرَى وَلَكِنَّمَا وَجْهَ الْكَرِيمِ خَصِيبُ

ثم قال الله تبارك وتعالى فى باب آخر من صفة قريش والعرب : (أَمْ تَأْمُرُهُمْ
أَحْلَسُهُمْ بِهِذَا) ، وقال : (فَأَعْبِرُوا يَا أُوْلِيَ الْأَبْصَارِ) (الحشر) ، وقال :
(أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلِ) (الفرقان - ٩) ، وقال : (وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِلْتَّزْوَلِ
مِنْهُ الْجِبَالُ) (إبراهيم ٤٦)

وعلى هذا المذهب قال : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُرْقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ) ،
(ن - ٥١)

وقد قال الشاعر :

يَتَقَارِضُونَ إِذَا التَّقَوُّا فِي مَوْقِفٍ نَظَرًا يُزِيلُ مَوَاقِعَ الْأَقْدَامِ

(١) هو عروة بن الورد العيسى ، وكان من الأجواد الفرسان الصعاليك فى الجاهلية . ويروى : فراشى
فراش الضيف .

(٢) والأهتم هو سنان المنقرى التميمى ، وكان من سادات تميم وخطبائهم وشعرائهم وذوى اللسن
والفصاحة وقوة البيان فى الجاهلية والإسلام ، وهو صاحب الحديث المشهور مع الزبرقان بن بدر بين يدى النبى
ﷺ ، وله مواقف مشهورة ، وكلام مروى مذكور . توفى سنة ٥٧ هـ . ٦٧٦ م

وقال تبارك وتعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ؛ لأن مدار الأمر على البيان والتبيين ، وعلى الإِفْهَام والتفهيم . وكلما كان اللسان أَيْن كان أحمد ، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد ، والمُفْهَم والمتفهم عنك شريكان فى الفضل ، إِلَّا أَنَّ الْمُفْهَم أَفْضَل من المتفهم ، وكذلك المعلم والمتعلم .

هكذا ظاهر هذه القضية ، وجمهور هذه الحكومة ، إِلَّا فى الخاص الذى لا يُذكر ، والقليل الذى لا يُشهر .

وضرب الله مثلاً لِعَى اللِّسَانِ ورداءة البيان ، حين شبه أهله بالنساء والولدان ، فقال تعالى : (أَوْ مَنْ يُنشِؤُنَا فِي الْحَلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) ، ولذلك قال النُّمْرُ بْنُ تَوَلْبٍ :

وكل خليل عليه الرعاثُ والحُبَلَاتُ ضَعِيفٌ مَلِيقٌ^(١)

وليس - حفظك الله - مضرة سلطة اللِّسَانِ عند المنازعة ، وسقطات الخطل^(٢) يوم إطالة الخطبة ، بأعظم مما يحدث عن العيى من احتلال الحجة ، وعن الحصر من فوت درك الحاجة ، والناس لا يعيرون الخرس ، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز ، وهم يذمون الحصر ، ويؤنبون العيى^(٣) .

(١) هذا البيت من كلمة قالها النمر بن تولب ، حين هجرته زوجته حجرة بنت نوفل ، وتركته ذاهبة إلى زوجها الأول . والرعات : الأقراط . والحبلات ، واحدها حبله ، وهى جنس حسن من الحلى المصنوع على شبه ثمر الطلح .

(٢) يعنى الإكثار من الكلام الفاسد .

(٣) التأنيب : اللوم والتعنيف .

فإن تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء ، وتعاطيا مناظرة البلغاء ، تضاعف عليهما الذم ، وترادف عليهما التأنيب ، ومماننة العيى الحصر للبين المصقّع^(١) فى سبيل مماننة المنقطع المفحم^(٢) للشاعر المفلق ، وأحدهما ألوم من صاحبه، والألسنة إليه أسرع .

وليس اللّجلاج والتّمّام ، والألثغ والفأفاء^(٣) وذو الحُبسة والحُكلة ، والرّثة وذو اللّفّف والعجلة فى سبيل الحصر فى خطبته ، والعيى فى مناظلة خصومه . كما أن سبيل المفحم عند الشعراء ، والبكيء عند الخطباء ، خلاف سبيل المسهب الثرثار ، والخطل المكثار .

ثم اعلم - أبقاك الله - أن صاحب التّشديق والتّقعير والتّقعيب^(٤) من الخطباء والبلغاء ، مع سماجة التكلف ، وشنعة التّزيد ، أعذر من عيى يتكلف الخطابة ، ومن حصر يتعرّض لأهل الاعتياد والدّربة ، ومدار اللّائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف ، وبيانا يمازجه التّزيد ، إلا أن تعاطى الحصر المنقوص مقام الدّرب التّام ، أقبح من تعاطى البليغ الخطيب ،

(١) المماننة : المعارضة فى جدل وحدة وخصومة . والمصقع : هو الجهير الصوت بالخطاب ، المتدفق بلا تلثم ولا تردد .

(٢) المفحم : هو الذى لا يكاد يندفع فى القول حتى يصاب بالبهو والإفحام . والمفلق الذى يندفع كالسيل الدافق لا يرده شيء .

(٣) اللّجلاج : الذى يتلجلج فى الكلام ، والتّمّام ، الذى يردد لسانه حترفى التاء والميم ، والألثغ هو الذى لا يستطيع لسانه أن يلفظ حرفى السين والراء ، وغيرهما : والفأفاء : يردد حرف الفاء فى كلامه ، عيا وحصر وكل هذا وما بعده من عيوب النطق .

(٤) التشديق : تكلف البلاغة ، والتّقعير : تكلف الكلام بأقصى قعر حلقة على مذهب الاعراب ، والتّقعيب : أن يخرج الكلام وقد جعل فمه كالقعب .

ومن تشادق الأعرابى القح ، وانتحال المعروف ببعض الغزارة فى المعانى والألفاظ . وفى التحجير والارتجال ، إنه البحر الذى لا يُنزع ، والغمر الذى لا يُسبر ، أيسر من انتحال الحصر المنخوب^(١) إنه فى مسلاخ التام الموفر^(٢) والجامع المحكك ، وإن كان رسول الله ﷺ - قد قال : « إِيَّايَ وَالتَّشَادُقُ » ، وقال : « أَبْغَضُكُمْ إِلَيَّ الثَّرَثَارُونَ الْمُتَفِيهِقُونَ » ، وقال : « مَنْ بَدَأَ جَفَا » وعاب الفدادين^(٣) والمتزידين فى جهازة الصوت ، وانتحال سعة الأشداق ، ورحب الغلاصم وهدال الشفاء ، وأعلمنا أن ذلك فى أهل الوبر أكثر ، وفى أهل المدر أقل ، فإذا عاب المدرى بأكثر مما عاب به الوبرى ، فما ظنك بالمولد القروى ، والمتكلف البدوى ؟ فالحصر المتكلف والعمى المتزید ، ألوم من البليغ المتلف لأكثر مما عنده ، وهو أعذر ، لأن الشبهة الداخلة عليه أقوى ، فمن أسوأ حالا - أبقاك الله - ممن يكون ألوم من المتشدقين ، ومن الثرثارين المتفيهقين ، ومن ذكره النبى - ﷺ - نصّاً ، وجعل النهى عن مذهبه مفسراً ، وذكر مقتله له وبغضه إياه ؟!

ولمّا علمَ وأصلُ بنُ عطاء^(٤) أنه ألثغ فاحش اللثغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذا كان داعية مقالته ، ورئيس نحلته ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل ، وزعماء الملل وأنه لابد من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب

(١) المنخوب : الذى يصاب بالرعدة والبهر حين الكلام .

(٢) فى مسلاخ : المسلاخ الجلد . يعنى فى ثياب للدم التام الموفر فى زيه .

(٣) الفدادون : أصحاب الأصوات العالية المزعجة .

(٤) هو أبو حذيفة بن عطاء ويلقب بالغزالى لجلوسه فى سوق الغزالين عند رضيع له يعرف بابى عبد الهلالى ، وما كان لزومه لسوق الغزالين إلا ليتصدق على من يغشاه من النساء المتعفتات ، وكانت به لثغة فى الرأى قبيحة ، فكان يتجنب الرأى فى كلامه وخطبه ومحاوراته ، وكان أحد شيوخى المعتزلة ، وعلماً من أعلامهم ، مدحه بشار بن برد كثيراً ، ثم هجاه لاختلافهما فى الرأى ، وكانت بينه وبين عمرو بن عبيد أحد شيوخى المعتزلة فى مجلس الحسن البصرى مناقرة هامة فى مرتكب الكبيرة ، هل هو كافر أو فاسق ؟ أخذ عمرو بقول واصل ، وهو المنزلة بين المنزلتين ولد سنة ٨٧٠ هـ - ٦٩٩ م وتوفى سنة ١٨١ هـ - ٧٤٨ م وراجع ترجمته فى كتاب (أدب الجاحظ) .

الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج ، وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف ، وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة ، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب ، وتنشئ به الأعناق ، وتزين به المعانى .

وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام ، واللسان المتمكن ، والقوة المتصرفة ، كنحو ما أعطى الله نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسديد ، مع لباس التقوى وطابع النبوة ، ومع المحنة ، والاتساع فى المعرفة ، ومع هدى النبیین وسمت المرسلین ، وما يُغشِيهِمُ اللهُ به من القبول والمهابة ، ولذلك قال بعض شعراءِ النبى ﷺ « وهو عبد الله بن راحة الأنصارى » :

لو لم تكن فيه آياتٌ مُبَيَّنَةٌ كانت بداهته تُنبِئُكَ بالخير

اسكت يا كاذب

قصد أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، منصرفة من الحج ، سنة ثمان وتسعين للهجرة ، مدينة رسول الله - ﷺ - ؛ لزيارة قبره الشريف ، وكان معه من ذوى خاصته ، ابن شهاب الزهري ، ورجاء بن حيوة ، وقد أقام بالمدينة أياماً ، وفد إليه فى خلالها وفود الناس من كل جهة ، وأتاه فيها وجوه أهل المدينة وفقهاؤها ، وعلمائها وخيارها ، وسأل سليمان فى حديث له مع بعض هؤلاء : أما ههنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله - ﷺ - ؟ فقليل له : بلى ، ههنا أبو حازم أدرك منهم من أدرك ، وأخذ عنهم فقهه وعلمه ، ولو أرسلت إليه يا أمير المؤمنين أنك ، فبعث إليه فجاء ودخل ، وأقام ينتظر الإذن فى الجلوس ، وأبطأ عليه الإذن شيئاً ، فألقى عكازه وجلس ، وألقى عليه سليمان أول نظرة ، فأزرت عينه ، إذ رأى رجلاً أقور^(١) أعرج ، وكلمه سليمان فقال ما هذا الجفاء الذى ظهر منك يا أبا حازم وأنت الموصوف برؤية أصحاب رسول الله - ﷺ - مع فضل ودين تذكر به ؟ فقال أبو حازم : وأى جفاء رأيت منى يا أمير المؤمنين ؟ فقال سليمان : إنه أتانى الوفود ، وأتانى وجوه أهل المدينة وفقهاؤها وخيارها ، وأنت معدود فيهم ، ولم تأتنى ، فقال أبو حازم : ما جرى بينى وبينك معرفة حتى أتيتك عليها ، ولا لى عندك حاجة فأنا أطلبها ! وسمع سليمان هذا الكلام فاستوى فى مجلسه وقال : صدق الشيخ ، ثم قال : يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم أخربتم آخرتكم ، وعمرتم دنياكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب ! ، قال سليمان : صدقت

(١) أقور : أعور ..

يا أبا حازم ، فكيف القدوم على الآخرة ؟ قل : نعم ، أما المحسن . فإنه يقدم على الآخرة كالعائب يقدم على أهله من سفر بعيد ، وأما قدوم المسيء فكالعبد الآبق ، يؤخذ فيشدّ كتافه ، فيؤتى به على سدّ فظ ، غليظ ، فإن شاء عفاً ، وإن شاء عذب ! فاستعبر سليمان ، وبكى بكاءً شديداً ، وبكى من حوله ، ثم قال : ليت شعري ، مالنا عند الله يا أبا حازم ؟ قال : اعرض نفسك على كتاب الله ، فإنك تعلم مالك عند الله . قال سليمان : وأين أُصيب تلك المعرفة ؟ قال : عند قوله تعالى : «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٧﴾» . قال سليمان : يا أبا حازم ، فأين رحمة الله ؟ قال رحمة الله قريب من المحسنين .

وسأل سليمان فقال : يا أبا حازم ، من أعقل النَّاس ؟ قال : من تعلّم العلم ، والحكمة ، وعلمها النَّاس ! قال : فمن أحق النَّاس ؟ قال : من حط في هوى رجل ، وهو ظالم ، فباع آخرته بدنياه غيره ! قال سليمان : فما أسمع الدعاء ؟ قال : دعاءُ المختبين^(٢) الخائفين . قال سليمان : فما أزكى الصدقة عند الله ؟ قال جهد المقلّ . قال سليمان : فما تقول فيما ابتلينا به ؟ قال أبو حازم : أعفنا من هذا ومن الكلام فيه ، أصلحك الله ! قال سليمان : نصيحة تلقيها ؟ فقال : ما أقول في سلطان سفكت فيه الدماء الحرام ، وقطعت به الأرحام ، وعطّلت به الحدود ، ونكثت به العهود ، وكل ذلك لجمع متاع الدنيا المشينة ، ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها !! فيا ليت شعري ، ما تقولون وما يقال لكم ؟! فقال بعض جلسائه من المنافقين : بشس ما قلت

(١) سورة الانفطار : الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) المختبين : الخاشعين .

يا أقور ! أمير المؤمنين يستقبل بهذا ؟ فقال أبو حازم : اسكت يا كاذب ،
 فإنما أهلك فرعون هامان ! إن الله أخذ على العلماء لبيئته للناس ولا
 يكتمونهم ، أى لا يبنذونه وراء ظهورهم ! . قال سليمان : يا أبا حازم ، كيف
 لنا أن نصلح ما فسد منا ؟ قال : المأخذ فى ذلك قريب يسير يا أمير المؤمنين
 . فأصغى سليمان وقال : كيف ذلك ؟ قال : تأخذ المال من حله ، وتضعه
 فى أهله ، وتكفّ عما نهيت عنه ، وتمضيها فيما أمرت به ! قال سليمان :
 ومن يطيق ذلك ؟ ! فقال أبو حازم : من هرب من النار إلى الجنة ، ونبذ
 سوء العادة ، إلى خير العبادة . قال سليمان : اصحبنا يا أبا حازم ، وتوجه
 معنا ، تصب منا ، ونصب منك . قال أبو حازم : أعوذ بالله من ذلك !
 قال سليمان : ولم يا أبا حازم ؟ قال : أخاف أن أركن إلى الذين ظلموا
 فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات ! قال سليمان : فتزورنا ؟ قال أبو
 حازم : إننا عهدنا الملوك يأتون إلى العلماء ، ولم يكن العلماء يأتون الملوك ،
 فصار فى ذلك صلاح الفريقين ، قال سليمان : فأوصنا وأوجز . قال : اتق
 الله فلا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك من حيث أمرك . قال سليمان : ادع
 لنا بخير . قال : اللهم إن كان سليمان وليك فبشره بخير الدنيا والآخرة ،
 وإن كان عدوك فخذك إلى الخير بناصيته . قال سليمان : ألف دينار هذه
 فخذها يا أبا حازم . قال : لا حاجة لى بها ، ولئن كانت ثمناً لِمَا
 سمعت : ، فأكل الميتة والدم فى حال الضرورة ، أحب إلى من أن أخذها
 !!

من أخلاق المأمون

حُكِيَ عن القاضي يَحْيَى بن أَكْثَم قال : « كُنْتُ نَائِمًا ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْمَأْمُونِ فَعَطَّشَ ، فَامْتَنَعَ أَنْ يَصِيحَ بِغُلَامٍ يَسْقِيهِ وَأَنَا نَائِمٌ فَيَنْعُصَ عَلَيَّ نَوْمِي ؛ فَرَأَيْتُهُ وَقَدْ قَامَ يَمْشِي عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ ، حَتَّى أَتَى مَوْضِعَ الْمَاءِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ الْكِيزَانُ نَحْوُ ثَلَاثِمِائَةِ خُطْوَةٍ ، فَأَخَذَ مِنْهَا كَوْزًا فَشَرِبَ ، ثُمَّ رَجَعَ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ ، حَتَّى قَرُبَ مِنَ الْفَرَاشِ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ ، فَخَطَا خُطُورَاتٍ خَفِيفَةً كَيْلًا يُنَبِّهَنِي ، حَتَّى صَارَ إِلَى فِرَاشِهِ .

» ثُمَّ رَأَيْتُهُ آخِرَ اللَّيْلِ وَقَدْ قَامَ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ ، وَكَانَ يَقُومُ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَآخِرِهِ ، وَلَمَّا أَتَى الْفَجْرُ قَعَدَ طَوِيلًا ، مُنْتَظِرًا أَنْ أَتَحَرَّكَ فَيَصِيحَ بِالْغُلَامِ ، فَلَمَّا تَحَرَّكَ وَثَبَ قَائِمًا وَصَاحَ : « يَا غُلَامُ ! » وَتَأَهَّبَ لِلصَّلَاةِ وَصَلَّى ، ثُمَّ جَاءَنِي فَقَالَ لِي : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ وَكَيْفَ كَانَ مَبِيتُكَ ؟ » قُلْتُ : « خَيْرٌ مَبِيتٍ ، جُعِلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! قَدْ خَصَّكَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ سِيرَتَهُمْ ، فَهَنَّاكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ النَّفْحَةِ وَأَتَمَّهَا عَلَيْكَ » .

» وَكُنْتُ مَعَهُ يَوْمًا فِي بَسْتَانٍ ، فَجَعَلْنَا نَمُرُّ بِالرِّيْحَانِ فَيَأْخُذُ مِنْهُ الطَّاقَةُ ، وَالطَّاقَتَيْنِ ، وَيَقُولُ لِقِيَمِ الْبَسْتَانِ : أَصْلَحْ هَذَا الْحَوْضَ ، وَلَا تَغْرَسْ فِي هَذَا الْحَوْضِ شَيْئًا مِنَ الْبُقُولِ » .

قَالَ يَحْيَى : « وَمَشِينَا فِي الْبُسْتَانِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ، وَكُنْتُ أَنَا مِمَّا يَلِي الشَّمْسَ ، وَالْمَأْمُونُ مِمَّا يَلِي الظِّلَّ ، فَكَانَ يَجْذُبُنِي لِاتِّحَاوِ أَنَا فِي الظِّلِّ وَيَكُونُ هُوَ فِي الشَّمْسِ ، فَامْتَنَعَ عَنِ ذَلِكَ ، حَتَّى بَلَّغْنَا آخِرَ الْبُسْتَانِ ، فَلَمَّا

رَجَعْنَا قَالَ : يَا يَحْيَى ! لَتَكُونَنَّ فِي مَكَانِي ، وَلَا كُونَنَّ فِي مَكَانِكَ ، حَتَّى
أَخَذَ نَصِيْبِي مِنَ الشَّمْسِ كَمَا أَخَذْتَ نَصِيْبِكَ ، وَتَأْخُذَ نَصِيْبِكَ ، مِنَ الظِّلِّ
كَمَا أَخَذْتَ نَصِيْبِي « فَقُلْتُ : « وَاللَّهِ ؛ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَفِيكَ
يَوْمَ الْهَوْلِ بِنَفْسِي لَفَعَلْتُ » . فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى تَحَوَّلْتُ إِلَى الظِّلِّ وَتَحَوَّلَ
هُوَ إِلَى الشَّمْسِ . وَقَالَ : « إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي صُحْبَةٍ مِنْ لَا يُنْصَفُ » .

الصوم تربية النفس

فرض الله الصَّيَّام في كلِّ الأديان ، فعباد الله يتبادلون هذه العبادة على صور شتى ، وضروب مختلفة ، ولكن أشق الصَّيَّام هو ذلك النوع الذى فرضه الله على المسلمين ، لأنه سبحانه أراد لهم أن يكونوا أقوى أمة مراساً ، فجعل صيامها أشدَّ أنواع الصَّيَّام .

فقد فرض الله على المسلمين صيام شهر رمضان كله ، ولا شك أن صيام شهر كامل أمر فيه مشقة كبيرة ، وفيه قهر للنفس ، وقمع لكثير من شهواتها التى لها عليها قوة وسلطان ، ولم يكلف الله المسلمين هذه العبادة لأن إعناتهم غرض من أغراضه ، والمشقة عليهم غاية من غاياته ، وإنما كان ذلك لأغراض سامية أرادها لهم وهى أغراض صحية ، وخلقية وروحية ، وقد ورد أن فى الصيام تعويد النفس على الصبر ، واحتمال المكاره ، وفى الحق أن دائرة الصبر اتسعت حتى أصبح الإنسان يرى فى كل ناحية من نواحي الحياة صبراً ، وفى كل ميدان من ميادينها جلدأ ، فمقاومة النزعات القهارة صبر ، ومجالد الأعداء الحسية والمعنوية صبر ، وتقويم النفس وتهذيبها وتعويدها أن تعرض عمّا تحب ، وتعرض عمّا تريد صبر ، وقد أفاض الكتاب فى ذلك كثيراً ، وما زالوا يبدأون ويعيدون ، ولست أحاول هنا الاستقصاء أو الإحاطة ولكنى أُنَبِّهُ إلى مقصد من الصيام أرى أنه أهم المقاصد ، وأوفى الأغراض ، وأجدر أن يتحمل الناس فى سبيله الآلام ، ويعانوا الشدائد ، ذلك هو تربية النفس وتعويدها مقاومة النزعات . وقد تعددت الوسائل فى معالجة خور الإرادة ، وضعف العزيمة ، فمن الناس من يجعل وسيلته لذلك رياضة النفس ، وتقويتها على التحمل ، والذين يؤمنون

بهذه الوسيلة ينسبون صبر الأمم فى ميادين الصراع ، وقوة مقاومتهم فى إبان الشدة إلى اتخاذهم تلك العادة وجعلها وسيلة من وسائلهم ، ومقوماً من مقومات حياتهم ، وأساساً من أسس تربيتهم التى عليها يعتمدون ، ومن الناس من يعالج ذلك فى نفسه بركوب الأخطار ، ومزاولة فنون من الرياضة ، ومنهم من يعرض نفسه لآلام جسدية شديدة ، ويصبر على تحملها صبراً شديداً ، فهذه الوسائل وغيرها على اختلافها تتجه إلى غاية واحدة ، هى تمرين النفس على تحمل أحداث الحياة التى تهزها هزاً عنيفاً ، والصمود لها ومقاومتها حتى تنجلي غواشيها .

والحياة مليئة بهذه الأحداث يتعرض لها الفرد ، وتعرض لها الأمم ، ولا يملك بنو الإنسان صرفاً لها ولا تحويلاً ، وإنما يملكون أن يعدوا لها عدتها من العزيمة الصلبة ، والإرادة القوية ، والصبر الكريم فإذا فاجأتهم العاصفة الهوجاء تركتهم قياماً ، كما تترك شجرة السنديانة لم تكسر لها جذعاً ، ولم تقصف غصناً .

والشجاعة التى هى أفضل مزايا الأفراد والشعوب مزيج من عناصر تشمل فيما تشمله قوة الاحتمال .

ونحن نحتاج إلى هذه الفضيلة فى حياتنا العادية ، كما نحتاج إليها فى أوقات المحن والكروب ، فإنك لا تستطيع أن تستبدل أسلوباً فى المعيشة بأسلوب ، ولا أن تقلع عن عادة مستحكمة إذا تقاضتكَ صحتك شيئاً من هذا إلا بفضل ما فىك من قوة مقاومة لسلطان العادة ، والنظام الذى تتبعه فى الحياة ، وكما رأينا فى الحياة أفراداً عرضوا أجسامهم للتدمير ، وسمعتهم للتمزيق ، وكانوا يبصرون بأعينهم سوء مصيرهم ، ويستمعون بأذانهم صوت

النذير ، ولكنهم لسوء حظهم فقدوا الوسيلة الوحيدة لإنقاذهم مما هم فيه ، وهى الإرادة القوية التى لا يملكها هوى ، ولا تستبد بها المادة ، ويتعلمها الإنسان من هذه الفريضة المطهرة الحكيمة ، فريضة الصوم التى أراد الله بها أن يعلم عباده قوة العزيمة ، والزهد فى مباحج الحياة ، ليكونوا رجالاً أقوياء أشداء ، وقد أظهرت المنازعات بين الأمم كثيراً من الصفات الحميدة فى بنى الإنسان ، ولا ريب أن أمجدها وأشرفها جميعاً قوة الاحتمال ، وربما وقف أنصار الحرية فى هذه المنازعات الشديدة موقفهم الذى تحملوا فيه الضربات ، وأعنف الصدمات ، التى سلطت على بعض الشعوب ، فكان لموقفهم الفضل فى إنقاذ الإنسانية من البربرية النزاعة إلى التدمير والتخريب ، وستظل هذه الصورة الرائعة من الصبر وقوة الاحتمال ، حديث العالم لآجال طويلة ، وآماد بعيدة .

فهذه الفضيلة التى استطاعت أن تقف أعظم قوة جارفة ، والتى لاذت بها الإنسانية فى أخرج ساعاتها ، هى ما قصد إليه الإسلام من الصيام ، وجعله وسيلة لها ، وصورة من صورها .

وقد حفل تاريخ المسلمين الأولين بالذين بلغت هذه الفضيلة فيهم أرقى أطوارها ، وأسمى أشكالها ، فكانوا نماذج كاملة فى الصبر . وقوة الاحتمال ، وصلابة العود عند الشدائد ، ولسنا نريد أن نسترسل فى سرد أسماء هؤلاء الأبطال ، فقد امتلأت بهم بطون الكتب ، وسيلنا هنا أن نذكر أمثلة بارزة من أولئك الذين تحققت فيهم هذه الفضيلة كاملة ، فقاموا بأعمال باهرة كرمت الإنسان ، وجعلته جديراً بالدفاع عن المثل العليا فى الحياة .

فإن منهم رجالاً كبرت همتهم ، وسمت نفوسهم وإن كان الناس لم يحفلوا بمنزلتهم فى الحياة ، ومن أمثلة ذلك بلال بن رباح ، وهو من السابقين فى الإسلام ، ولما أسلم كان المسلمون قلة ، فكان عددهم القليل يغرى المشركين بإيذائهم ، وكانت قریش تغلى حقداً على كل من أسلم ، وترك دينهم ، فهى تبالغ فى تعذيبهم ، ولا سيما المستضعفين منهم كلما وجدت فرصة .

فجعل أبو جهل يبطح بلالا على وجهه فى الشمس ، ويضع الرحى عليه حتى يصهر ويقول له : أكفر برب محمد ! فيقول بلال : أحد أحد ، وظل هذا دأبه ودأب أبى جهل معه حتى اشتراه أبو بكر رضي الله عنه بإشارة من رسول الله ﷺ ، ولقد روى الرواة أن شراءه تم وهو مدفون بالحجارة يعذب تحتها .

لقد تحملوا كل ضروب الآلام البدنية من تمزيق الأجسام فى ساحات القتال ، إلى التعذيب الوحشى الغليظ ، كما صبروا على الجوع .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : إني كنت لألصق بطنى بالحصباء من الجوع .

وقال سعد بن أبى وقاص : إنا كنا لنغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ما لا يقيم الأود .

على هذه الصورة كانت مقاومتهم لآلام الجسد ، وبنفس هذه القوة كانت مقاومتهم للشعور والشهوات .

حدث سعد بن أبى وقاص عن نفسه قال :

كنت رجلاً برُّ بأُمى ، فلمَّا أُسَلِّمْتُ قالت : يا سعد ما هذا الدين الذى أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب ، حتى أموت لتعيَّر بى ، فقال : لا تفعلنى يا أُمى ، فإننى لا أدع دينى ، قال : فمكثت يوماً لا تأكل ، فأصبحت وقبد جهدت ، فقلت : والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى هذا لشيء ، فلمَّا رأت ذلك أكلت وشربت ، وفى هذا الحادث أنزل الله الآية :

« وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ »

هنا يجد الإنسان نفسه مضطراً أن يكبر هذه النفس القوية ، وذلك الجلد الخارق الذى أشاعه الإسلام فى أهله ، فليس فى الدنيا من يحارب الغريزة التى فطر الله الإنسان عليها إلا ذلك السلطان القوى القاهر الذى يبدل النفوس ، ويحولها خلقاً آخر يلوذ بالصبر ويعتصم بالعزم :

« وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »

وحين فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس ، فرض لأُسامة بن زيد خمسة آلاف ، وفرض لابنه عبد الله بن عمر ألفين ، فقال ابن عمر : فضلت على أُسامة ، وقد شهدت ما لم يشهده فقال : إن أُسامة كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك ، وأبوه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك .

ولمَّا فتح رسول الله « خبير » اتفق هو واليهود على أن يكون ما تنبته أرضها مناصفة بينهما ، وأرسل عبد الله بن رواحة للقسم ، وتسلم نصيب

المسلمين ، فلماً مضى فى القسم منصفاً عادلاً ، حاول اليهود إغراءه بالمال ، ليتساهل فى القسم ، ليعطيهم أكبر من نصيبهم ، فجمعوا حلياً كثيراً وقدموه له ، وطلبوا أن يتساهل معهم ، فردهم قائلاً : يامعشر يهود ، أما والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلى ، وما ذلك بحاملى أن أحيف عليكم ، أما ما قدمته من الرشوة فإنه سُحت ، ونحن لا نأكله ، فقال اليهود : بهذا قامت السموات والأرض ، وكان احتقار الخلفاء الراشدين ، والقواد الكبار لمظاهر الجاه والسلطان مضرب المثل ، فابن الخطاب كان يلبس الخشن من الثياب ، وينام على التراب ، ويعيش على الصورة المتواضعة التى كان يعيش عليها قبل الخلافة ، وكان ينفر من كل مظهر يبعث فى النفس الزهو ، والخيلاء ، وحوادثه فى ذلك معروفة مشهورة .

لم يكن ابن الخطاب فريداً فى هذا المضممار فكثير من السابقين أخضعوا شهواتهم لعقولهم ، وسخرّوا نزعاتهم لدينهم ، والأمثلة كثيرة لا نطيل بذكرها .

إذا كان الناس اليوم يشغلهم حديث الأبطال الذين بهروا العالم بشدة تفانيهم ، وقوة جلدتهم ، فإنما نريد أن نريهم صورة أبهى ، وأروع مما به يلهجون ، ويحدثه يسخرون ، هى تلك الصورة التى رسمناها من صبر المسلمين الأولين ، وجلدهم ، وقوتهم ، وثباتهم ، وهى الصورة التى تعلموها من الفريضة المقدسة فريضة الصيام .

بشر فوق البشر

كما أعجز النبي - ﷺ - بالكتاب الذى أنزل عليه ، أعجز بالخلق الكامل الذى تسامى إليه ، هذه حقيقة تنتزه عن المبالغة ، وتجل عن الإسراف والتزيد ، والنبي - ﷺ - وصفه ربّ الكمالات فقال: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) وحين قال رسول الله ﷺ : « أَذْنَبَى رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِى » نسب تأديبه لربه ، وفى هذا التعبير ما يوحى بخصائص فى أدبه ، لا يستغرب معها أن يكون وحده المتحلى بها . وحين قال : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » أشار إلى أن هدف الرّسالة الأسمى ، هو التسامى بالأخلاق والقيم لأُمته ، حيث لا نبي بعده ، ومن كانت هذه ، وحدها - رسالته ، فهو الجدير بأن يكون مصدر هذه المكارم ، والمنبع الطاهر لهذه القيم ، ومتى كان مصدرها ومنبعها ، فينه وبين من ينهل منها من الفرق ما بين المعطى والآخذ . إن الصحابة قد بلغوا من الفضل والشرف والكمال مبلغاً لا يدانيهم فيه أحد ، وهم كانوا صفوة من آمنَ وصدّق ، وجاهدوا ، وافتدى ، وشاهدوا النبي فانطبعت شخصيته فى نفوسهم ، وسرت مبادئه فى قلوبهم ، وسلوكهم ، فلهم من فضل الصحبة ما ليس لغيرهم ، ومع هذه المنزلة التى سموها بها على سائر المؤمنين والمجاهدين ، هم نجوم ، والنبي ﷺ شمس تضىء ، بل منه كان نورهم ، وهم جداول ، والرسول ﷺ بحر تترامى أطرافه ، وكم فى مواقف هؤلاء - على جلالتهما ما يفصح عن جسامته البون بين طباعهم وطبعه ، واحتمالهم واحتماله ، وما كان ينزل عن رأيه لرأى منهم ، إلا لكمال تواضعه ، وحرصه على الشورى فى حياة المسلمين .

هذا رجل يتقاضاه ديناً فيسئ في قوله ويهم به أصحابه ، فيقول لهم :
(دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً) . ويغلظ له أعرابى آخر جاءه يتقاضاه
ديناً ، فيهم به عمر ، فيقول له النبى ﷺ : (مه يا عمر ، كنت أحوج
إلى أن تأمرنى بالوفاء ، وكان أحوج إلى أن تأمره بالصبر) وفى غمرات
الشدة ، ولما تكن للإسلام شوكة ، لم يفكر فى الهجرة إلى الحبشة مع من
هاجر من صحبه فيجد الأمن والسلامة .

إن النبى ﷺ صفا طبعه ، ونقى ضميره ، وطهرت عقيدته ، وشغل
منذ كان يافعاً بالبحث عن هداية الناس ، ولم يشارك قط قومه الذين نشأ
معهم ، ولم يعظم آلهتهم ، أو يجارهم فى أوهامهم ، أو يخالطهم فى
احتفالاتهم وعاداتهم وبغضت إليه الوثنية وهو فى مدارج الصبا ، ولم يأكل
مما كان يذبح من قرابين قومه ، ولم يقارف من إثم الجاهلية شيئاً فسيرته -
كما يقول الإمام محمد عبده - وأحواله قبل النبوة وبعدها ، وخلقه
العظيم ، أقوى دليل على صدق نبوته .

وصدق الجاحظ إذ يقول فى رسالة له يذكر دلائل نبوته :

وآية أخرى دالة على صدقه يعرفها الخاصة ، ومتى ذكرت الخاصة فالعامة
فى ذلك مثل الخاصة ، وهى الأخلاق والأفعال التى لم تجتمع لبشر قط
قبله ، ولا تجتمع لبشر بعده .

لم يكن فى عصر محمد ﷺ ولا ماقارب أوله وآخره من شابهه فى
فضله أو فعله أو قوله ، إنه كامل الخلقة ، سليم الفطرة ، ذكى الفؤاد ،
ذكى النفس ، قوى البيان ، أوفى جوامع الكلم ، عبقرى الرأى ، صادق

الفراسة ، معجز العفة ، والبر ، والتواضع ، والزهد ، والرحمة ،
الرفق ، والعدل ، والصدق ، والجود .

ولو استقرأ الكاتبون شمائله لما بلغوا منها إلا قليلاً ، حدثوا عن تواضعه
مثلاً أنه كان يخدم أهله ، ويخفف نعله ، ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه ،
وينام على الحصير ويتخذ الوسادة من اللِّيف .

وقيل في بعض زهده : إنه كان يحيا هو وأهله حياة خشنة قد يضيق بها
الفقراء . ولما نصره الله ورد عنه الأحزاب ، وفتح عليه النضير وقریظة ، ظن
أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم ، فقعدت حوله وقلن له : بنات
كسرى وقيصر في الحلى والخلل ، ونحن على ما ترى من الفاقة والضيق .

وإذ ذاك أوجعنه وأذينه حين رغب إليه في توسعة حالهن ، واشتد غضبه
وحزن حزناً شديداً ، وهجرهن شهراً ، حتى ظن المسلمون أنه طلقهن ،
واشتد حرجهم حتى نزل قوله تعالى : «يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُمْرَحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ
تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً »

ويحدثه عمر فيكى ويقول له الرسول ﷺ : وما يبكيك ؟ فيقول :
يارسول الله ﷺ إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله
ﷺ ، وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما
أرى ، أدع الله أن يوسع على أمتك ، فإن فارساً والروم قد وسع الله
عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله .

وكان النبي ﷺ متكئاً فجلس وقال : أو فى شك أنت يا بن الخطاب فى أن التوسع فى الآخرة خير من التوسع فى الدنيا ؟ إن أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ، ألا ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ .

وعن عدله قالوا : إنه عدل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفى يده سهم يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزية حليف بنى عدى بن النجار وهو خارج من الصف ، فطعنه رسول الله ﷺ بالسهم فى بطنه ثم قال : استو ياسواد ابن غزية . فقال : يارسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق فأقدننى . فكشف النبى ﷺ وقال : استقد منى . فاعتنق النبى ﷺ وقبل بطنه . فقال النبى ﷺ ما حملك على هذا ياسواد ؟ فقال : يارسول الله ﷺ ، حضر ما ترى ، فلم آمن الموت ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله ﷺ وقال له خيراً ، إن النبى بشر ، ولكنه فوق البشر ، ولا يبلغ القول من بيان أخلاقه الغر ، وشمائله الحسان شيئاً .

وما تطاول آمالى المديح إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم .

وما نحن إلا الحشرات ، حين ننظر إلى سمو القائد ، وضعه كثير ممن جاء بعده ، فما أحوج المسلمين إلى أن ينظروا هذه الصفحات المشرقة ، عسى أن يقبسوا من نورها ، وينهجوا نهج نبيهم بها ، حتى يخلصوا من فتن كقطع الليل ، ويوم أن نراجع أنفسنا سنصير - إن شاء الله - إلى عز بعد ذل ، وأمن بعد خوف ، وسعة بعد ضيق .

فى السنة الثانية بعد الهجرة ، والصراع قائم بين الكفر والإيمان ، غلب كفار قريش ورجع فلهم^(١) إلى مكة مذموماً مدحوراً ، بعد أن هزموا يوم بدر ، فقتل منهم من قتل وأسر منهم من أسر .

فهذا سفيان بن حرب زعيمهم يعود الخيزلى^(٢) بحزب الشيطان ، وقلوبهم تصلى ناراً وتتقد أواراً ، مما أصابهم يوم نصر الله المسلمين ببدر .

وهذا رسول الله ﷺ الكريم فى صحابته يقبل فداء الأسرى ، ويترفق بضعيفهم ، ويمن على فقيرهم ، ومن بين هؤلاء عزة الجمحى يقول : يا رسول الله ﷺ إنى فقير وذو عيال وحاجة قد عرفتها ، فامنن على ، ويفيض كرم الرسول ﷺ ، فيمن عليه ، ويعطيه مما أفاء الله .

استمرت قريش سنة تعد سلاحها ، وتؤلب عديدها ، حتى إذا كانت السنة الثالثة بعد الهجرة ، مشى عبد الله بن ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، فى رجال من قريش ، ممن أصيب آبائهم وأبناءهم وإخوانهم يوم بدر ، يحرضونهم على القتال والأخذ بالثأر ، فينادون : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وترككم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربته ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، يدب هذا النداء فى آذان القوم ، فيتبارون فى حشد الجنود ، وبذل الأموال ، فهذا جبير بن مطعم يقول لغلامه : إن قتلت حمزة عم محمد ﷺ قتل بدر فانت طليق : وهذا غيره من طغاة القوم ، يقدمون أموالهم وعبيدهم وعتادهم للقاء هذا

(١) فلهم : ما بقى من جيشهم .

(٢) الخيزلى : المشى فى تناقل .

اليوم العظيم (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْضَحْنَهَا ثُمَّ يَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ جَهَنَّمَ يَكْثُرُونَ)

وبهذا وعدهم الله ، ومن أصدق من الله قيلاً ، ولقد صدق الله وعده ، ونصر جنده يوم الفتح العظيم ، اجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ بئودها أبو سفيان ، ومعهم جمع من كنانة وأهل تهامة ، وانبت شياطينهم بفرون المقاتلين لحرب الله ، فهذا صفوان بن أمية يقبل على أبي عزة طليق بدر ، فيقول : يا أبا عزة ، إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فأخرج منا ، فيرد أبو عزة قائلاً : إن محمداً قد منَّ علىَّ فلا أريد أن أظاهر (١) عليه ، فيقول صفوان : فأعنا بنفسك ، فلك علىَّ إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبست أن أجعل بناتك مع بناتي ، ويصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر .

خرج كبار قريش ومعهم نساؤهم ، فهذه هند بنت عتبة زوج أبي سفيان احتشدت في نساء من أشراف قريش خمس الجيش ، وتنفّر المقاتلين ، وهم يخبون في سيرهم ويوضعون (٢) حتى ، تستقر رحالهم بجبل أحد (٣) مقابل المدينة ، وهذا رسول الله ﷺ الكريم في جمع من صحابته يشاروهم في الأمر ، ويحيل معهم قدامح الرأي (٤) إذ يقول : فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتلدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا ، أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا فاتسلناهم ، فينطلق عبد الله بن أبي بن سلول محبذاً رأى رسول الله ﷺ ، داعياً إلى الأخذ بما يراه ، إلا أن نفرأ عن حبس الله إليهم الاستشهاد في سبيله قالوا : يا رسول الله ﷺ ، انخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أننا جنبنا عنهم وضعفنا ، فيرد

(١) أظاهر عليه : أعين عليه .

(٢) الحجب والإيصاع : نوعان من السير

(٣) أحد : جبل تلقاء المدينة

(٤) القادح : جمع قذح ، هو ماله نصيب في السير ، المراد : أنواع التفكير .

دعوتهم عبد الله بن أبي : أن يا رسول الله ﷺ ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه . وما زال القوم في أخذ ورد ، حتى قام رسول الله ﷺ ، بعد صلاة الجمعة ، فلبس لأمته ^(١) ، وتنهياً للقتال ، فقال القوم : يا رسول الله ﷺ ، استكرهناك وليس لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » . ثم خرج الرسول ﷺ في ألف من أصحابه ، بعد أن خلف بالمدينة ابن أم مكتوم يؤم الناس في الصلاة ، حتى إذا كان الجيش بين المدينة ، أحد انخذل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الناس ، وهم بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، متعللاً بأن الرسول ﷺ قد أطاع غيره وعصاه ، ثم قال : لو نعلم قتلاً لا تبعناكم ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ ولكن عبد الله بن عمر اتبعهم يقول : يا قوم ، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونيكم ، ولكنهم ولوا عنه مدبرين ، فكان هذا جلاءً لسر كشفه رب الأرض والسموات .

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَا قَوْمِ هَيْه مَالِيسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ هَيْهَمُ وَقَعِدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتِلُوا قُلُوبَهُمْ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾)

ومضى رسول الله ﷺ - حتى نزل الشعب من أحد ، في عدوة الوادي إلى الجبل ، ثم جعل ظهره وعسكره إلى الجبل ، وقال لا يقاتلن أحد منكم حتى تأمره بالقتال .

وتعباً رسول الله ﷺ للقتال ، وهو في سبعمائة رجل ، وتعبات قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم مائتا فارس ، جاعلين على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل ، قام الرسول ﷺ ممكساً سيفاً ، فقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقال أبو دجاجة : وما حقه يا رسول الله ﷺ قال : أن تضرب به العدو حتى ينحني ، قال : أنا آخذه يا رسول الله ﷺ بحقه

(٢) اللامة : الدرع .

(١) آل عمران ، الأيتان : ١٦٧ ، ١٦٨

فأعطاه إياه ، فلماً أخذ السيف من يد الرسول ﷺ أخرج عصاة له فعصب بها رأسه ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام حينما رآه : إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن .

وهذا أبو سفيان يتقدم إلى أصحاب اللواء من بنى عبد الدار : يحرضهم على القتال ويقول : يا بنى عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتوعده وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا ! ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع ! .

وهذه هند بنت عتبة فى النسوة اللاتي احتشدن معها ، أخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال محرضات على القتال .

التحمت الموقعة ، واستعر القتال ، وحميت الحرب ، وأبو دجاجة يقاتل بسيف الرسول ﷺ ، وبينما هو فى كفاحه وجلاده ، إذا بإنسان يحرض الناس ويدفعهم دفعاً شديداً إلى قتال المسلمين ، فصمد له أبو دجاجة ، حتى إذا حمل السيف فسله على رأسه ، ولوّل وانتحب ، وضج وصخب ، فإذا هى هند بنت عتبة ، فأكرم أبو دجاجة سيف الرسول ﷺ أن يضرب به امرأة .

وهذا وحشى الحبشى يتحيز الفرص ، لينفذ إلى قتل حمزة حتى يعتق فإذا به يراه صائحاً كالجمل الأورق (١) ، فيقدم عليه وحشى ، فيطعنه بحربته فيخر صريعاً شهيداً فى سبيل الله .

(١) الأورق : ما فى لونه بياض إلى سواد .

اشتد القتال يوم أحد ، وجلس الرسول ﷺ تحت راية الأنصار ، يقوى عزم المسلمين ، ويربط على قلوبهم بالصبر والتقوى ، ويحذرهم المخالفة ، فلا يتركون مراكزهم ، ولا يغتربون ببوادر النصر ولا يؤخذون ببريق من متاع الحياة ولا يحرصون على جمع الغنائم وتعقب المشركين طمعاً فى زينة الحياة .

أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، حتى أزالوا المشركين عن عسكرهم ، وكانت الهزيمة منهم قاب قوسين أو أدنى ، وولى الكفار الأدبار ، إلا أن نزوة من النزوات الشيطانية ، وهفوة ما تزال تعترى النفس الإنسانية ، صرفت جموع المسلمين من متابعة النصر ، وموالاة المشركين حتى النهاية ، وأنستهم نصيح نبيهم ، وقد كان فى أخراهم يدعوهم : (إلى عباد الله ، إلى عباد الله!) ، فانصرفوا عنه ، وانكبوا على الغنائم ، وانخذلوا، عن موقفهم ، وعصوا أمر الرسول ﷺ :

«إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا»

وقع هذا بعد أن كان النصر معقوداً لواؤه للمسلمين ، وكان لواء الكفار مع غلام لأبى طلحة ، فقاتل حتى قطعت يده أخذه ب صدره وبرك عليه ، فأسرعت إليه عمرة بنت علقمة الحارثية ، ورفعته ، فلاذت به قريش واجتمعت تحت ظلاله .

تراجع المسلمون وخضدت شوكتهم ، وغشيهم فتور وضعف ، وداخل قلوبهم الهم ، وشغلوا عن ذكر الله ، فرجع عليهم القوم ، وكان اليوم يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله فيه من المسلمين بالشهادة ، حتى خلص العدو إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأصبحت رباعيته ، وشج وجهه ، وكلمت

شفته ، ثم شاع أن محمداً ﷺ قد قتل ، فاضطرب أمر المسلمين ، وانفرط عقدهم « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤١﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُرِدُّ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدُّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ » .

ثم أبصر كعب بن مالك الرسول ﷺ ، وعيناه ، تزدهران تحت مغفرة
(١) فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ
فلما عرف المسلمون الرسول ﷺ نهضوا به ونهض معهم نحو الشعب ،
ومعه أبو بكر وعمر وعلى وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام ، ورهط
من المسلمين فأدركه أبا بن خلف ، وهو يقول : أين محمد ﷺ ؟ لا
نجوت إن نجا ! فقال القوم : يا رسول الله ﷺ : أيعطف عليه رجل منا ؟
فقال الرسول ﷺ : دعوه ، فلما دنا تناول الرسول عليه الصلاة والسلام
حربة ضرب بها عنقه ، فكانت سبباً في موته .

ثم قَدَّمَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ مَاءً ، فغسل دمه ، ثم أَصَابَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضَعْفٌ ، فَكَانَ يَصِلِي مِنْ قَعُودٍ .

وقفت رحى الحرب بين المسلمين والكفار فى أحد ، وقد هُزم المسلمون فيها ، واستشهد منهم سبعون من الأخيار الطَّاهرين ، بعد أن لمسوا النصر بأيديهم ، ولكن قدرَ الله وهو خير الحاكمين «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذَا تَحِصْنَهُمْ»^(١) بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَسِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا يُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يَرِيدُ

(١) المغفرة : حلقة يتقنع بها المسلح .

(۲) تحسونهم : نستأصلونهم قتلاً .

الْذُنُوبِ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾ * إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوَنَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتَيْتُكُمْ عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٧﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بَيُوتِكُمْ لَبُرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

انتهت الموقعة وأراد أبو سفيان بن حرب الانصراف ، فأشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : إنَّ الحرب سجال ، يوم بيوم ! فقال الرسول ﷺ : قم يا عمر فأجبه ، فقال : الله أعلى وأجل ، لا سواء قتلتنا في الجنة ، وقتلكم في النار فلماً أجاب عمر ، قال أبو سفيان : هلم إلَيَّ يا عمر .

فقال الرسول ﷺ لعمر : ائته ، فانظر ما شأنه ، فجاءه ، فقال أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

ولما انصرف أبو سفيان بعث الرسول ﷺ علياً أن اخرج في آثار القوم ، فإن جنبوا الخيل وامشطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة ، والذي نفسى بيده إن أرادوها لأسيرين إليهم فيها ، ثم لأناجزئهم .

ولكن أبا سفيان وقومه رجعوا إلى مكة بعد أن مثل المشركون بكثير من قتل المسلمين فكانت نساؤهم يجذعن الأنوف ويقطعن الأذان ، ويتخذن منها قلائد ، وبقرت ^(١) هند بطن حمزة عم رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ثم أخذت كبده ، وجعلت تلوكها فلم تسغها فلفظتها ، وقد أمر رسول الله ﷺ بحمزة فسجى ببردة ^(٢) ، ثم صلى عليه ، ثم أتى بالقتلى إلى جانب حمزة ، فصلى عليهم اثنتين وسبعين صلاة ، ثم أمر بدفنهم جميعاً ، ثم خرج عليه الصلاة والسلام في أثر العدو واللواء معقود لم يحل ، حتى وصل حمراء الأسد ، على ثمانية أميال من المدينة ، ليرهب قريشاً ، وليعلموا أن قوة الله لا تغلب ولا تغلب .

فلما علم بذلك أبو سفيان وأصحابه فت في عضدهم ، فمضوا سراعاً إلى مكة ، ينتظرون بطش محمد ﷺ في كل حين .

«إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْعِمُهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾»

(١) بقرت : شقت .

(٢) سجى ببردة : غطى بثوب .

العفو عند المقدرة

كان معاوية يُعرف بالحلم ، وله فيه أخبار مشهورة ، وآثار مذكورة ، وكان يقول : « إني لأنف أن يكون في الأرض جَهل لا يسعه عَفْوِي ، وحاجة لا يسعها جودي » .

حكى عنه أنه لما ولى الخلافة ، وانتظمت له الأمور ، استحضر ليلة خواص أصحابه ، وذاكرهم وقائع صفين ، ومن كان يتولَّى الكَيْدَ له ، فآل حديثهم إلى ذكر سيدة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدى ، كانت تَعَمِّدُ الوقوف بين الصفوف ، وترفع صَوْتَهَا صارخةً : « يا أصحاب على ! » تُسْمِعُهُمْ كلاماً كالصَّوَارِمِ ، مستحثةً لهم بقول لو سَمِعَهُ الجبان لَقَاتَلَ ، والمُدْبِرُ لَأَقْبَلَ ، والمُسَالِمُ لحارب ، والفارُّ لكَرَّ ، والمتزكِّلُ لاستَقَرَّ .

فقال لهم معاوية : « أيكم يحفظ كلامها ؟ » فقالوا : « كُلُّنَا نَحْفَظُهُ » . قال : « فما تشيرون على فيها ؟ » قالوا : « نَشِيرُ بِقَتْلِهَا ، فَإِنَّهَا أَهْلٌ لَذَلِكَ » فقال : « بثسما أشرتم به ! وقبحاً لما قُلتُم ! أيحسُن أن يشتهر عنى أنى بعد ما ظفِرت وقدَرت ، قتلت امرأة قد وَفَّتْ لأميرها ؟ إني إذاً للثَّيْمِ ، لا ، والله ، لا فَعَلْتُ ذلك أبداً » .

ثم دعا بكتابته فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة : « أن أنفذ إلى الزرقاء بنت عدى ، مع نَفَرٍ من عشيرتها وفرسان من قومها ، ومهَدٍّ لها وطاءً لينا ، ومركباً ذلولاً » فلما ورد على الوالى الكتابُ بعث إليها ، وقرأه عليها ، فقالت بعد قراءته : « ما أنا بزائغة عن الطاعة » . فحملها فى هودج ، وجعل غشاه خَزاً مُبْطِئاً ، ثم أحسن صُحْبَتَهَا .

فلما قدمت على معاوية قال : « مرحباً وأهلاً ! خير مقدم قدمه وافد ، كيف حالك يا خالة ؟ وكيف رأيت سيرك ؟ » قالت : « خير مسير » . قال : « هل تعلمين لم بعثت إليك ؟ » قالت : لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى » . قال : « ألسن الركبة الجمل الأحمر يوم صفتين ، وأنت بين الصفوف ثوقدين نار الحرب ، وتحرّضين على القتال ؟ » قالت : « بلى » قال : « فما حملك على ذلك ؟ » قالت : « يا أمير المؤمنين ، إنه مات الرأس وبتر الذنب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكّر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر » فقال : « صدقت ، فهل تعرفين كلامك ، وتحفظين ما قلت ؟ » قالت : « لا والله » . قال : « لله أبوك ، فلقد سمعتك تقولين : أيها الناس ! إن المصباح لا يضيء في الشمس ، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، ولا يقطع الحديد إلا بالحديد ، ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالّة فأصابها ، فصبرا يا معشر المهاجرين والأنصار ! فكأنكم وقد التأم شمل الشتات ، وظهرت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله) فإنه لا يستوى المحق والمبطل ، أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ لا يستوون . فالنزال النزال ، والصبر الصبر ، ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، والصبر خير الأمور عاقبة ، اتوا الحرب غير ناكسين ، فهذا يومٌ له ما بعده » .

« يا زرقاء ! أليس هذا قولك وتحريضك ؟ » .

قالت : « لقد كان ذلك » قال : « لقد شاركت علياً في كل دم سفكه » .

فَقَالَتْ : « أَحْسَنَ اللَّهُ بِشَارَتِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَدَامَ سَلَامَتَكَ ! مِثْلَكَ
 مِنْ يُبَشِّرُ بِخَيْرٍ ، وَيَسُرُّ جَلِيْسَهُ » . فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : « أَوْ قَدْ سَرَّكَ ذَلِكَ ؟ »
 قَالَتْ : « نَعَمْ ، وَاللَّهِ لَقَدْ سَرَّنِي قَوْلُكَ وَأَنْتَى لِي بِتَحْقِيقِهِ ؟ » فَقَالَ لَهَا مُعَاوِيَةُ :
 « وَاللَّهِ لَوْ فَأَوْكُمُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنْ حُبِّكُمْ لَهُ فِي حَيَاتِهِ ، فَاذْكُرِي
 حَوَائِجَكَ تُقْضِ » فَقَالَتْ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! إِنِّي آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَلَّا أَسْأَلَ
 أَحَدًا بَعْدَ عَلَيٍّ حَاجَةً » . فَقَالَ : « لَقَدْ أَشَارَ عَلَيٌّ بِبَعْضِ مِنْ عَرْفِكَ بِقِتْلِكَ » ،
 فَقَالَتْ : « لَوْ مِنْ الْمُتَشِيرِ ، وَلَوْ أَطْعَمْتَهُ لَشَارَكْتَهُ » ، فَقَالَ : « كَلَّا ، بَلْ
 لَنَعْفُوَنَّ عَنْكَ ، وَنُحَسِّنَ إِلَيْكَ ، وَنَرْعَيْنِكَ » . فَقَالَتْ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
 كَرَّمْتُ مِنْكَ ، وَمِثْلَكَ مِنْ قَدَرٍ فَعَقَا ، وَتَجَاوَزَ عَمَّنْ أَسَاءَ ، وَأَعْطَى مِنْ غَيْرِ
 مَسْأَلَةٍ » . فَأَعْطَاهَا كُسُوءَ وَدِرَاهِمَ ، وَأَقْطَعَهَا ضَيْعَةً تَغْلُ لَهَا كُلَّ سَنَةٍ عَشْرَةَ
 آلَافٍ دِرْهَمٍ وَأَعَادَهَا إِلَى وَطَنِهَا سَالِمَةً ، وَكَتَبَ إِلَى الْكُوفَةِ بِالْوَصِيَّةِ بِهَا
 وَبِعَشِيرَتِهَا .

(٥) سعد زغلول

يستمد سعد زغلول أهميته فى تاريخ مصر من أنه زعيم ثورة ١٩١٩ .
وزعامة سعد للثورة لم تحدث فجأة ، ولم تحدث بطريق الصدفة ، وإنما هى
زعامة نمت شيئاً فشيئاً ، وبنيت نفسها بدأب ، وشقت طريقها ببطء عبر
الصعاب ، وبرهنت عن نفسها بالعمل الشاق المتواصل فى خدمة مصر ،
ونسلت إلى وعى الجماهير المصرية تدريجياً ، حتى أفاقت عليها يوم ٨
مارس ١٩١٩ حين وجه الاحتلال البريطانى ضربته إلى سعد زغلول بنفيه
وبعض زملائه إلى جزيرة مالطة ، فانفجرت الجماهير المصرية بالثورة العارمة
التي ارتجت بها أرض مصر من أقصى الصعيد إلى الإسكندرية ، وهى الثورة
التي دخلت التاريخ باسم ثورة ١٩١٩ .

ولقد ولد سعد زغلول فى قرية إبيانة بمركز فوه التى كانت تابعة لمديرية
الغربية وقتذاك ، فى يولية ١٨٥٨ . وقد ولد من أسرة مصرية صميمة ،
وكان أبوه عمدة القرية . ولما كانت تقاليد الأسر القديمة فى الريف تقضى
 بإرسال أحد أبنائها إلى الأزهر ، بركة وتقرباً إلى الله ، وحتى يكون أحد
رجال الدين ، فقد أعدت الأسرة سعد زغلول لدخول الأزهر عن طريق
 حفظ القرآن الكريم فى كتاب القرية لمدة خمس سنوات ، وفى سنة ١٨٧٣
التحق سعد زغلول بالأزهر فى القاهرة ليتلقى تعليمه الدينى .

العوامل التى ساهمت فى تشكيل فكره :

كان من حسن حظ سعد زغلول أن فترة وجوده طالباً بالأزهر تميزت
 بوجود المفكر الإسلامى الكبير السيد / جمال الدين الأفغانى فى القاهرة ،

وقد النف حوله كثير من طلبة الأزهر المجدين ومنهم سعد زغلول .
وكان الأثر الذى تركه الأفغانى فى نفس سعد زغلول وشخصيته يفوق الأثر
الذى تركته فيه دراسته الأزهرية ، فقد طبعه على حرية التفكير وحرية البحث
والتجديد والإصلاح .

وفى الوقت نفسه تتلمذ سعد زغلول على يد المصلح الدينى الكبير الشيخ
محمد عبده ، الذى كان يكبره بعشر سنوات . ولم تكن علاقة سعد بالشيخ
عبده علاقة تلميذ بأستاذ فحسب ، بل علاقة ابن بوالده ، أو مريد بشيخه ،
فكان يستفيد من علمه وعمله ، ومن أخلاقه وفصاحته وبلاغة كلامه ، فشب
بين يديه كاتباً خطيباً أديباً سياسياً وطنياً إسلامياً .

هذه العلاقة الفريدة بين الشيخ محمد عبده وسعد زغلول هى التى دعت
الشيخ محمد عبده ، عندما أسند إليه تحرير جريدة « الوقائع المصرية »
فى أكتوبر ١٨٨٠ ، إلى أن يطلب إلى تلميذه سعد زغلول معاونته
فى تحريرها ، وقد لبي سعد زغلول الدعوة ، وعُين محرراً فى القسم الأدبى
بالجريدة ، وقد استمر سعد زغلول فى الوقائع المصرية حتى مايو ١٨٨٢

وقد كانت الفترة التى قضاها سعد زغلول فى تحرير الوقائع المصرية
مرحلة تحول كبيرة فى تاريخ مصر ، حيث كانت فى ذلك الحين تتعرض لغزو
أوروبى غريب لا يقوم به ضباط وجنود يستخدمون المدافع والنيران ، وإنما
كان غزواً يقوم به الرأسماليون الأوروبيون وأصحاب البنوك الأوروبية ،
ويستخدمون فيه سلاح المال للسيطرة على الاقتصاد المصرى وإغراق مصر
بالديون وتحويلها إلى مستعمرة بدون إطلاق رصاصة واحدة .

وقد انضم سعد زغلول إلى الوطنيين الذين يقاومون هذا الغزو الغريب ، وعوقب سعد على ذلك بنقله من تحرير الوقائع المصرية إلى وظيفة معاون بوزارة الداخلية فى ٣ مايو ١٨٨٢ ، ثم إلى وظيفة ناظر قلم الدعاوى بمديرية الجيزة فى ٦/٩/١٨٨٢ . وبعد خمسة أيام على تعيينه فى الوظيفة الجديدة كانت مدافع الأسطول البريطانى تضرب مدينة الإسكندرية لتبدأ احتلال مصر .

وقد وقف سعد زغلول أثناء غزو بريطانيا لمصر ينادى بالجهاد الدينى ، وأخذ فى أثناء الحرب يحرر المقالات يحض فيها على الثورة ، ويدعو للتصدى لسلطة الخديوى توفيق الذى انحاز إلى الإنجليز ضد وطنه ، ويهيج الأفكار للمقاومة ، ولم يصرف سعد زغلول عن هذا الدور خوف على وظيفته أو رهبة من التكيل به بعد الثورة .

وكان من الطبيعى أن يدفع ثمن هذا الدور ، ففصل من وظيفته فى ٢ أكتوبر ١٨٨٢ ، وحرمتة حكومة الاحتلال من شغل الوظائف . ولم يجد سعد زغلول بداً من افتتاح مكتب للدعاوى (أى مكتب للمحاماة) مع صديق له ، حيث كان عمله بجريدة الوقائع قد أكسبه خبرة فى الشئون القانونية من خلال تلخيص ونقد أحكام المحاكم . ولم تكن مهنة المحاماة فى ذلك الحين تتطلب مؤهلاً عالياً ، كما لم تكن مهنة محترمة فى نظر القضاء أو فى نظر المجتمع ، ولكن سعد زغلول اضطر إليها ليكسب عيشه بدلاً من التزلف للحكومة المصرية الخاضعة للاحتلال لاسترداد وظيفته .

ولم يلبث سعد زغلول أن اتهم وزميله بالاشتراك فى جمعية سرية باسم « جمعية الانتقام » غرضها طرد الإنجليز من مصر . ولكن المحكمة لم تجد من الأدلة ما يدينه وزميله فأفرجت عنهما . وخرج سعد زغلول من السجن ليستأنف عمله فى المحاماة .

وقد استطاع أثناء عمله فى المحاماة أن يرفع من قدر هذه المهنة ، لما كان يتحلى به من شرف وعزة نفس ، فلم يقبل الدفاع عن باطل ، ولم يرفض الدفاع عن حق ، وكان يتنزه كل فرصة ممكنة للصالح بين موكله وخصمه ، ويرد إليه ما تقاضى من مقدم الأتعاب ، لذلك طارت شهرة سعد زغلول فى مصر ، وانتخب عضواً فى اللجنة التى شكلتها محكمة الاستئناف لإصلاح قانون العقوبات .

وقد كان سبب شهرة سعد زغلول فى المحاماة أن اختارته الأميرة نازلى فاضل وكيلاً لأعمالها . وقد كانت هذه الفرصة هى التى أتاحت لسعد زغلول الاختلاط بأوساط الطبقة الأرستقراطية . فقد كانت الأميرة نازلى فاضل صاحبة صالون معروف يلتقى فيه عدد محدود من أهل الفن والعلم والأدب من مصريين وأجانب ، وكان أشبه بمندى أدبى تناقش فيه قضايا الإصلاح . وقد تردد سعد زغلول كثيراً على صالون الأميرة نازلى فاضل .

فى ذلك الحين ، وبسبب شهرة سعد زغلول فى المحاماة أيضاً عرضت الحكومة عليه وظيفة « نائب قاض » بمحكمة الاستئناف . وقد قبل سعد زغلول هذه الوظيفة رغم ضآلة مرتبها بالقياس ببرحه من مهنته كمحام ، والذى كان يصل إلى ستة آلاف جنيه سنوياً ، نظراً لما فيها من شرف ، ولأن

سعد زغلول نظر إليها باعتبارها « رد اعتبار » له بعد أن كان ممنوعاً من تولي الوظائف عقب الحكم عليه بالحرمان المدني ، . وقد تم تعيينه في ٢٧ يونيه

١٨٩٢

في ذلك الحين لم يكن سعد زغلول قد حصل على ليسانس الحقوق ، لأن هذا المؤهل لم يكن شرطاً لتولي مناصب القضاء ، ولذلك قرر الحصول عليه ، وشرع فوراً في تعلم اللغة الفرنسية في صيف عام ١٨٩٢ ، ثم التحق بجامعة باريس في أوائل عام ١٨٩٦ ، وحصل على ليسانس الحقوق في

يولية ١٨٩٧

وفي نفس العام الذي التحق فيه بكلية الحقوق في باريس ، تزوج سعد زغلول بصفية فهمي ، ابنة مصطفى فهمي باشا ، رئيس مجلس النظار (الوزراء) في ٦ فبراير ١٨٩٦ ، فدخل بذلك في صفوف الطبقة الأرستقراطية التي كانت وقتذاك قاصرة على الأسر ذات الأسر التركية والشركسية ، وأصبح في يده الشهرة ، والثروة ، والوظيفة ، والتعليم العالي ، والمصاهرة .

وقد مكث سعد زغلول في سلك القضاء قرابة أربعة عشر عاماً ، من ٢٧ يونيه ١٨٩٢ إلى ٢٨ أكتوبر ١٩٠٦ ، أحرز في أثنائها الرتب والنياشين ، وارتقى في سلك القضاء حتى وصل إلى درجة مستشار ، ورأس محكمة الجنايات ، ومحكمة النقض ، وكان في هذه الأدوار « القاضى الموزون » بما تحمل هذه الكلمة من موازين العدل والرحمة وتقديس حرية الدفاع .

فى ذلك الحين كان الوطنيون المصريون قد أجمعوا على ضرورة إنشاء جامعة مصرية لتخريج مصريين متعلمين تعليماً عالياً يؤهلهم لشغل الوظائف العليا فى الحكومة (التى درج الاحتلال البريطانى على شغلها بموظفين إنجليز وأجانب) والعمل على رقى الأمة وتقدمها العلمى فى مجال العلوم والآداب والفلسفة . وهنا تولى سعد زغلول الدعوة إلى التبرع للمشروع ، وتقرر أن يكون الاجتماع الأول فى داره ، وتحدد يوم ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ موعداً لهذا الاجتماع ، واختير سعد زغلول وكيلاً لرئيس اللجنة المؤقتة التى تألفت لمباشرة هذا العمل ، وانتخب قاسم أمين سكرتيراً للجنة ، واتفق على تسمية الجامعة باسم « الجامعة المصرية » واكتب سعد زغلول للمشروع بمائة جنيه ، وقرر المجتمعون أن يتقدموا للأمة المصرية طالبين العون لتنفيذ المشروع .

وقد أكسب هذا الدور الذى لعبه سعد زغلول فى إنشاء الجامعة المصرية اسمه شهرة واحتراماً لدى الرأى العام المصرى ، دفع به إلى قمة المرشحين لتولى وزارة المعارف العمومية ، وهو ما تم فى ٢٨ أكتوبر ١٩٠٦

إسهامات سعد زغلول :

وقد اعتبر الوطنيون تولى سعد زغلول وزارة المعارف إذعاناً من الاحتلال البريطانى للحركة الوطنية ، واستجابة لمطالبها فى إصلاح التعليم الذى كان قد تدهور على يد الاحتلال ، وأصبح مجرد وسيلة لتخريج موظفين صغار فى مصالح الحكومة ، بدلاً من أن يكون وسيلة لرقى الأمة .

وقد استطاع سعد زغلول فى أثناء توليه وزارة المعارف إعادة السيطرة المصرية على الوزارة ، بعد أن كانت خاضعة من قبل لسيطرة المستشار

الإنجليزى دانلوب ، وخاض فى ذلك معارك عديدة مع هذا المستشار ، ورفع ميزانية التعليم إلى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه فى بدء الاحتلال ، وأنشأ مدرسة « القضاء الشرعى » لتخريج قضاة شرعيين متفقهين فى الشريعة الإسلامية ، وأعاد التعليم باللغة العربية لبعض المواد ، وأكثر من الكتابيب فى القرى لمحاربة الأمية ، وأعاد المجانية فى التعليم الثانوى للممتازين ، وخفض المصروفات المدرسية على أهل الصعيد الأقصى ، وكان أول وزير مصرى يخرج من مكتبه فى الوزارة للطواف على مدارس الأقاليم .

وعندما تزايدت مصادمات سعد زغلول مع الاحتلال من أجل الإصلاح ، نقله وزيراً للحقانية (العدل) ولكن صدامات سعد لم تنقطع ، فقد اعترض على إصدار قوانين تقيّد الحرية وتشدد العقوبات على الصحف ، واضطر سعد زغلول إلى تقديم استقالته فى يوم ٣١ مارس ١٩١٢

وباستقالة سعد زغلول تنتهى مرحلة هامة من حياته السياسية كان يناضل فيها من خلال عمله كوزير فى الوزارة ، وتبدأ مرحلة جديدة تميزت بنضاله فى صفوف الجماهير ، فقد تقدم لترشيح نفسه فى انتخابات الجمعية التشريعية فى ثلاث دوائر فى القاهرة ، فنجح فى دائرتين هما دائرة بولاق ودائرة السيدة زينب ، واختار دائرة السيدة زينب ، ثم انتخب وكيلاً للجمعية التشريعية ، فتسلم العمل الشعبى الذى كان مؤهلاً له بتكوينه الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى . وكان هذا الدور هو الذى مهد لزعامته للحركة الوطنية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

وكانت مصر فى أثناء الحرب العالمية الأولى التى قامت فى أغسطس ١٩١٤ ، قد عانت معاناة شديدة فقد أعلنت بريطانيا الحماية عليها فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ ، وأخذت فى تجنيد الفلاحين قسراً لخدمة خطوط الحرب الخلفية ، وصادرت حيواناتهم وحبوبهم بأبخس الأثمان ، وفرضت الأحكام العرفية ، كما كتمت الصحافة .

دور سعد زغلول فى النضال الوطنى :

فلما انتهت الحرب فى يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨ ، تزعم سعد زغلول حركة للمطالبة باستقلال مصر ورفع الحماية البريطانية عنها ، وقابل المندوب السامى البريطانى فى يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ مع زميله عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى لتقديم مطالب مصر ، ولكن المندوب السامى أعلن أن تقديم هذه المطالب غير مناسب فى هذا الوقت ، وحذر سعد زغلول من المضى فى هذه الحركة . ولكن سعد زغلول لم يأبه لهذا التحذير ، وقام بتأليف الوفد المصرى كممثل للشعب المصرى بكامل طبقاته ، وطبع عشرات الألوف من التوكيلات الشعبية وزعها فى أنحاء القطر المصرى للتوقيع عليها من الشعب بتوكيل الوفد المصرى للمطالبة باستقلال مصر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وأخذ فى توعية الشعب بحقه فى الاستقلال التام ، وعندما شعرت بريطانيا بخطر سعد زغلول قامت باعتقاله فى يوم ٨ مارس ١٩١٩ ومعه ثلاثة من أعضاء الوفد ، وفتهم إلى مالطة .

على أن الشعب المصرى لم يكذب يعلم بنبأ الاعتقال والنفى ، حتى قام بثورة عارمة شملت مصر من أقصاها إلى أقصاها ، واشتركت فيها جميع

طبقات الشعب ، كما اشترك فيها المسلمون والأقباط لأول مرة فى تاريخ مصر ، كما اشتركت المرأة المصرية . واضطرت الحكومة البريطانية إلى الإفراج عن سعد زغلول ورفاقه ، والسماح لهم بالسفر إلى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح . ومن باريس أخذ سعد زغلول يقود النضال الوطنى ، وعندما قررت بريطانيا إرسال لجنة برئاسة اللورد ملنر إلى مصر للحصول على موافقة الشعب المصرى على الحماية ، أصدر سعد زغلول تعليماته إلى لجنة الوفد المركزية فى مصر بدعوة الشعب إلى مقاطعة لجنة ملنر ، وقد نجحت المقاطعة. نجاحاً باهراً أشعر بريطانيا برفض الشعب المصرى للحماية ، واضطر إلى إصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ بإلغاء الحماية البريطانية والاعتراف بأن تكون مستقلة ذات سيادة ، مع تحفظات أربعة يتم التفاوض عليها بين مصر وبريطانيا .

وبناء على هذا التصريح أعلن استقلال مصر فى يوم ١٥ مارس ١٩٢٢ ، ونودى بالسلطان فؤاد ملكاً على مصر . ولكن سعد زغلول لم يقبل هذا التصريح لأنه يعطى مصر استقلالاً مقيداً بالتحفظات التى تعطى بريطانيا حق التدخل فى شئون مصر الداخلية . كذلك اعترض سعد زغلول على الدستور الذى صدر فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ ، لأنه صدر كمنحة من الملك ، وأعطى الملك سلطات تفوق سلطات الأمة .

على أن الانتخابات التى أجريت بناء على دستور ١٩٢٣ ، نجح فيها الوفد بزعامة سعد زغلول نجاحاً ساحقاً ، وأصبح من حقه تأليف الوزارة وفقاً للدستور ، وهو ما تم فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ . ولكن سعد زغلول لم

يتصرف كما يتصرف رئيس وزارة لبلد بها قوات بريطانية ، وإنما تصرف كزعيم أمة ، الأمر الذى جعله يصطدم بالحكومة البريطانية حول السودان الذى أرادت بريطانيا اقتطاعه من مصر وكان جزءاً منها ، وحول استقلال مصر . كما اصطدم مع الملك فؤاد حول السلطة فى البلاد ، فقد أراد الملك أن يتولاها بنفسه ، وأصر سعد زغلول على أن يتولاها الملك بواسطة وزرائه ، وأن الوزارة هى المهيمنة على مصالح البلاد .

وقد اضطر سعد زغلول إلى الاستقالة بعد أن اغتال بعض الوطنيين الجنرال لى ستاك قائد الجيش المصرى وحاكم عام السودان ، وبعد أن قدمت بريطانيا إنذاراً لمصر تطالب فيه بتعويضات جسيمة . وأخذ سعد زغلول يقود الحركة الوطنية فى صفوف الشعب من أجل الاستقلال والدستور ، ويخوض المعارك الضارية ضد الإنجليز وضد الملك فؤاد ، حتى أثقل كاهله النضال الوطنى الطويل ، فمات فى مساء يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ وعمره ٦٩ عاماً ، ليدخل التاريخ كأعظم زعيم لأعظم ثورة شعبية فى تاريخ مصر الطويل .

(٦) سيد درويش

يستمد سيد درويش أهميته في تاريخ مصر ارتباطاً بالحركة الوطنية ، وانفعاله بها ، وتعبيره عن المشاعر الوطنية للشعب المصري . ونقده للأوضاع الاجتماعية ومعاناة الطبقات الجماهيرية ، واتخاذ من الموسيقى سلاحاً وطنياً يحارب به كما يحارب الجندي بالمدفع والكاتب بالقلم والخطيب بالمنبر ، هذا فضلاً عن عبقرته الموسيقية واعتباره رائد للموسيقى الحديثة في التلحين .

نشأته :

ولد سيد درويش في حي شعبي متواضع في مدينة الإسكندرية هو حي "كوم الدكة " في ١٧ مارس ١٨٩٢ ، وكان والده المعلم درويش البحر نجاراً يملك محلاً للنجارة بالحي ، ويعتمد على دخله من هذا المحل في إعالة الأسرة التي كانت تتكون منه ومن زوجته الحاجة ملوك وأولادها هما فريدة وستوتة وزينب وسيد .

ولما بلغ سيد درويش الخامسة من عمره ألحقه والده كتاب "حسن حلاوة" حيث التقى فيه بمدرس يدعى سامي أفندي كان يلحن التلاميذ الأناشيد والأغاني التي اصطلح على تسميتها بـ "السلامات" وقد وجد هذا المدرس في سيد درويش استعداداً طيباً فأثره على أقرانه ووكل إليه تدريبهم ، ثم انتقل سيد درويش من هذا الكتاب إلى مدرسة في حي رأس التين تعرف باسم "شمس المدارس " وقد حالفه الحظ أيضاً إذ وجد في هذه المدرسة مدرساً يدعى نجيب أفندي فهمي شغوفاً أيضاً بتلقين التلاميذ الأناشيد ، فأخذ يحفظ سيد درويش بعض ألحان الملحن الشهير سلامة حجازي ، واستمر تدريب سيد درويش على عدد كبير من ألحان عصره ، فوعتها أذناه واستجاب حسه لموسيقاها

وفى عام ١٩٠٥ وقد بلغ الطفل ثلاثة عشر عاماً من عمره التحق بالمعهد الدينى فى الإسكندرية ، وكان مقر فرقته مسجد أبى العباس ، وتعمم ، وأخذ فى حفظ وتجويد القرآن الكريم ، وقد تزيا بزى عصره المعممين وقد نجح فى الفرقة الأولى ، وانتقل إلى الفرقة الثانية التى كان مقرها مسجد الشورىجى ، وكان يؤذن فيه طوال العام الدراسى .

على أن عشق سيد درويش للفن صرفه عن التفرغ للدراسة ، واتجه إلى احتراف الفن بالإنشاد فى الموالد والحفلات والأفراح ، ففصل من المعهد الدينى فى نهاية عامه الدراسى الثانى ، ولما كان والده قد توفى قبل أن يتجاوز السابعة من عمره ، فقد أخذ يتخذ من الفن وسيلة للعيش ، واضطر تحت ضغط الحاجة إلى العمل فى بعض الحانات والمقاهى ، ثم عمل مناولاً للبياض ، وأخذ يغنى للعمال زملائه من الأغانى والأهازيج ما يبعث فيهم النشاط والعمل فأغفى من عمله اليومى نظراً لتفرغه للترفيه عن العمال بالغناء .

على أن الفرصة لم تلبث أن سنحت لسيد درويش حين استمع إليه صدفه الأخوان سليم وأمين عطا الله ، وأعجبهما صوته ، وقررا ضمه إلى فرقتهما الغنائية ، وعندما سافرت الفرقة إلى الشام فى مطلع عام ١٩٠٩ سافر معهما ، ولكن الرحلة فشلت مالياً واضطر سيد درويش إلى العودة ، ولكن بعد أن تعرف على الموسيقى الكبير الشيخ عثمان الموصلى وغيره من الموسيقيين الذين أخذ عنهم أصول الفن وفى سنة ١٩١٢ سافر سيد درويش مرة أخرى مع فرقة عطا الله ، وكانت رحلة ناجحة ، إذ تجددت صلته بعثمان الموصلى وغيره ،

وأقام معهم سنتين كاملتين يحفظ عنهم ويستمتع إليهم وإلى ما ينشده غيرهم في تلك البلاد ، ويختزن في ذاكرته كل ممتع ورائع من الغناء ، الأمر الذي أكسبه خبرة واسعة بأسرار الموسيقى الشرقية من عربية وفارسية وتركية وغير ذلك مما ، استثمره سيد درويش بعد ذلك في خدمة الغناء المسرحي وتلوينه .

وهكذا عاد سيد درويش إلى الإسكندرية بعد عامين عارفاً بأصول الموسيقى العربية ، محيطاً بموسوعة من الأنغام والألحان ، التي استطاع بموهبته أن يحصل ثروة ضخمة منها وأن يهضمها بعبقريته الفذة ، ويفرز إبداعه الخاص وابتكاره الجديد في عالم الفن .

اهم ملامح فن سيد درويش :

في هذه الفترة لحن أخلد أدواره الأثنى عشر ، وأكثر من خمسين "مقطوعة" وهي مقطوعة موسيقية صغيرة وأشهرها " زوروني كل سنة مرة " وقد تميزت ألحانه بعدة معالم :

أولاً : أنها لحن لمناسبات واقعية ، حتى ليعتبر كل لحن تاريخاً لحادث معين، ولهذا جاءت جميع أغانيه معبرة صادقة .

ثانياً : انفعاله بالأحداث السياسية في وطنه ، ومحاولته التعبير عنها كفنان أصيل ، ولذلك عندما خلعت بريطانيا الخديوى عباس حلمى عن العرش ونصبت مكانه حسين كامل سلطاناً على مصر ، عبر سيد درويش عن عطف الشعب المصرى على عباس حلمى بدور جديد من تأليفه وتلحينه ، أشار فيه - تلميحاً- إلى عباس حلمى ، نظراً لأن السلطات البريطانية كانت تحرم ذكر اسمه صراحة ، فألف المقطوعة الزجلية بحيث يؤلف مجموع الحروف الأولى لمقاطعها اسم "عباس حلمى" (ع - ب - ا - س - ح - ل - م - ي) .

ثالثاً:- التعبير بالموسيقى عن المعنى الذى تحمله الكلمات ، ولم يكن ذلك موجوداً من قبل ، إذ كان الهدف من الغناء والألحان القديمة التطريب ونيل إعجاب المستمعين دون اهتمام بما إذا كان اللحن معبراً عما يقصد إليه المعنى أم لا .

رابعاً : نظم الأغاني والأناشيد الوطنية التى تمجد مصر ولا تمجد الحكام ، وكانت الأناشيد قبله مقصورة على تمجيد الحكام والزلفى إلى السلطان ، ومن ذلك أنه تأثر بالكلمات الخالدة لمصطفى كامل فى خطبة الوداع فى كازينو زيرينيا بالإسكندرية يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٠٧ ، والتى يقول فيها "بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمي ونفسى ، لك عقلى ولسانى لك حبى وجنانى " فجارى الوزن والقافية ، ولحن نشيداً وطنياً مستوحياً المعانى الجميلة التى وردت فى الخطبة ، وهو الآتى :

بلادى بلادى	بلادى	لك حبى وفؤادى
مصر ياست البلاد	أنت غدايتى والمراد	
وعلى كل العباد	كم لنيلك من أيادى	
مصر يا أرض النعيم	سدت بالمجد القديم	
مقصدى دفع الغريم	وعلى الله اعتمدادى	
مصر أولادك كرام	أوفياء يرعوا الزمام	
سوف تحظى بالمرام	باتحادهم واتحادى	
مصر أنتى أغلى درة	فوق جبين الدهر غرة	
يا بلادى عيشى حرة	واسعدى رغم الأعادى	

وقد اختار الرئيس محمد أنور السادات هذا النشيد شعاراً موسيقياً غنائياً ،
وليكون السلام الوطنى لمصر وفى مسرحية "شهر زاد" لحن سيد درويش أكثر من
لحن وطنى ومن هذه الألحان ، لحن :
" اليوم يومك يا جنود " وفيه يقول :

اليوم يومك يا جنود ما تجـعلـيش للروح ثمن
يوم المدافع والبـارود ما لكـيش غـيره فى الزمن
هيا أظهري عزم الأسود فى وجهه أعداء الوطن
ومن هذه الألحان أيضاً لحن : " أنا المصرى كريم العنصرين " وفيه يقول :

أنا المصرى كريم العنصرين بنيت المجد فوق الأهرامين
جدودى أنشأوا العلم العجيب ومجرى النيل فى الوادى الخصيب
لهم فى الدنيا آلاف السنين ويغنى الكون وهم موجودين

ويتحدث سيد درويش عن الجيش المصرى فيقول :

أحسن جيوش فى الأمم جيوشنا وقت الشدايد تعالى شوفنا
ساعة ما نلمح جيش الأعادى نهجم ولا أى شئ يحوشنا

كذلك يلحن سيد درويش لحن : "دقت طبول الحرب يا خيالة" ، ولحن :
« الجيش رجع م الحرب بالنصر المبين » .

وفى مسرحية "الهلال" التى لحنها لفرقة على الكسار ، يلحن سيد درويش
"لحن الجنود" الذى يقول فى مطلعـه على لسان الجنود :

إحنا الجنود زى الأســود نموت ولا نبـيـعش الوطن
بالروح نجوّد ، بالسيف نسوّد على العـدا طول الزمن
الحرب ديننا وطبـعنا والسـيف أبونا وأمننا
نحفظ كرامة شعبنا بعـمـرنا ، بدمنا
صوت السلاح يوم الكفاح فى عرفنا ، فى سمـعنا

حـلـو النـفـم

لازم نعيش طول عـمـرنا فى أرضنا أحـرـار

ورافـعـين العلم

وفى غضون ثورة ١٩١٩ لحن سيد درويش هذا النشيد الحماسى ، وهو
نشيد : "قوم يا مصرى" وفيه يقول :

قوم يا مصرى ، مصر دائماً بتناديك خد بناصرى ، ناصرى دين واجب عليك
وكان آخر ما قدمه من تلك المقطوعات الوطنية تأليفاً وتلحيناً ، الأنشودة
التي وضعها تحية لسعد زغلول عند عودته إلى الوطن سنة ١٩٢٣ ، وفيها
يقول :

مصرنا وطننا ، سـعـدها أملنا كلنا جـمـيـعاً للوطن ضحية
أجمعت قلوبنا ، هلالنا وصليبنا أن تعيش مصر عيشة هنية

ذلك مماتنا

مالناش سعادة

مالناش سواء

فى كل ساعة

عزك حياتنا

يامصر بعدك

روحنا فداك

ربك معاك

وقد استقبل سعد زغلول بالمقطوعة ، ولكن بعد وفاة مؤلفها بيومين اثنين ،
إذ بعد أن درب سيد درويش المنشدين والعازفين على أدائها استعداداً لحفل
الاستقبال عاجلته المنية .

ولقد تميز سيد درويش عن غيره من الفنانين بتفوقه الكامل فى كل ما وجه
إليه عبقريته ، لقد كان كل فنان متفوقاً فى ناحية من نواحي فنه ، فالبعض
تفوق فى الأناشيد والبعض تفوق فى الألحان العاطفية ، والبعض الثالث تفوق
فى المسرحيات ، ولكن سيد درويش تفوق فى كل شئ فقد لحن الموشح القديم
والنشيد ، والمسرحية الغنائية وما حوته من مختلف الاستعراضات والألوان
الشعبية .

لقد أسعفته موهبته فى كل ناحية من نواحي التلحين ، وفى الألحان الحماسية
تتأجج موسيقاه ، ناراً ، وفى الألحان العاطفية تذوب ألحانه رقة ، وفى
المسرحيات التراجيدية (المأساوية) يثيرك وببكيك ، وفى المسرحيات الكوميدية
(الهنزلية) يملأ نفسك بهجة وإنشراحاً .

ومن الغريب أنه على الرغم من أن سيد درويش لم يكن قد درس فى أحد
المعاهد الموسيقية العالية علوم الموسيقى التوافقية والتوزيع الآلى والغنائى وما
إلى ذلك من التدوين الموسيقى وغيره من العلوم الموسيقية العالية ، إلا أنه قدم
فى مسرحيته الغنائية « أوبريت شهر زاد » نوعاً جديداً من التلحين فى اللحن
الختامى للفصل الأول غير معروف إلا فى الأوبرات العالمية ! إذ جعل ثلاث
مجموعات على المسرح تغنى فى وقت واحد ثلاثة ألحان مختلفة بكلمات
مختلفة وموضوعات مختلفة - الأمر الذى يدل على عبقريته .

وقد عمل سيد درويش ملحناً لجميع الفرق المسرحية فى مصر ، وفى عام
١٩١٧ فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، انتقل سيد درويش من الإسكندرية
إلى القاهرة عاصمة مصر ولم يكن معروفاً فيها إذ لم تكن هناك إذاعة تنقل

فنه إليها ، وعمل فى فرقة جورج أبيض المسرحية ملحناً ، وقام بتلحين مسرحية " فيروز شاه" مقابل عشرين جنيهاً ، ولكن المسرحية سقطت لأن جمهور القاهرة كان متعوداً على الألحان القائمة على التطريب لا التعبير ، ولكن الجمهور القاهرى أخذ يتنبه إلى هذا اللون الجديد من التلحين عندما اتصل بنجيب الريحانى الذى كلفه بتلحين مقطوعات استعراضية نجحت نجاحاً باهراً ، فعين ملحناً بالفرقة بأجر شهرى بلغت قيمته ١٥٠ جنيهاً ، وتسابقت الفرق المسرحية الأخرى على طلب المزيد من ألحانه ، فقام بالتلحين لفرقة الكسار ، ولفرقة منيرة المهدي ، ولفرقة أولاد عكاشة ، وحفزه نجاحه المتواصل على إنشاء فرقة خاصة له حتى يتمكن من إشهار فنه العظيم بعيداً عن متاعب أصحاب الفرق الغنائية .

ولقد قدمت فرقة سيد درويش الخاصة أخلد مسرحياته الغنائية لأول مرة "أوبريت شهر زاد " (شهر زاد حالياً) والبروكة (والبروكة هنا ليس معناها بروكة الشعر وإنما معناها التميمة أو التعويذة) . وكان قد سبق له أن قدم "أوبريت العشرة الطيبة" لفرقة الريحانى ، وهى تعد مرحلة جديدة من التطور الموسيقى ، وفى أوبريت شهر زاد قدم للجمهور محمد عبد الوهاب .

وقد لحن سيد درويش فى ست سنوات بين سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٢٣ ما يقرب من عشرين مسرحية ، تزيد ألحانه على المائتى لحن ، هذا فضلاً عن الأدوار والتواشيح التى تعتبر معجزة فنية إلى يومنا هذا ، وكذلك مجموعة من الطقايط التى كانت أهمها - كما ذكرنا - طقطوقة "زورونى فى السنة مرة " وهى التى كانت سبباً فى شهرته .

ثم ينادى بمشاركة المرأة للرجل فى العمل وحصولها على حقوقها فيخاطب
المرأة قائلاً :

دا وقـــــــــــــــــتِكْ ، دا يُومِكْ يا بنت الـــــــــــــــــيوم
قــــــــــــــــومى ، اصحى من نومِك بــــــــــــــــزاداكى نــــــــــــــــوم
وطالبى بحــــــــــــــــقوقك واخــــــــــــــــلصى من اللــــــــــــــــوم

وفى كل هذه الألحان وغيرها نرى سيد درويش الفنان المرتبط بالجماهير
الشعبية ، الذى يعبر عن نضالها الصعب فى الحياة ، كما نرى الفنان الشاعر
على الحياة الاجتماعية التى يتحكم فيها الأجانب فى الاقتصاد الوطنى ،
ويتقاعس الأغنياء عن الاستثمار فى الصناعة ، وقد عبر بذلك عن شكوى
عامة كانت نتيجةها إقدام طلعت حرب ومجموعة من الاقتصاديين على إنشاء
بنك مصر وشركاته الصناعية الوطنية ، كذلك نرى سيد درويش المستنير الذى
يدعو المرأة المصرية للخروج من عصر الحريم إلى ميدان العمل والحصول على
حقوقها ، كما نرى سيد درويش الفنان المصرى الذى يفخر بمصريته رغم
الاحتلال البريطانى الجاثم على صدر الشعب المصرى ، ويطالب المصريين بأن
يفخروا بمصريتهم وحضارتهم " أنا المصرى كريم العنصرين * بنيت المجد فوق
الأهرمين " كما نرى فيه الوطنى الذى يذكر المصريين بعظمة جيوشهم " أحسن
جيوش فى الأمم جيوشنا " ويدعو إلى محاربة أعداء الوطن : " اليوم يومك يا
جنود " ما تجعليش للروح ثمن " .

وفى الوقت نفسه نرى الفنان العبقرى الذى لم يدرس فى معاهد عالية ولكنه
نقل الموسيقى من عصر التطريب إلى عصر التعبير ، ووصل إلى الألحان

الأوبرالية من غير أن يستمع إلى الأوبرا ، واستطاع بمهارة أن يبتكر الجديد فى الموسيقى دون أن ينقلب على القديم ، وأن يحرر الموسيقى العربية من الصيغ القديمة الموروثة دون أن يهجرها كلية ، واستطاع من خلال كل ذلك أن يعبر عن الروح المصرية ويشرى الوجدان المصرى وينهض بالشعور القومى ويؤجج الروح الوطنية .

ولكن حياته لم تطل ليكمل رسالته ، فقد مات فجأة فى يوم ١٥ سبتمبر ١٩٢٣ ، وأنطفأت الشعلة التى أضأت الحياة الفنية المصرية فى زمن كانت ثورة ١٩١٩ تهز أركان الاحتلال البريطانى وتتجه بالشعب المصرى إلى الاستقلال .

(٧) طلعت حرب

يرتبط اسم طلعت حرب فى تاريخ مصر باستقلال مصر الاقتصادى ، وتحرير اقتصاد مصر من السيطرة الأجنبية ، ومن هنا يضعه البعض من الكتاب فى مصاف أعظم الشخصيات فى تاريخ مصر الحديث ، والأبطال الوطنيين .

وحتى ندرك أهمية طلعت حرب ، فإن اقتصاد مصر فى ذلك الحين كان واقعاً تحت سيطرة الأجانب ، فقد كانوا يملكون مساحات كبيرة من الأراضى المصرية كادت تصل إلى نصف الأراضى المصرية ، وكان متوسط ما يملكه الأجنبى من الأراضى ٧٩ فداناً مقابل فدانين وثلث فدان يملكها المصرى ، وفى الوقت نفسه كان الأجانب يملكون معظم المشروعات الصناعية والتجارية حيث كان نصيب رؤوس الأموال الأجنبية فى هذه الشركات يبلغ ٦١ مليوناً من الجنيهات مقابل ٦ ملايين فقط يملكها المصريون ، وقد استغل الأجانب هذه السيطرة فى التحكم فى حياة المصريين الاقتصادية وتكبييلهم بالديون ونزع ملكية الأراضى التى يملكونها .

وقد دفع ذلك الوطنيين إلى التفكير فى إنشاء بنك مصرى وطنى تكون مهمته تخليص الأراضى من يد الأجانب ، ومساعدة المصريين على تمويل إنشاء الشركات التجارية والصناعية ، واستثمار أموالهم فى المشروعات النافعة ، وقد جرى هذا التفكير فى إنشاء بنك مصرى فى أثناء الثورة العرابية ، ولكن الفكرة ماتت بعد احتلال بريطانيا لمصر فى سنة ١٨٨٢

على أن فكرة إنشاء البنك ظلت تراود الوطنيين المصريين ، خصوصاً بعد أزمة مالية حدثت فى عام ١٩٠٧ كانت من نتيجتها أن استطاعت البنوك

الأجنبية نزع ملكية أراضي قدرها مليون ومائة ألف فدان فيما بين سنتي ١٩٠٧ و ١٩١٣ ، فتجددت الدعوة لإنشاء بنك مصر ينقذ اقتصاد البلاد من يد الأجانب على أن هذه الدعوة لم يقدر لها أن تتحقق إلا بعد أربعين سنة على ظهورها ، على يد محمد طلعت حرب .

ولد محمد طلعت حرب في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٧ في ناحية قصر الشوق التابعة لحي الجمالية بالقاهرة ، وكان والده موظفاً في مصلحة السكة الحديدية وبعد أن أتم تعليمه الثانوي بالمدرسة التوفيقية في القاهرة ، التحق بمدرسة الحقوق الخديوية في أغسطس ١٨٨٥ وحصل على شهادتها ، كما حصل على مرتبة الشرف في امتحانات الترجمة ، وكانت اللغة الأجنبية التي يجيدها هي الفرنسية .

العوامل المؤثرة في تشكيل فكره :

تشرب طلعت حرب الروح الوطنية في مدرسة الحقوق الخديوية التي كانت في ذلك الوقت تشهد نشاطاً وطنياً كبيراً يقوم به الطلبة ، وكان من زملاء طلعت حرب في المدرسة زعماء وطيون أصبح لهم اسم مشهور في المستقبل ، مثل مصطفى كامل ومحمد فريد ، كما كان يدرس له وطيون مرموقون مثل عمر لطفى مؤسس الحركة التعاونية الزراعية في مصر ، وحفنى ناصف الشاعر والمثقف الكبير .

وقد أتيت لطلعت حرب أن يتعرف على أساليب رأس المال الأجنبي في نهب البلاد ، بعد تخرجه من الحقوق ، عندما عمل في الدائرة السنية ، وهي أراضي الخديو إسماعيل التي كانت مرهونة مقابل القروض التي اقترضها ، ثم تقرر بيع هذه الأراضي وفاء للديون التي كانت أصلاً للأجانب ، وكان منصب طلعت حرب وقتها مديراً لمكتب تسوية المنازعات .

وفى عام ١٩٠٥ ترك طلعت حرب العمل الحكومى ، وعين مديراً لشركة هامة من شركات استصلاح الأراضى هى شركة كوم أمبو ، وكان اختيار طلعت حرب لإدارة هذه الشركة دليلاً على ما تمتع به وقتذاك من مهارة وصلات مع رجال المال فى مصر ، وكان رجال المال وقتذاك معظمهم من اليهود المصريين الذين كانوا يلعبون دوراً هاماً فى الاقتصاد المصرى ، وقد عين أحدهم فيما بعد وزير للمالية المصرية وهو يوسف قطاوى باشا .

وفى عام ١٩٠٨ استقبل طلعت حرب من شركة كوم أمبو ، ليصبح مديراً للشركة العقارية المصرية التى كان مجالها أوسع بكثير ، ففى حين كانت عمليات شركة كوم أمبو تجرى أساساً فى مديرية قنا بمصر العليا ، فإن مجال عمليات الشركة العقارية المصرية كان يشمل الدلتا المصرية ، وقد سمحت ملكيات الشركة الواسعة فى مديرية الغربية لطلعت حرب بالتعرف على كثير من عائلات الأعيان البارزة .

وقد كان عمل طلعت حرب فى الشركة العقارية المصرية نقطة تحول فى حياته فبالإضافة إلى أنه تدرب على الأعمال المالية على يد خبراء مهرة ، فقد أتيح له الاطلاع على هذا المنجم من الذهب المسمى بميدان المال ، والذى كان يغرف منه الأجانب واليهود ، وفى الوقت نفسه أدرك أن استقلال مصر السياسى الذى يحارب من أجله المصريون ، لن يكون له قيمة إذا لم يستند إلى استقلال اقتصادى قوى وإذا لم يسيطر المصريون على اقتصادهم .

وقد أتيح لطلعت حرب وقتذاك أن يعمل كوكيل لعدد من ملاك الأراضى المصريين البارزين ، ومن هؤلاء فؤاد سليم الحجازى ابن لطيف سليم الحجازى

الذى كان من الشخصيات الوطنية العامة ، وأحمد بليغ باشا الناظر السابق للدائرة السنية ، والأهم عمر سلطان باشا أبرز أعضاء عائلة سلطان ذات النفوذ الواسع فى مديرية المنيا ، بما أفاده فى إقامة علاقات مع عدد أكثر من أقوى العائلات ، وهى العلاقات التى أفادته فيما بعد فى تأسيس بنك مصر .

وفى هذه الفترة من حياة طلعت حرب انخرط فى الحياة السياسية ، وكان على صلة بالحزب الوطنى ، وكتب مصطفى كامل مقالاً فى صحيفة "اللواء" هنا فيه طلعت حرب لكونه أول مصرى يعين مديراً لاثنتين من أهم الشركات فى مصر ، وهما شركة وادى كوم وأمبو والشركة العقارية ، على أنه عندما ألف أحمد لطفى السيد حزب الأمة فى عام ١٩٠٧ انضم إلى هذا الحزب ، وظهر اسم طلعت حرب بين الأعضاء المؤسسين لصحيفة "الجريدة" وهى صحيفة حزب الأمة ، وكتب عدة مقالات فيها فى سنوات ١٩٠٧ و ١٩٠٨ و ١٩١٠ .

وقد وقف طلعت حرب موقفاً وطنياً من مسألة مد امتياز شركة قناة السويس فى عام ١٩١٠ ، عندما سعت الشركة الأجنبية لمد امتيازها أربعين عاماً لينتهى عام ٢٠٠٨ بدلاً من عام ١٩٦٨ ، وأثار هذا الطلب سخطاً ومشاعر خادة بين الوطنيين المصريين ، وقد شكلت "الجمعية العمومية" (وهى المجلس النيابى الثانى إلى جانب مجلس شورى القوانين) لجنة خاصة لدراسة المقترحات، وكلفت اللجنة طلعت حرب بإعداد تقرير ، وقد حدد طلعت حرب فى هذا التقرير الخسائر المالية التى ستعرض لها مصر نتيجة لمد الامتياز ، الأمر الذى اتاح للمعارضين حجة قوية لرفض المد . وفى نفس العام أصدر طلعت حرب كتاباً بعنوان "قناة السويس" أوضح فيه رأيه فى مشروع مد الامتياز قال فيه بالحرف الواحد : « نرى المشروع ، من كل وجه قلبناه عليها ، مشروعاً ضاراً لا تصلح الموافقة عليه » .

تمصير الاقتصاد المصرى :

فى عام ١٩١١ كانت فكرة إنشاء بنك مصر قد أصبحت مطلباً للوطنيين المصريين ، ولذلك عندما انعقد المؤتمر المصرى الأول فى أبريل ١٩١١ ، اقترحت لجنته وجوب إنشاء بنك مصر برؤوس أموال مصرية ، وقد رأى طلعت زيادة الشرح فى اقتراح اللجنة ، فوضع فى سنة ١٩١٣ كتابه المشهور : "علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك المصريين ، أو بنك الأمة « وقد ألم فيه بحالة مصر الاقتصادية منذ عهد الخديو إسماعيل ، واستعرض المحاولات التى بذلت فى سبيل إنشاء بنك مصرى يضطلع بمهمة إقراض المصريين والتعامل معهم ، وبين بالأرقام والوقائع الحاجة الشديدة لإنشاء هذا البنك الوطنى .

فى ذلك الحين كان الواقع الاقتصادى للبلاد يدفع الكثيرين من كبار ملاك الأرض جدياً للتفكير ، فقد كانت رقعة الأرض الزراعية محدودة ، وكانت أسعارها تتزايد باستمرار ، فى الوقت الذى انخفضت أسعار المحاصيل بسبب سيطرة الاستعمارين والرأسماليين الأجانب ، ولم يعد استثمار المال فى شراء الأرض يحقق الربح المنشود ، وقد نبه طلعت حرب إلى هذه الحقيقة فى وضوح ، فقال :

" دخل فى يد كثير من المصريين أموال كثيرة فى السنوات الأخيرة ، ففيم استعملوها ؟ استعملوها معظمها فى نوع الاستثمار الذى ألفوه ، وهو شراء الأراضى ، وتهافتوا عليه حتى أغلوا ثمنها ، هذا حسن ، ولكن إذا نظرنا إلى مجموع الأمة المصرية ، هل نجد إيرادها قد زاد بانتقال الفدان من يد لأخرى ؟ وهو هو بعينه يعطى إيراده مهما ارتفع ثمنه ، إن تلك الأموال التى دخلت فى يد المصرى واستعملها فى شراء الطين (الأراضى) ذهب معظمها هباء فى زيادة ثمن الأراضى بتهافتة على شرائها ، وعدم تنويعه طرق استثمار ماله .

وقد كانت الحرب العالمية الأولى هي الفرصة الحقيقية لطبقة أصحاب الأموال لتذوق الرياح الذي كان وفقاً على الأجانب ، فقبل الحرب كانت مصر سوقاً دولية تتنافس فيها الأمم الصناعية الكبرى حتى انخفضت فيه أسعار السلع الأجنبية إلى حد لم يدع أملاً في نشوء صناعات وطنية تستطيع منافستها ، ولكن قيام الحرب أدى إلى اهتمام الدول الصناعية الكبرى بخدمة المجهود الحربي على حساب المنتجات الصناعية ، كما انسحبت كثير من رؤوس الأموال الأجنبية من مصر وقد أفاد أصحاب رؤوس الأموال المصريين من هذه الظروف إنشاء بعض المشاريع الصناعية من جهة وزيادة رؤوس أموالهم في البنوك من جهة أخرى ومن هنا أدرك كثير من المصريين ومنهم طلعت حرب ضرورة تطوير صناعة محلية ، وتقلل اعتمادهم في إنشاء الحكومة "لجنة التجارة والصناعة" في سنة ١٩١٦ من فحول الرأسماليين المصريين وعلى رأسهم طلعت حرب وإسماعيل صدقي وأمين يحيى ويوسف قضاوى ، لدراسة الأسس التى تقام عليها الصناعة المصرية .

فلما انتهت الحرب وقامت ثورة ١٩١٩ الشعبية ، التى اشتركت فيها جميع طبقات الشعب ، من أجل الاستقلال ، شعر طلعت حرب أن هذه الروح الوطنية المتأججة في قلب الشعب المصرى هي الفرصة المناسبة لتحويل حلم إنشاء بنك وطنى مصرى إلى حقيقة واقعة ، ولذلك هب يحفز الهمم ، ويضرب على الوتر الحساس في كل طبقة لكي يحشدوا وراءه .

ففي خطابه يوم ٧ مايو ١٩٢٠ ، وجه كلامه للسامعين قائلاً : " في البلاد شباب ناهض يريد عملاً فلا يجده ! بل يريد قمريناً على عمل ، فلا يجد باباً يعطرقه ! تأسست في مصر مدارس للتجارة عليا ومتوسطة وليبية ، فماذا كان

نصيب متخرجيها ؟ هل شغلت البنوك أو الشركات أحداً منهم ؟ اللهم لا ! إلا النادر الذى لا حكم له ، بينما نجد الباقين يشتغلون فى الغالب كتبة فى المصالح الحكومية ، وما كان هذا هو الغرض من تأسيس هذه المدارس .

ثم خاطب طلعت التجار المصريين ، الذين كانوا يعانون من منافسة العناصر الأجنبية لهم وسيطرتها على السوق بسبب جهلهم بالأساليب الحديثة للتجارة ، فوعدهم بأن " البنك سيعمل ، بالاتحاد مع حضرات التجار على تنظيم الحالة التجارية ، وإنشاء الغرف التجارية ، والنقابات ، والشركات التعاونية وغيرها ، للدفاع عن مصالح أعضائها ، ودرس أنجح الطرق لترقية شئونهم ، وزيادة أرباحهم ، بتحسين طرق البيع والشراء ، وترتيب الأعمال ، وتنظيم الحسابات » .

كما توجه طلعت حرب أيضاً إلى ملاك الأراضى وأصحاب المصانع ، فوعده بأنه سوف يعمل معهم " على تأسيس النقابات وشركات التعاون اللازمة لهم ، والدفاع عن مصالحهم ومحاصيلهم ومصنوعاتهم » وكان مما قاله إن « البنك بنكهم ، والقائمين بأموره منهم ومصلحة الفريقين واحدة ، وهدف الجميع ترقية الشئون المصرية ، وتنظيم الحركة الاقتصادية بالبلاد » .

وأخيراً تمكن طلعت حرب من تأسيس بنك مصر بمرسوم سلطانى صدر فى ٣ أبريل ١٩٢٠ ، وكانت مجموعة المؤسسين تتكون من ثمانية من العاملين فى مجال المال والتجارة وهم أحمد مدحت يكن باشا ، ويوسف قطاوى باشا ، وعبد العظيم المصرى بك ، وعبد الحميد السيوفى بك ، والدكتور فؤاد سلطان ، وإسكندر مسيحة ، وعباس بسيونى الخطيب ، وعلى رأسهم طلعت حرب .

ففى المدة من عام ١٩٢٢ إلى ١٩٢٨ ، أى فى نحو ست سنوات ، أنشأ
طلعت حرب عشر شركات تجارية وصناعية كبيرة ، اتبعت فى تنظيمها وإدارتها
وتشغيلها أحدث النظم العلمية ، وغطت الميادين التالية :

الطباعة سنة ١٩١٢ ، وحليج الأقطان سنة ١٩٢٤ ، والنقل والملاحة النهرية
سنة ١٩٢٥ ، والسينما سنة ١٩٢٥ ، وغزل ونسيج القطن والحرير سنة
١٩٢٧ ، ومصايد الأسماك سنة ١٩٢٧ ، والكتان سنة ١٩٢٧

وقد أدى ظهور هذا الاتجاه الصناعى إلى تأسيس "اتحاد الصناعات المصرى"
فى عام ١٩٢٢ لتأييد الصناعة المصرية والدفاع عن مصالحها .

ففى ذلك الحين لم تكن مصر قد عدلت نظامها الجمركى على نحو يكفل
حماية صناعاتها ، لسبب بسيط هو أنه لم تكن هناك صناعات مصرية تستحق
الحماية . ولكن بعد إنشاء شركات بنك مصر الصناعية أصبحت الضرورة
تقتضى حمايتها من منافسة الصناعات الأجنبية المشيلة عن طريق فرض رسوم
جمركية عليها تكون عالية بحيث تكون المنتجات المصرية أرخص منها ويقبل
المستهلكون على شرائها .

وفى الوقت نفسه فإن النضال الوطنى لم يلبث أن أدى إلى إلغاء "الامتيازات
الأجنبية " فى مصر سنة ١٩٣٧ ، وأصبح فى وسع الحكومة المصرية فرض
الضرائب على أصحاب رؤوس الأموال الأجنبية فى مصر الذين يشتغلون فى
الصناعة والتجارة .

على أن قيام الحرب العالمية الثانية أثر تأثيراً سلبياً على بنك مصر ، إذ
أقبل الكثيرون تحت تأثير الخوف من ظروف الحرب على سحب ودائعهم من

وقد اشترط أن تكون الأسهم اسمية ، ويكون بقاؤها بيد مصرية ، حتى لا يشترك الأجانب في التأسيس ، وحتى لا يكون الاشتراك في التأسيس بغرض المضاربة بالسهم في سوق الأوراق المالية بالبيع والشراء ، وقد حث طلعت حرب المساهمين على عدم المضاربة قائلاً : إن المساهم لم يساهم في البنك - على ما نعتقد - ليضارب بأسهمه .

بل نذهب لأكثر من ذلك : « ماذا يضير الأمة ، التي تعودت على الموقف ، لو وقف بعض بنيتها جزءاً من مالهم على استقلال بلادهم الاقتصادي ، واعتبروا الأسهم من أول يوم وفقاً لا يبيع فيها ولا شراء » ٢ .

وقد ترتب على جهود طلعت حرب في هذا الصدد أن تعزز مركز البنك بما أخذ يتلقاه من المصريين ، فعندما تأسس البنك كان رأس ماله ٨٠ ألف جنيه في سنة ١٩٢٠ ، فارتفع رأس المال إلى نصف مليون في ٢٦ يناير ١٩٢٥ ، ثم بلغ في ديسمبر ١٩٢٧ مليوناً كاملاً ، وارتفع عدد المساهمين من ثمانية في سنة ١٩٢٠ إلى ٩٣٥٦ مساهماً في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٤ ، وأما الودائع فقد ارتفعت من مائتي ألف جنيه في سنة التأسيس لتصبح ٤٥ مليون جنيه في نهاية عام ١٩٤٧ .

هذا النجاح الكبير دفع طلعت حرب إلى النزول في ميدان تكوين الشركات الصناعية والتجارية ، الأمر الذي جعله بين صفة الرأسمالية المالية وصفة الرأسمالية الصناعية والتجارية ، وهذا التحول يعتبر الميلاد الصحيح للرأسمالية الصناعية المصرية ، فحتى ذلك الحين لم تكن الصناعة الحديثة معروفة للمصريين ، كما أنه لم تكن هناك هيئات خاصة تعمل على تمويل الطناعات الكبيرة ، وإنما كانت الصناعة المصرية في ذلك الحين قاصرة على المشروعات الفردية المحدودة التي تتبع نظم الإنتاج الفنية العتيقة ، ولكن ذلك كله تغير بعد اتجاه طلعت حرب إلى تكوين الشركات الصناعية والتجارية الحديثة .

البنك وهى الودائع التى استخدم جزءاً منها لتمويل بعض المشروعات ، ولم يكن لدى البنك سيولة نقدية كافية لمواجهة هذا الظرف الطارئ ، فاتجه طلعت حرب إلى الاقتراض من البنك الأهلى المصرى ، وطلب من الحكومة المصرية مساعدته فى الضغط على البنك الأهلى ليقبل بإعطائه القرض ، وقد قبلت الحكومة بشرط استقالة طلعت حرب من إدارة البنك ، ولم يتردد طلعت حرب فى كتابة استقالته انقاداً للبنك وشركاته .

وقد أثرت هذه الأزمة على صحة طلعت حرب ، فلم يلبث طويلاً حتى فاضت روحه فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٤١ ولكن بعد أن أرسى دعائم الاستقلال الاقتصادى المصرى .

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
ذو الوجهين	٥
زهد الصحابة فى صدر الإسلام	١٠
مختارات من كلام النساك ومواعظهم	١٢
موسى والخضر	٢٠
قارون	٢٩
أصحاب الأخدود	٣٥
زينب بنت جحش	٤١
هذا هو الإيمان	٤٥
ما أروعك فى رحمتك يا عمر	٤٩
وصية المهلب	٥٥
مصر تتحدث عن نفسها	٥٨
حكمة الأعياد ووحى العيد الهجرى	٦٣
جعفر بن أبى طالب	٦٦
مؤسس الدولة الإسلامية	٧٢
من كلام عمر رضى الله عنه	٨٠
أبو عمارة حمزة رضى الله عنه	٨٦
طبيب العرب	٩١
المقامة البشرية	٩٤
بلاء أعظم من بلاء	١٠٥

١٠٧	 فى فتح بيت المقدس
١١٥	 بل تأتينا أنت
١١٩	 فى أمثال العرب
١٢٧	 مائدة الرسول فى رمضان
١٣٥	 الأعياد والمواسم الإسلامية
١٣٨	 بصيرة العباس
١٤٣	 العلاج النفسى فى الإسلام
١٤٩	 بدر الكبرى وبدر الحاضرة
١٥٨	 الإسلام برئ من صراع الطبقات
١٦٣	 رابع أربعة
١٦٨	 معاوية
١٧١	 من أداب العباسيين
١٧٩	 رباطة الجأش
١٨٢	 مناجاة
١٨٨	 فصاحة الرسول
١٩٠	 من البيان والتبيين للجاحظ
٢٠٣	 اسكت يا كاذب
٢٠٦	 من أخلاق المأمون
٢٠٨	 الصوم تربية النفس
٢١٤	 بشر فوق البشر
٢١٨	 أحد
٢٢٦	 العفو عند المقدرة
٢٢٩	 سعد زغلول
٢٣٩	 سيد درويش
٢٥٠	 طلعت حرب
٢٦٠	 الفهرس